

محمود نمر

شبابٌ وغانيات
وأقاصيصٌ خُرى

الناشر

دارُ الأحياءِ الكُتبِ العربيّةِ

عميسى البابى الجلبى وشركاهُ

محمد بن عبد الله

شباب وغانیات
واقاصیصاخری

الناشر

دارالحياء الكتب العربیة

عیسی البابی الحلبی وشركاه

الطبعة الأولى — ١٩٥١
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

شباب وغانيات

١

نشأت في أعقاب القرن الماضي ، القرن التاسع عشر ، يتيماً
لا أرى لي أباً ولا أمّاً ، وعشتُ مع أخي وزوجته في منزل الأسرة
الكبير بـ « الحمزاوى » ، يقوم على شئوننا خدَم كثير . وكنت أشهد
الزُّوّار لا ينقطعون عن زيارتنا في صيف أو شتاء ، ومنهم من يقضى في
ضيافتنا الأيام والأسابيع .

وكان المنزل أشبه بالقلعة العتيقة ، له سور شاهق ، ومخابىء مرهوبة .
وهو يزخر بأثاث فخم تحتويه حجرات رحبة ذات سقوف عالية تملأ
النفس من روعة وجلال .

أما الحديقة فغير منسّقة ، تكتظُّ بالأشجار الكبيرة ، وتتوسطها
نافورة دبّ فيها البلي ، فتهدمت منها الجوانب ، وغاض بعض ما لها من
بهاء . ولكنها مع ذلك لم تفقد جاذبيتها التي تستهوى القلوب وتستلقت

الأنظار . وقد جعل البستاني حوله مرتعاً للبط والإوز ، يظل طول يومه سابحاً في الماء سِرْباً خلف سرب ، في غبطة ومراح ، مردداً صيحات يستجيب لها الطير على أفنان الشجر بالأغاريذ . وغير بعيدٍ من تلك النافورة تقوم ظلة خشبية عَفَى عليها الزمن ، تُشْعِرُك بما بقى فيها من جمال ورونق أنها كانت في سواف السنين مسرحاً لألوان من الأنس والمتعة والنعيم .

وكان « حمادة » أخى لأبى ، يَكْبُرُنِي بثلاثين عاماً ، وكنت أخشاه وأتجنب لقاءه جهد ما أستطيع ، فإن نظرة واحدة منه جديرة أن يَرْجُفَ لها قلبي رعباً . ولم يكن الخدم بأشدَّ شجاعة منى في لقاءه ، فهم إذا سمعوا على البعد وَقَعَ خطاه الثقيلة المتزنة تسالوا لَوَإِذَا .

وكانت زوجته « مَوَدَّة هانم » التي أناديتها بأُمى ، تحبه وتجله ، حتى إنها تُحَكِّمُهُ في مالها كله ، ولا تحاسبه في شيء منه ، وهى تعلم أنه أضعاف صفة ما يملك ، قبل أن يكون لها زوجاً . ولم تكن قد رزقت منه بولد ، فاتخذتني ابناً لها ، وأغدقت على من حنانها وتدلليها ما أنسانى يُتَمَي ، فأحبتها حباً عميقاً ما أحسب أن الأبناء يدخرون أكثر منه للأمهات .

وكانت لى حاضنة حبيبة إلى اسمها « مسرات » نُوْبِيَّة المَنبِت ،

غليظة الجسم في ترهل ، شدَّ ما أعاكسها فلا يهون عليها أن تؤذيني
لحبها إياي ، وحين يبلغ منها الضيق كل مبلغ تهيج حماقتها الجامحة ،
فتنجي على وجهها ضرباً وشداً .

وكان للبستانيّ مساعد يدعى « العيوطى » وهو غلام على هيئة
« الغوريلا » مجعد البشرة ، له صوت خشن ، وسعلة مزعجة ، وله
نظرات غريبة تنفذ إلى صميم قلبي وتهزني . وعلى الرغم من كراهيتي له
كنت أستجيب لما يريدني عليه ، فأسرف لفائف أختي طاعة له ،
وأدخل معه في الحنايا المهجورة من الحديقة . وكانت تغضني منه نظرات
الاحتقار التي يصبونها إليّ ، وتلك اللهجة العنيفة التي يخاطبني بها .
وقامت بنفسى أمنية عزيزة ، هي أن تتاح لي فرصة طيبة ، فأتناول عصاً
غليظةً لأنهال بها عليه أشبعه ضرباً .

وعصرَ يوم من الأيام ، فاجأنا أختي ونحن في الحديقة ندخن ،
وسرعان ما حكم على بالحبس في مخزن الوقود القصي ، معتزماً أن
يتركني فيه عامة الليل ، فقذف بي في الخزن ، وأغلق بابه عليّ ، فإذا
هو حجرة قدرة ليس فيها إلا كوة عالية ينفذ منها الضوء مجهداً هزيراً .
ولم أشعر بادئ الأمر بالوحشة ، إذ قدّم بعض الخادومات يسامرنى
خلف الباب ، ولما تفرّقن عني ، وأحسست الوحدة الرابعة ، ورأيتُ

الظلمة تحتشد ، خُيِّلَ إلى أن عيوناً نُحْمَرًا يتراقص منها الشرر
متوثبة حوالى ، وأنى أسمع زمزمة مخيفة تُصمُّ أذنى . فانبعث أبكى
وأصرخ مستغيثاً بزواج أخى وحاضنتى ، وأنا متشبثٌ بالباب مطبق
العينين .

وطرق سمعى جلبة فى الدار ولغط ، ثم تبينت أنهم أرسلوا « الأغا »
ليطلب المفتاح من أخى ، وكان فى زيارة لأحد أصدقائه من الجيرة ،
وسمعتُ زوج أخى صارخة تستحثّ الخدم على الإسراع ، وهى مطلة
من نافذة حجرتها العليا ، تقول بين فترة وأخرى :
أدركوه . . . سيموت الولد حتماً !

وسمعت كذلك حاضنتى « مسرات » ، وهى على مقربة من باب
المخزن ، تبكى تارة ، وتطمئننى طورا . . .

وبعد فترة جىء بالمفتاح ، فما إن أحسستُ بالأيدى تتلقانى حتى
خارت قواى ، وسرعان ما وجدتُنى على سرير زوج أخى ، وهى بجانبى
تُنَشِّقُنِي عطراً منبهاً ، وتَنَضِّح وجهى بماء الورد ، فتعلقتُ بها أتوسل
إليها ألا تبرح مكانى ، فأخذتنى فى حضنها ، وأكدت لى أنها ستبقى
فى فراشها ليلتى هذه . وأحسستُ يدى الحاضنة « مسرات » تدلُكُ
قدِّمى . وكان جوُّ الحجرة مُشْبَعاً بالبُخُور ، فشعرت بتخاذل يسرى

في أوصالي ، فيبعث فيها الراحة والطمأنينة ، ولم ألبث أن أرخيت جفني ، واستغرقتُ على الأثر في نوم عميق .

وفي غدٍ أخذتني « مودة هانم » من يدي ، ومضت بي إلى الردهة ، حيث يتناول أخي قهوة الضُّحى ، وقالت لي :
أَقْبِلْ يا « سامي » فَقَبِّلْ يدَ أخيك مستسحاً .
فأذعنتُ لأمرها ، وانصرفتُ من لدن أخي مرضياً عني .

وعلمتُ بعد ذلك أنهم طردوا « العيوطي » من الدار ، بعد أن أوجعوه بضربات حامية على رجليه ، فكانَّ حملاً ثقيلاً انزاح عن عاتقي ، بيد أني وددتُ لو شهدتُه وهو ممدد يتلقى الضربات الموجهة ، شفاءً لنفسي منه .

وكان الشيخ « الزيني » معلمي الذي تقنني مبادئ القراءة والكتابة ، يَفِدُّ صباح كل يوم ليلقي عليّ درسه الراتب ، وهو رجل أعمش ، قصير القامة ، بدين كأنه كُرّة من الشحم ، كثيراً ما تأخذه سِنَّة النوم أثناء الدرس ، فيَدَعُنِي في الحجرة ألعب بلا رقيب . وكان مشغولاً بالقهوة يطمع أن تتلاحق له أقداحُها في الفينة بعد الفينة ، ولذلك لا يفتأ يَنَاصِبُ الفَرَّاشَ العِدَاءَ في شأنها .

وكانت الحجرة التي نجلس فيها للدرس منظرًا لها مكانتها في الدار ،

إِذْ أُعِدَّتْ مِنْ قَبْلِ لَيْتَاوَ فِيهَا الْقُرَاءُ رَوَاتِبَ الْقُرْآنِ ، وَلِأَمْرٍ مَا أُهْمِلْتُ
وَأُتْخِذَتْ مَخْزَنًا لِلْمَدِيمِ مِنَ الْأَمْتَعَةِ وَالْأَدَوَاتِ ، ثُمَّ أُخْلِيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ
لِتَكُونَ لِي حَجَرَةً مَذَاكِرَةً وَدَرَسَ .

وَبَيْنَمَا كَانَ الشَّيْخُ « الزَّيْنِي » يَلْقَى عَلَى يَوْمٍ دَرَسًا فِي الْإِمْلَاءِ ،
وَهُوَ مَسْبِلُ الْجَفْنَيْنِ ، يَغْشَاهُ خَمُولُهُ ، إِذْ سَمِعْتُ وَقَعَ خَطَا وَئِيدَةٍ ثِقَالٍ
تَصْعَدُ سَالِمَ الْمَنْظَرَةِ ، فَعَرَفْتُهَا عَلَى الْفُورِ ، وَصَحْتُ مُزْعَجًا : أَخِي « الْبَك » !
وَاهْتَزَّ الشَّيْخُ « الزَّيْنِي » فِي مَقْعَدِهِ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ مَا وَسَعَهُ أَنْ
يَفْتَحَهُمَا ، وَأَخَذَ يَمْسَحُ لِعَابَهُ الْمَتَسَايِلَ عَلَى جَانِبَيْ فَمِهِ ، ثُمَّ هَبَّ وَاقْفًا ،
وَانْدَفَعَ مَهْرُولًا نَحْوَ الْبَابِ . وَرَأَيْتُ أَخِي قَادِمًا ، وَالشَّيْخَ يَنْحَنِي
عَلَى يَمِينِهِ يَصَافِحُهُ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ وَجَلَسَ عَلَى الْمُسْكَا ، وَأَشَارَ إِلَى مَعْلَمِي أَنْ
يَجْلِسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ ، غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْهُ ، فَامْتَثَلَ الشَّيْخُ ، وَجَلَسَ
جُلُوسَةً وَقَارَ .

وَسَعَلَ أَخِي سَعْلَتَهُ الْمَأْلُوفَةَ ، ثُمَّ قَالَ :

لِي مَعَكَ حَدِيثٌ فِي شَأْنِ الْوَلَدِ « سَامِي » ...

فَرَجَفَ قَلْبِي ، وَسَارَقَتُ النَّظَرَ إِلَى الشَّيْخِ « الزَّيْنِي » فَلَمَحْتُ

شَفْطِيهِ تَهْتَزُّ بِلَا كَلَامٍ ، وَاسْتَأْنَفَ أَخِي قَوْلَهُ :

لَقَدْ آتَى أَنْ نُلْحِقَ « سَامِي » بِالْمَدْرَسَةِ ... فَقَدْ أَوْفَتْ سِنُّهُ عَلَى

التاسعة ، وموعدُ افتتاح الدراسة بعدَ شهر ، فهل لك أن تُعِدَّه لذلك ؟
فأجاب الشيخ وهو يدعك يديه :

يمكنك يا سيدي أن تعوّل علىّ ، وسترى ما يسرُّك إن شاء الله .
— هذا هو المأمول فيك ، ولن ننسى أن نجزيك على الجميل
بالجميل ...

— خيرُك فيّاض يا سيدي « البك » ، لا حرّمنّا الله عطفك
الكريم ...

وما عتَمَ أخى أن نهض مشيعاً بالإجلال ، وصَرََفَنى المعلم قبل
انتهاء فترة الدرس ، بحجة أنه ماضٍ يبحث عن كتب الإعداد للمدرسة ،
فانطلقت الأفكار تلتطم في رأسى ، وقصدتُ حجرة « بشير أغا »
فرايته جالسا على حَشِيَّةٍ يبيء قهوته ، وكانت الشيخوخة قد أقعدته
عن العمل منذ زمن ، فلزم حجرة لا يبرحها إلا إذا كُلفَ عملا ذا
شأن . فجاستُ بجواره صامتا أرقبُه ، وانبعثت من القهوة رائحة زكية
حين جعل يَصُبُّها في القدح ، فقلت له :

ألا تُذيقُنِي جُرْعَةً من قهوتك هذه ؟

فرماني بنظرة شرراء وقال : غيب أن تطلب منى ذلك يا ولد ...
فقلت مستدركا : لن أطلب منك ذلك ... لا تغضب !

ومرت هنيئة صمت ، ثم سألت « الأغا » :
ألم تدخل مدرسة في حياتك يا عم « بشير » ؟ ...
فاحمرت حدقتاه ، وزمجر قائلاً :
مَنْ أخبرك أنى تعلمت في المدارس يا قليل الحياء ؟
— لماذا تشتمنى ؟ أفى سؤالى ما يسوءك ؟
وأقبلت عليه ألاطفه ، معتذراً إليه ، وقلت :
سألقُ أنا بالمدرسة بعد شهر .
فانفجر « الأغا » ضاحكاً ، وقال :
لقد آن الأوان إذن لتدخل السجن !
فرونوت إليه ، وقد اعترتنى بهتة ، وقلت : وهل المدرسة سجن ؟
— أو كنت تحسبها جنة ترتع فيها وتمرح ؟
فنكست رأسى لحظة ، ثم رفعت إليه بصرى ، وأنا أقول :
وهل المنزل جنة ؟ ستكون المدرسة خيراً لى على أية حال .
— عجباً لك ...
— حسبي أنى سأخلص من سوء معاملة أخى لى .
— إنه يرئيك .
— بل يكرهنى ... وإنى كذلك أكرهه !

وشعرتُ بغتة أن ما تفوّهتُ به إثم كبير ، فاجتذبتُ يدَ « الأغا » ،
وطَفِقتُ أقبّلها ، وألحُّ عليه في الرجاء ألا يُظهرَ أخى على شيء مما دار
بينى وبينه ، فطَيَّبَ خاطرى ، وأنا لنى حُسوةً من قدح القهوة ، وهو
يتضحك قائلاً : اشرب قليلاً لتهدأ نفسك !

فتناولت الحُسوة ، وحثتُ إلى الحديقة خُطاي .

٢

وفى ذات يوم ، سمعتُ من زوج أخى أن « إجلال هانم »
وحفيدة « تهنى » عادت من « استانبول » وأنهما ستزوراننا عما قليل .
وكان يطيب « لإجلال هانم » إذا ما حلتْ ضيفاً علينا أن تُمضى
بيننا أسبوعاً أو أكثر ، فتلقيتُ هذا النبأ بهِزةٍ اغتباط وسرور .

وبينا أنا فى حجرتى يوماً أَلعبُ ، إذ تناهتُ إلى ضوضاءٍ مركبةٍ
تَجُوزُ فناءَ البيت ، فهروأتُ إلى النافذة ، فرأيتُ رَكبَ « إجلال هانم »
يتهاذى نحو باب الحرم ، وأمام الخيل سائسان يَرُفُلان فى الملابس
المُقَصَّبة . أما السائق فكان فى حُائته الرسمية ، وبجانبه « فيروز أغا »
مرتدياً لبُوسَه الأسود الذى لم يستبدل به زِيّاً طولَ حياته . وما هى

إلا أن نزلت « إجلال هانم » من المركبة ، ملثمة الوجه بالغلالة الشفافة البيضاء ، لا يبدو منها غير عينيها البراقعتين الصغيرتين تعلقهما في رزاة وتوقر . وتبعتها حفيدتها « تهاني » في ثوبها الناصع البياض تخبط في تأنق وخيلاء ، وتنقل قدميها على محاذرة واحتراس ، كأنها تخشى ملامسة الغبار ومعابثة النسيم . فببطت الدرج مسرعاً إلى البهو الكبير أستقبلهما ، فما إن بلغت مسامعي خطوات القادمين حتى ألفتني أتوا في خلف إحدى الستائر ، ودخلت « إجلال هانم » البهو ، وثيدة في مشيتها النبيلة ، وبجانبيها زوج أخي آخذاً بيد « تهاني » ، تحيط بالجمع شردمة من الخادومات ، يتقدمهن « فيروز أغا » حاملاً لفيفة ضخمة . وسرعان ما تلفتت زوج أخي ، ثم قالت :

أين « سامي » ؟ لتذهب إحداكن لاستدعائه على الفور .

فلم أجد مناصاً من الخروج ، وأثار ظهوري من فحبي ضجة ضحك ودعابة ، فتقدمت من « إجلال هانم » وانحنيت أقبل يدها ، تلك اليد البضة الموردة التي تشبه في نعومتها ملمس الحرير ، ثم انثنت إلى « تهاني » فصاحتها دون أن أنبس .

ودخلنا جميعاً قاعة الزوار ، وبعد هنيئة قدم أخي ، فوقف خلف الباب يحيي الضيفة ، فدنت هي من الباب تبادله التحية ، وجرى بينهما من مقتضب الحديث ما يقتضيه المقام .

وعادت « إجلال هانم » إلى مجلسها ، فعمدت إلى الليفة التي كان يحملها « فيروز أغا » وجعلت تعالج حل رباطها ، فمالت « تهناني » على أذني تهمس : تلك هدايا لكم .

وظفت أراقب « إجلال هانم » في شغل ، وهي تحل الرباط ، فلما تفتحت الليفة أسرع إليها « تهناني » تنبش وتفتش ، لا تبالي ما ترميها به جدتها من زجر وانتبار . ثم أفلحت في استخراج هديتي ، وجاءتني بها على عجل ، وهي تقول :

انظر . . . حافظة كتب ، مؤشاة بالقصب . . .

ونادتني « إجلال هانم » فلبيتها طائعا ، فناولتني علبة من الحلوى ، فقبلت يدها شاكرا ، وانصرفت من ساعتى مع « تهناني » إلى الحديقة ، وقد أخذت يدها في يدي ، وانطلقنا نتواهب مريحين ، وسألتني « تهناني » : هل أعجبتك الحافظة ؟

— أعجبتني جدا

— ستضع فيها كراسات الشيخ « الزيني » .

— بل كراسات المدرسة .

— المدرسة ؟

— سألق بها بعد شهر .

— أمسرور بذلك أنت ؟

— لستُ بمسرور ولا بمحزون .

وكنا قد اقتربنا من الظَّالَّة بجوار النافورة ، فتلفتُ « تهاني » ،
ومضت تَهَشُّ بيدها على الطير السابح في الماء ، وتصفقُ طرباً قائلة :
يلوح لى أن الحديقة كما تركناها من قبل ، زَهراء غناء

مافتى البستانيَّ يرعى الإوزَ والبط .

ودلفنا إلى الظَّالَّة ، وهمنا بأن نجلس على المقاعد الممدودة ، وإذا
« تهاني » تُحجِّم عن الجلوس ، وتنظر إلى قائلة :
أليس لديك منديل نظيف ؟

— لدى .

وأخرجتُ من جيبى منديلاً بسطته على مقعدها ، فجلستُ وأخذتُ
مكاني بجانبها ، وفتحتُ علبة الحلوى ، وبدأنا نأكل مما تحويه .

وبعد هنيهة صمت ، قالت « تهاني » :

لا أرى « العيوطى » يلازم البط والإوز كعهدى به .

فشعرتُ بارتباك ، وما أسرع أن تماككتُ ، وقلتُ في غيرمبالاة :
لقد طردناه .

— لماذا ؟

— لم يكن يحسن القيام بشيء

وجعلتُ أسألهَا عن رحلتها إلى « استانبول » وانسرحنا في أحاديث عذاب ، كانت فيها تقصُّ علىَّ ما لقيتُ من حفاوة في بيوت أسرياء الترك ، وما سمعتُ من إشادة بها وإطراء . ثم أخذت تصف لي ما شهدتُ هنالك من مناظر جميلة ومباهج فاتنة ، لا نظير لها في « مصر » من أقصاها إلى أقصاها .

وسألتها في أثناء الحديث :

ما هو أروع شيء وقعت عليه عيناك . .

فقلت ، وهي متحمسة مهتاجة النفس : الصدر الأعظم !

فأسرعتُ أقول في تطلع وتشوف : رأيته ؟

فابتسمتُ في استخفاف وقالت : ما إن دخلتُ عليه ، حتى حملني

بين يديه ، وقبَّلني في بشاشة وترحيب ، ولكنني دفعته عني وقلت له :

إن شاربك يشوكُني ، هلا شذَّبْتَ أطرافه ؟

— أحقَّ جرَّوتِ على أن تقول ذلك له ؟

— لقد أغرق في الضحك ، وربَّتَ خدي ، وقال لي : في زيارتك

التالية لن يشوكك شاربِي يا صغيرتي الحسنة !

انطلقتُ أسرَّحَ الفكر لحظاتٍ فيما أسمعُني إياه « تهاني » من
هذا النبا الخطير ، وسألتها : ما شكلُ الصدرِ الأعظم ؟
فقلت وهي تستعين بإشارتها على التعبير :

ياله من رجل . . . قامة فارعة ، وجسم ضخم ، ووجه مُطَهَّم ،
وعينان ينبعث منهما وَ مِيزُ العزة والكبرياء .

ولما قَمَّنا إلى المنزل ، ذهبت « تهاني » إلى جدتها في حجرتها
التي أعددتها لها في الطبقة الأولى ، أما أنا فصعدتُ إلى حجرتي لأضع
حافظة الكتب وعلبة الحلوى ، وفيما كنتُ مارًّا بحجرة زوج أخى طرق
أذنى لَغَط ، فدنوتُ من الباب أسترقُ السمع ، فإذا أخى يقول :
لا أحبُّ هذه الهدايا التي نؤدى ثمنها أضعافاً مضاعفة !

وكان فيما يقول عنيفَ اللهجة ، ففررتُ إلى حجرتي ، وأنا أشعر
بألم دفين ، ووثبتُ إلى ذاكرتي أشناتٌ من الأحاديث كانت تتراعى إلى
في شأن ما تكابده « إجلال هانم » من متاعب ماليةٍ ثقال .

لبثتُ أمّضى أوقاتي مع « تهناني » نرتع ونلعب ، حتى إذا قدم
الشيخ « الزيني » ليلقني درسه الراتب إعاداً لدخولي المدرسة ، لم تدعنا
« تهناني » في خلوتنا نقرأ ونستذكر ، بل كانت تفتح الحجرة وتفسد
علينا المجلس بما تبعثه من تضاحك وضجيج ، فإن قعدت مدّت قدميها
في وجه الشيخ ، فلا يفتأ يعنّفها في تضايق ، فتخرج مُغضبة ثائرة ،
وتشكوه إلى الخدم ، مدعيةً عليه أنه ينهال عليها ضرباً وقرصاً ،
وتأبى إلا أن تستشهد بي ، فلا أجد إلى تكذيبها والإنكار عليها
من سبيل !

وكثيراً ما كان يطيب لنا المُكثُ في الحديقة نتصيّد العصافير
بالنّبال ، ونحتال لتسلّق الأشجار والأسوار .
ومرةً لحّت « تهناني » عنقوداً يانعاً من العنب متديلاً من عريش
الكرّم ، فأشارت إليه ، وقالت : ما أجمل هذا العنقود !
فقلتُ لها وقد فطنتُ إلى رغبتها : سأنادي البستانيّ يقطّفه لك .
فنظرتُ إلى نظرة استنكار ، وقالت : مَنْ أخبرك أني أريده ؟
فدهشتُ من لهجتها ، وما عتّمتُ أن تجهّم وجهها . . . وغشينا
الصمت بعض الوقت ، ثم قالت « تهناني » كأنها تحدث نفسها :

طالما قطف لي « إحسان » بن « فوزى باشا » بيده عناقيد أبعد
من هذا العنقود منالا !

فاعترتني حيرة وضيق ، ورأيتُ « تهناني » تهزّ رجلها في خيلاء
وازدراء ، فغمغمتُ قائلا : ولكن أخى . . . أخشى أن يباغتني . . .
شدّ ما نهاني عن العبث بفاكية الحديقة !

— إن « إحساناً » لا يخشى أخاه ولا أباه إذا رغبتُ إليه في شيء !
ونظرتُ مُحَنِّقاً إلى عُنُقود العنب ، ثم عقدتُ يديّ خلف ظهري ،
ومشيت في خطوات عابثة أتكلف الهدوء والسكينة ، ثم استندتُ إلى
إحدى قوائم الظلّة ، وطفقتُ أتشاغل بعود انتزعتّه من شجرة النبق ،
أقشيره وأكسره . وكان الوقت يمرّ بي في بطاء شديد ، والتفت التفتاة
خفية إلى « تهناني » ، فألفيتها ما برحت تهزّ قدميها وتحّدق في الأفق
شامخة الأنف . ثم لاحظتُ أنها تسارق النظر إليّ ، وتلاقت عينانا ،
دون عمد ، فانفجرنا على الأثر ضاحكين مقهقهين ، وسرعان ما وجدثني
أقصد إليها ، وآخذُ مجلسي بجوارها ، فإذا بها تدغدغني على حين غفلة ،
فقفزتُ ضاحكاً ، وعدت هاربة ، فعدوت خلفها بما وسّعني من جهد ،
ولّدنا الطواف بالحديقة ، نتضاحك ونتصايح ، ثم رجعنا إلى مكاننا
من الظلة ، وتهالكنا على المقعد ، وأنفاسنا تتلاحق . . .

وقالت « تهاني » : لم تستطع اللحاق بي .
فلم أنكر عليها ما تدّعي ، وما كان يُعِينِي اللحاقُ بها لو أردته .
وعلى حين بغتة قمتُ إلى عريش الكرم ، وهممتُ أن أتسلقه ،
وأدركتُ « تهاني » ما أنا فاعل ، فصاحتُ بي تمنعني ، فأصررتُ على
إنفاذ ما هممتُ به . ووافتنى شجاعة حافزة ، فضيتُ أَقْطِيفَ العنقود ،
ثم هبطتُ به إلى الأرض ، فَشَمَاتَنِي غبطة لا عهدَ لي بها من قبل ،
وجلستُ و « تهاني » بجوار النافورة نأكل من العنقود ، ونرمي للإِوزِ
والبط بما لا نستطيع من حبات العنب ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي لم أَطْعَمُ في
حياتي فاكهة لها لذة هذا العنقود !

وكان أخي قد اشترى لي مركبة صغيرة بِمُهْرٍ ظريف ، لكي
تكون لي في ذهابي إلى المدرسة وأرقتي منها ، واختار لها السائس
« مدبول » سائقاً .

وقد أجاز لي أخي في هذا اليوم أن أخرج بالمركبة أتنزه أنا
و « تهاني » . فارتديتُ حاتي القشبية ، وأمسكتُ بيمناي العصا التي
أهداها إليّ بائع الملابس حين اشتريتُ الحلة ، واكتستُ « تهاني »
ثوبها الحريري الأبيض ، ولبستُ قفّازاً وحذاءً على لون الثوب ،
وَعَصَبْتُ شعرها الفاحمَ برباط حريري ناصع البياض ، وتعطرت بعطر
جدّتها الفاخر ، وخرجتُ معي إلى الفناء رائعة الزينة متألقة المحيّا ،

تنظر إلى نفسها ، ثم تطوف بعينها فيما حولها كأنها تستدير الإعجاب والإطراء . وألقينا نهر المركبة يصهل ويتوثب في حمية وفتوة ، ضارباً الأرض بحوافره . واعتلى السائق « مدبولى » مقعده فى جلباب أزهر ومِعْطَفٍ سابغ ، فالتفتت إلى « تهانى » ، وقالت مهتاجة :

أهذا الرجل الذى يرتدى الجلباب هو سائق المركبة ؟

— إنه « مدبولى » السائق الخاص لمركبتى .

فدقَّتْ بقدمها صائحة :

لا أكون فى مركبة يسوقها رجل فى جلباب !

ولحَتُ الدمعَ يتحيرَ فى عينيها ، فجعلتْ أَرْضَاها جِهدى ، فلم تَلِنْ . وهمتْ بالعودة إلى الدار ، فأمسكتُ بها ، وأدرك « مدبولى » عِائَةً ما بيننا من نزاع ، فنزل عن المركبة مسرعاً ، وقصد إلى حظيرة المركبات وماهى إلا أن خرج منها عليه حُائَةٌ رئيسه « الأسطى عثمان » . واتجه إلى « تهانى » يقول لها : أيعجبك هذا الزَّيُّ ياهانم ؟

ومضتْ بنا المركبة إلى الحارة ، وجازتها إلى الشارع ، ومالت « تهانى » على أذنى هامسة : يجب أن تضع ساقاً على ساق ، وأن تجلس جلسة الأمراء . . . ألا ترى الناس يرمقوننا بعيونهم ؟

فابتسمتُ لها ، ثم تعاظمتُ فى مجلسى ، ونفختُ شدى !

٤

وأسفر صباح اليوم الموعود ، يومَ الإلتزام في سلك الدراسة ،
فاستيقظتُ من النوم بُكْرَةً ، يستبدُّ بي الضيق . وجعلتُ أرتدى حلتى
تأهباً للخروج ، وكان « مدبولى » قد أعدَّ المركبة الصغيرة لِتُقَلِّنى إلى
المدرسة ، فركبتُ صامتاً لا أنبِس ، وسارتُ بى المركبة تخرق الشوارع
والدروب ، وأنا مستغرق فى وجوم وتفكير ، تتراءى لى أشباح مبهمة
من مشاهد المدرسة والمعلمين والتلاميذ .

وألفيتُ المركبة تَمْسِكُ عن المسير ، فرفعتُ بصرى فإذا أنا تُجَاهَ
مبنى عتيق أقربَ ما يكون شَبَهاً بالدار التى تقيم فيها . ورأيت « مدبولى »
يشير إلىَّ أن أنزل ، وهو يقول : توكِّدْ على الله .

فأجبتُهُ شاردَ النظرات : أهذه هى المدرسة ؟

ونزلتُ عن المركبة ، آخذاً طريقى إلى الباب ، فواجهننى البوَّاب ،
وهو يلوح بكفيه الواسعين ، مُهَيِّباً بالتلاميذ أن يسارعوا إلى الدخول فى
صوت جهير ، تتجلى فيه الإمرة والسيطرة .

ودخلتُ مع الداخلين إلى الفناء ، فألفيتُ حديقة فسيحة سامقة
الأشجار ، والتلاميذ خلالها فى تصايح وتلاعب وتجوَّال . فوقفتُ

وحدى مستنداً إلى جذع شجرة ، أراقب مَنْ هُمْ حولى من الرفاق .
وطالت وقفتى وأنا على هذه الحال ، فأحسستُ فى دخيلة نفسى هاتفاً
يدفع بى إلى الهَرَب !

وفيا أنا جامد فى وقفتى ، عَرَّتْنى هِزَّة مفاجئة زلزلت كيانى ، فقد
تتابعَت دقات الناقوس ، تدوّى فى الفضاء بصوت مرهوب . وما كاد
الناقوس يمسك عن صليله ، حتى تعالى بعده صوت جَهْوَرىٍّ أَجَشٍّ ،
يأمر التلاميذ أن ينتظموا فى الصفوف ، فَهَرِغْتُ أَخذاً مكانى فى صف
التلاميذ الجُدُد . وكان صاحبُ الصوت الجهورى ما برح يردّد أوامره
متلاحقة لا تكفى ولا تشتفى ، على حين يتراقص شاربه غزيراً مسنونَ
الأطراف .

ووجدتنى أسير صفّاً من التلاميذ ، نضرب الأرضَ بأقدامنا فى
خطوات راتبة ، كأننا ثُلَّةٌ من الجنود يؤدون تمرينهم العسكرى .
وفى هذه اللحظة وحدها أيقنتُ بأنى أبتدى منذ اليوم عهداً جديداً
من حياتى ، لا أعرف له كُنْهاً ، ولكنه على أية حال يختلف أياً اختلافاً
عما سلف لى فى الحياة من عهود .

واحتوانى الفصل مع الرفاق ، فأخذوا مجالسهم على المكاتب
مُثْنَى مُثْنَى ، وجلستُ مع واحدٍ من هؤلاء الرفاق على مكتب يلتمع
طلاؤه الجديد .

وما أسرع أن تمَّ بيني وبين جليسى تعارف وثيق ، فأنبرى فى جراءة ومصارحة يُفَضِّى إلى من خاصة شأنه ومن أحوال أسرته بما لم أكن أتوقع أن يُذِيعَه لى ، على حداثة عهده بى .

ونبتتُ بينى وبين هذا الرفيق ألفة محبة ، فلاطفته ببعض ما حشوتُ به جيبى من حلوى أفانين .

وآذنتُ الحصّة الأولى بالانتباء ، وتبعته الحِصصُ الأخرى ، وكانت على تعدُّدها متشابهة ، إلا فيما كان من اختلاف المعلمين .

وانقشعتُ عن نفسى تلك الرهبة التى كنتُ أعانيها ساعة قدمتُ على المدرسة ، وما خرجنا فى فترة الغداء إلى الحديقة ، لزمتُ رفيقى « خيرى » ألاعبه بكرته الصغيرة . وكنا على مائدة الغداء جنباً إلى جنب ، واسترعى انتباهى ضابطاً دائب الحركة ، ضاحك الأسارير ، ينادونه باسم « محي الدين افندى » ، جعل يعلمنا أدبَ المائدة فى اغتراف الطعام ، وتوزيعه ، وتناوله . فأَنَسْنَا به ، وامثلنا لتوجيهه ، فى رضا وإقبال .

وكاد اليوم أن ينتهى بسلام ، لولا ذلك الحادث الذى تمخضتُ عنه الحصّة الأخيرة . . . إنها حصّة الإملاء ، المعلم فيها رجل عبّوس القسّات ، متمرّ النظرات ، لا يفتأ يهْدِر ويَزْمِز ، ولا يملُّ إصدار أمره إلينا أن نسكّتَ وإن كنا جميعاً فى سكوت !

ولاحت منى لفنة إلى رفيق « خيرى » فمحتة يغضن من جبينه ،
ويعوّج شذقيه ، ويمط شفتيه ، كأنه يحاكي سحنة المعلم ، سخرية به ،
وزراية عايله . وكان المعلم وقتئذٍ مصروفًا إلى التصحيح فى إحدى
الكراسات ، مكبًا عليها ، لا يكاد يحيد عنها ببصره ، فانسلت من
فى ضحكة على حين غفلة ، فرفع المعلم رأسه عن الكراسة ، محققن
الوجه ، بادى الغضب ، وقال فى صوت ينذر بالشر : من الضاحك ؟
فازداد الفصل سكونًا إلى سكونه ، ورفرف قلبى بين ضلوعى ، حتى
خيل إلى أن خفقاته ستكشف عن أمرى . وأعاد المعلم سؤاله ، ولكنه
لم يظفر من أحد بجواب . ولاحظت أن شفته ترتجف ، فتفصّد من
جبينى العرق ، ورأيت المعلم يخطو خطوة حاسمة ، وهو يقول :
إذا لم يخبرنى أحدكم باسم التلميذ الذى ضحك ، توليت
ضربكم جميعًا ، لا أفقت منكم أحدا .
فسمعت صائحًا من خلفى يقول : إنى أعرفه يا افندى .

— من هو ؟

— هذا .

وأحسست كأن إصبع التلميذ تخترق رأسى ، وهو يشير بها إلى .
وتوخّانى المعلم قائلاً : أنت الضاحك ؟

فاضطرب لسانى بقولٍ غير مبين ، فإذا بيد المعلم تهبط على أذنى
فتفرُّ كُها وتعرُّ كُها ، وظل كذلك حتى قام فى ذهنى أن الرجل يحاول
اقتلاعها من منبذتها ، وأنا أتلوَّى كاتماً ما يحيشُ فى النفس من ألم .
وتركنى المعلم ، راجعاً إلى مكانه ، وأنا أشعر بأن أذنى قد انقلبت
بحجرة من النار تتضرم ، وأنها قد انخلعت من مستقرِّها وأوشكت أن
تسقط ، وجلستُ ناكس الرأس ، وما لبثتُ أن استبدَّ بى بكاء
كظيم ، فجعلت أفتش عن منديلى ، فلم أجده له من أثر . فقال على رفيقى
« خيرى » يدسُّ منديله إلى .

وانقضت الحصاة ، وتهيأنا لمبارحة الفصل ، فوجدت « خيرى »
يشير إلى أحد الرفاق ، وهو يقول لى :
انظر إلى هذه البطة التى تتأبط كتباً !

فالتفتُ حيث أشار ، فإذا هو يقصد « الزغبى » ذلك التلميذ الذى
وَشَى بى عند المعلم ، فنالتى من جرَّاء وشايته ما نالتى من عقاب .
وسدَّدتُ إلى « الزغبى » نظرة شزرء ، وأنا شامخ الأنف ، ثم
ملت على رفيقى ، فانطلقنا معاً ضاحكين فى سخرية واستهزاء .

وما هى إلا أن راغى « الزغبى » هاجماً علينا بحِرْمِهِ العريض ،
وذراعيه القويتين ، وجعل يلُكِّمنا فى جسارة وعنف . فأما أنا فقد

مَنَعَتْنِي الدهشة أن أَرَدَّ العدوان بمثله ، وأما رفيقي فقد انبرى يُقَسِّم
أَيْشَكُونَنَّ « الزغبي » إلى الضابط ، وَلَيْرِينَه كيف تكون العُقْبَى .
بيد أننا حين مررنا بالضابط في مُنْصَرَفِنَا من المدرسة ، فطنتُ إلى
أن « خيرى » يَحْتِ خطاه ، ليتجنبَ مرأى الضابط ، كأنه لا يشهدُ
له ظلاً .

وكذلك أدبرتُ عن المدرسة ساعة العصر ، كما أقبلتُ عليها في
رَوْنَق الصبح ، وأنا في كلا الوقتين منقبضُ الصدر ، مهمومُ الفؤاد .
وكان « مدبولى » على مقربة من الباب ، واقفاً بالمركبة ، يفرقع
بسوطه ، إعلاماً لى بمكانه . فقصدتُ إليه ، وصعدتُ فى المركبة ،
يغشاني صمت . فابتدرنى بقوله : كيف حالك ؟ أَلستَ مسروراً ؟
— مسرور ...

وإذا بى أسمو بيدي إلى أذنى آنحسَّسها ، على غير عَمْد . وجعلتُ
المركبة تسلك الطريق ، وأنا فى غمرة من صمتى ، شارد الخطرات .
وبغلة شعرتُ بحركة على سُلَّم المركبة ، ولحتُ يدا تتشبث بمدخلها ،
وما هى إلا لحظة حتى تبينتُ « العيُوطى » صبيَّ البستانى الطريد يقفز
إلى داخل المركبة ، ويأخذُ مجلسه بجانبى فى صفاقة واجترأ . فتارت بنفسى
غضاضة واشمئزاز ، ولكن سرعان ما سمعته يقول :

متى أرسلوك إلى المدرسة ؟

واستبان لى أن صوته قد اخشوشن أكثر مما كان ، وأجبتُهُ :

هذا أول يوم لى فى المدرسة .

فلَوى رأسه إلى الطريق ، وقذف من فمه بصقة غليظة ، ثم مسح

شفتيه بظهر يده ، وهو يرسل ضحكة شوّهاء ، وقال :

أما أنا فأشتغل عند عَلاَف . . . خدمة طيبة . . . خير من بيتكم !

فشدَّ « مدبولى » عنانَ المَهْر ، يقف المركبة ، واستدار يرمى

« العيوطى » بنظرة حامية ، وهو يأمره أن ينزل من فورهِ ، ولمح

« العيوطى » سوط « مدبولى » يهتزّ فى يده ، فتكلف ضحكة ساخرة ،

وقفز مغمغا تطويه رَحمة الطريق .

وتابعت المركبة سيرها ، وأنا أفكر فيما صنع « مدبولى » مُعْجَبًا

بموقفه العظيم .

وبلغتُ المنزل ، وما إن وطئتُ عتبةَ الردهة ، حتى استقبلتني زوج

أخى فى تشوّقٍ وحنان ، وكانتُ جالسةً هى والحاضنة « مسرات »

تنتظران أَوْبَتِي ، فارتميتُ على صدر زوج أخى وأخفيتُ فيه وجهى ،

وأنا أجدُ نفسى أعلق بها ، كأنى ألتمس عندها الخلاصَ مما أعانيه ،

فرايتها تستجيب لى ، وتضمنى إليها ضَمّةً إشفاق ، ثم إذا هى ترفع وجهى

إليها ، وتحقق فيّ ، كأنها تستكثّر ما بطن من أمرى ، ثم قالت :
ماذا بك يا حبيبي ؟ أجبني ...

فطأطأت رأسي ، أخفيه في صدرها ، وأنا أزداد بها من تشبث ،
فسمعتها تقول للحاضنة « سرّات » :

الولد مكروب ... لا بد أن يكون قد ضربه أحد .

فصرخت باكياً أقول :

لم يضربني أحد ... لم يشدّ أذني أحد !

٥

لم يَمْضِ علىّ في المدرسة أسبوع ، حتى انعقدت الألفة بيني وبين
« الزغبى » ، فكان هو و « خيرى » صديقَي المختارين .

وحل « الزغبى » منا محلّ الزعامة ، يفرض علينا ما يرتئيه ، فنذعن
له بالطّوع . إذا خرجنا نلعب ، ألزَمَنَا أن نمارس ألعاباً بعينها ، وإن
لم نكن نهوّاها . وإذا صافى بعض الرفاق ، أو عادى منهم أحداً ، أرادنا
على أن نكون له تبعاً . وإذا لم يرقّه صنيع من معلمي المدرسة ، انتصر
بنا لتأييد ما يعنّ له من رأى ، حين يتحدّث إلى جموع التلاميذ .

فأما « خيرى » فكان لا يَمَلُّ الإِفْضاء إلى بأسرار بيته وخفايا أهله . حتى ثَقُلَ على سمعى حديثه ، وعجبتُ له : كيف لا يمسك لسانه عن شئونه الخاصة ؟ وكيف لا يمل التَّكرار والتَّريد ؟ وعلى مرَّ الأيام توثقتُ بيننا عُرَا الصَّحبة ، فكنا على الدوام ثالثاً يَسُودُه الوِفاق . الصَّبحُ يجمعنا عند مركبةِ « محمد أغا » بائعِ الحلوى وأدوات المدرسة ، وهو رجل حادُّ اللهجة ، سريعُ الغضب ، على ما فيه من سذاجة وغفلة . وكان « الزَّغبى » يتفنن فى مشاكسته وإثارة غضبه ، حتى يلتفتَّ الناس حولهما يتفرجون ويتضحكون ، ولكن سرعان ما ينتهى الأمر دائماً إلى صلح وسلام ، فيتقدم « الزَّغبى » ليشرِّبَ إلى رأس « محمد أغا » ، فيقبَّلهُ مرات ، على حين يغمغم الرجل بقوله :
سامحْتُك يا بنى . . . هداك الله يا بنى !

وكان هذا المنظر يقع من نفوسنا موقع الارتياح ، فلا نسأم شهوده على تَكَرُّاره .

وتعودتُ حياة المدرسة ، على تواصل الأيام ، وأصبحتُ مألوفة لى . وكان مما يجعلها حبيبة إلىَّ ذلك الضابطُ المسمَّى « محي الدين افندى » . فقد أشعرنى بأنه أب شفيق يحنو على حنوّه على ولده . وكثيراً ما كان يفا كهنى بِصُورٍ هزلية يرَسُمُها لى بقلمه ، وذات مرة قال لى :

إن لك أذناً تشبه أذن « سرحان » .

فقلتُ له : ومن « سرحان » هذا يا افندى ؟

فأخرج دفتره الصغير الذى كان يلازم جيبه ، وأجرى القلم فى ورقة منه يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، ثم قال لى : انظر . . .

فتطلعتُ ، فإذا أنا أرى أمامى رسماً سريعاً لرأس حمار ، وسمعتُه يقول لى : هذا هو « سرحان » . . . حمارى الصغير !

فأغرقتُ فى الضحك ، وأنا أقول : أعندك حمار يا افندى ؟

— حمار صغير . . . حجمه شبر فى شبر . . . وهو صديق بنتى « فتحية » . . . أتود أن تراه ؟

— يسرنى أن أراه .

— نذهب معاً لرؤيته بعد انتهاء الدروس .

فشمِلَتْنِي فرحة هزت أقطار نفسى ، ولكننى ما لبثتُ أن استغرقتُ فى التفكير لحظة ، ثم قلتُ للضابط : وصديقاى « خيرى » « الزغبى » ؟

— نذهب جميعاً . . . هل تسعنا مرَّ كِتْك ؟

— كلَّ السَّعة .

وانطلقتُ أتفقّد « خيرى » و « الزغبى » لأزفَّ إليهما البشرى ، وَخَيْلٌ إِلَى أن الحصص تطول أكثر مما هو مقدَّر لها من وقت ، فكنتُ أَرْجِيها بكل وسيلة ، وأنا ذاهبُ الصبر .

وأخيراً غادرنا المدرسة ، فَأَقْلَتْنَا المركبة جميعاً إلى بيت الضابط
« محي الدين افندى » . وفى أثناء الطريق ، كان هويبحاذب « مدبولى »
أطراف الحديث ، مُفَسِّحاً لنا مجال المعاشة والمزاح .
وسمّعنا « محي الدين افندى » يقول للسائق :
مكانك . . . هذا هو البيت .

وَسَبَقْنَا بالنزول من المركبة ليرشدنا إلى الطريق ، واجتزنا بوابة
عتيقة ، فاحتوانا فناء صغير تنظر إليه نوافذُ الحجرات ، واسترعت
عيني شجرة عجفاء ، شُدَّ إلى ساقها جحش يضرب لونه إلى الحمرة ،
فتدائنا منه نتطلع فى شغف ، ولكن الجحش لم يَأْبَهُ لنا ، فقد كان
مصرفاً إلى برسيمه يعتلف ، فصفق « محي الدين افندى » منادياً :
« فتحيّة » .

وما هى إلا أن رأيناها تنزل إلينا ، فلما أبصرها الجحش ، رفع
إليها رأسه ، وجعلَ يَقْلِبُ لها شفتيه ، كاشفاً عن أسنانه العاجية
المرصّعة ، فشماتنا فورة من الضحك .

وتقدم « محي الدين افندى » يقول لابنته : هؤلاء ضيوف ظرفاء ،
فالعابوا معا . . . واحرصي على أن تكونى ذات لطف وذوق .
(٣ - شباب)

وأدْبَرَ عَنَّا يَصْعَدُ الدَّرَجَ ، وَبَقِينَا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْجَحْشِ تَتَوَسَّمُهُ ،
وَشَهِدْنَا « فَتْحِيَّة » تَمُدُّ يَدَهَا بِقِطْعَةٍ مِنَ السَّكْرِ إِلَى « سِرْحَان » فَمَا
أَسْرَعَ أَنْ التَّهْمُومَا ، وَالْبِشْرُ يَلْتَمِعُ فِي نَظْرَاتِهِ .

كَانَتْ « فَتْحِيَّة » صَبِيَّةً سَمْرَاءَ ، أُنَيْسَةً الْمُحْيَا ، يَرِفُّ عَلَى ثَغْرِهَا
ابْتِسَامٌ . وَكَانَتْ نَظِيفَةً الثَّوْبِ ، عَلَيْهَا مِيدَعَةٌ أُنَيْقَةٌ حَسَنَةُ الطَّرَازِ ، تَتَرَامَى
بَيْنَ كَتِفَيْهَا ضَفِيرَةٌ يَزِينُهَا شَرِيطٌ وَرْدِيٌّ .

وَأَطْبَقَ بَيْنَنَا صَمْتٌ ، فَرَحْتُ أَرْجِعَ الْبَصَرَ بَيْنَ رَفِيقِيٍّ ، فَإِذَا نَحْنُ
الْثَّلَاثَةُ عَلَى حَالٍ سَوَاءٍ مِنَ السَّهْوِ وَالْجُمُودِ .

وَاشْتَدَّ تَعَجُّبِي مِنْ « الزَّغْبِي » كَيْفَ خَذَلَتْهُ جِرَّاءَتُهُ الْمَعْبُودَةُ ،
وَكَيْفَ خَانَتْهُ ذِلَاقَةُ اللِّسَانِ ؟

وَشَعَرْتُ بِأَنْ مَوْقِفَنَا فِي غَايَةِ مِنَ الْحَرْجِ ، وَأَنَّ فِي حَالٍ لَا تُغْبَطُ
عَلَيْهِ . وَلَحْتُ « فَتْحِيَّة » تَحَالِسُنَا النُّظْرَاتِ بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ . وَبَغْتَةً
دَنْتُ مِنَ الْجَحْشِ تَقْرُصُهُ ، فَإِذَا نَحْنُ نَسْتَرْسِلُ فِي تَضَاحِكٍ . وَتَحَمَّسْتُ
الْفَتَاةَ ، وَأَغْرَاهَا مَا رَأَتْهُ مِنْ تَضَاحِكُنَا ، فَجَعَلَتْ تَوَالِي قِرْصَ الْجَحْشِ فِيهِ
نَشْطَةً وَمَرَّاحَ .

وَأَلْفَيْتُنِي أَقْتَرَبَ مِنَ الْفَتَاةِ قَائِلًا : لِمَاذَا تَقْرُصِينِهِ ؟
فَأَجَابَتْنِي : لِأَنِّي أُحِبُّهُ .

وشعرتُ بأن يدي تنبسط إلى رقبة الجحش ، أحذو حَذْوَ الفتاة
في القرص ، فتبعَتْنِي يد « الزغبى » ويد « خيرى » تصنعان كما أصنع ،
فرفع الجحش رأسه إلينا ، وفي عينيه دهشة وعجب ، وجعل يضرب
الأرض بحافره ، يعلن تأفُّقه ، فلم نكثر له ، وتمادينا في قرصه ،
والطرب يهزنا جميعاً .

وأخيراً عِيلَ صبر الجحش ، فأطلق من حلقه بغتة نهيقاً عالياً ،
تَفَرَّغْنَا منه كل التفزع ، وتفرقنا عنه في صخب وضجيج .

والتفت إلينا « فتحية » تقول : أتحبون أن تعتلوا ظهره ؟

فصحنا معاً : نعم ، نعم !

فقالت : سأريك كيف تركبونه .

ثم فَكَّتْ وَثاقَ الجحش ، وما أسرع أن استوت عليه في مهارة
وخفة ، ودارت به في الفناء دورة ، وعيوننا بها موصولة ، ثم نزلت عن
الجحش ، وأشارت إلى أن أتقدم . ولاحظتُ أن « الزغبى » يريد
السبق إلى الركوب ، وكنتُ على وشك أن أدع ذلك له ، ولكن
باعثاً لا أعرف مأتاه ، دفع بي نحو الجحش ، فامتطيته في جسارة
أدهشني أنها تواتيني ، وبدأ على « الزغبى » ضيق لم يستطع أن يكتمه ،
فأما أنا فقد شاع في نفسى حبور وغبطة ، ودرتُ بالجحش دورتين في

فِنَاءَ الْبَيْتِ ، وَالْفَتَاةَ نَاطِرَةً إِلَى ، تَهَيَّأَتْ وَتَصَفَّقَتْ . وَمَا كَدَتْ أَتَخَلَّى
عَنْ ظَهْرِ الْجَحْشِ ، حَتَّى وَجَدْتُ « خَيْرِي » يَخْتَلِفُنِي عَلَيْهِ ، فَيَدُورُ
دَوْرَتَهُ ، فَلَمَّا نَزَلَ شَخَّصْنَا إِلَى « الزَّغْبِيِّ » فَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ لَا يَتَحَرَّكُ ،
فَأَهَابَتْ بِهِ « فَتْحِيَّةٌ » أَنْ يَأْخُذَ نَوْبَتَهُ ، فَأَبَى ، وَقَصَدَ إِلَى الشَّجَرَةِ
يَرْتَكِنُ إِلَيْهَا ، وَهُوَ يَهْزُ قَدَمِيهِ .

وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ بَدَأَ « مُحْيِي الدِّينِ افندي » يَحْمِلُ صَحْفَةً مَلَأَتْ
بِالنَّقْلِ مِنْ بَنْدُقٍ وَجَوْزٍ وَلَوْزٍ ، وَلَاحِظُ الرَّجُلِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ أَنْ « الزَّغْبِيُّ »
مَعْتَزِلٌ عَابِسُ الْوَجْهِ ، فَجَذَبَهُ مِنْ يَدِهِ يَقْرَبُهُ إِلَيْنَا فِي مَلَاطِفَةٍ . ثُمَّ أَخَذَ
يُوزِعُ عَلَيْنَا النَّقْلَ ، وَيَدْعُونَا إِلَى التَّنَافُسِ فِي أَكْلِهِ ، مُتَفَنِّئًا فِي الدُّعَابَةِ
وَالْمُفَاكِهِةِ .

وَوَضَّعَ السَّائِقُ « مَدْبُولِي » يَنْبِيئِي إِلَى أَنْتَى أَطْلَتُ التَّغْيِبُ ، وَأَنَّهُ
يَخْشَى مِنْ ذَلِكَ قَلَقَ الْأُسْرَةِ عَلَى . فَتَرَكْنَا الْبَيْتَ ، وَأَنَا فِي نَشْوَةٍ مِنْ
تِلْكَ الْجُلُوسَةِ الطَّيِّبَةِ الْأَنْيَسَةِ الَّتِي نَعَمْتُ بِهَا السَّاعَةَ .

٦

تكررت زوراتنا لبیت الضابط ، حتى استوثقت صداقتنا « لفتحیه » .
وَأَلِفَ الجَحشُ مَرَّآنا ، فكنْتُ أَغْدِقُ عليه قِطْعَ السكر ، وكما قَدِمْتُ
عليه رفعَ إلى رأسه ، وراح يقلب شفثيه ، ويكشف عن أسنانه المرصّصة ،
فَأَلْقَمَهُ قطع السكر في مسرّة وارتياح .

وكان « الزغبي » لا يفتأ يحاول أن يأخذَ بيننا مكان الرياسة في
بيت الضابط ، ولكن التوفيقَ لم يُسَعِفْهُ يوماً ، فكان يخيب في سعيه
مرةً بعد مرة ، حتى لقد جعلت شخصيته تتضاءل وتتقاصر ، فأصبحت
هذه الزورات لا تطيب له ، ولا تقع منه موقع الرضا .

وفي أصيل يومٍ كانت المركبةُ تمضي بي عائداً من المدرسة إلى
منزلي ، فباغتني رغبةٌ في زيارة « فتحية » ، ووجدتني أميل على
السائق « مدبولي » قائلاً له :

مِلْ بنا إلى بيت الضابط لأرى الجَحشَ « سرحان » .

فنظر إليّ في ابتسام ، وفرقع بسوطه ، وقال :

أمرُك يا « سامي بك » !

وبينما نحن في الطريق ، نتوحن بيت الضابط ، لاح في مُخَيَّلَتِي

طيف صديق « الزغبى » و « خيرى » ... فسألتُ نفسى : أكان
على أن أؤخر زورقى اليوم ، حتى أخبرهما فأصحبهما غدا ؟
وهممتُ أن أرغبَ إلى السائق « مدبولى » فى أن يَحِيدَ بالمركبة
إلى منزلى ، ولكننى لم أفعل .

و بلغتُ المركبةُ بيتَ « فتحية » فرأيتها بالبواب ، وما كادت تلمحنى
حتى هُرِعَتْ إلى ، وهى فرحانة طروب .

وسمعتها تسأل : أين « خيرى » و « الزغبى » ؟
فعاجلتني ربكة ، وجعلتُ أخلِطُ فى الجواب ، وأزورُ المعاذير ،
فاجتذبتني من يدي ، وهمستُ لى :
نلعب وحدنا . . . هذا أحسن !
فصادف جوابها هوى من نفسى .

وسارتُ بى إلى فناء البيت مُنَحِّي « سرحان » . . . وأظَلَّنَا صَمْتُ ،
على غير ما أَلِفْنَاهُ معا ، إذ كانت هذه أولَ مرة نترأى فيها وحدنا
لا يَشْرَكُنَا فى المجلس أحد .

وبعد فترة قلتُ لها : لماذا لا تزورين منزلى كما أزورُ منزلَكَ ؟ ...
عندنا حديقة رحبة تتسع للجرى والتَّوَأْتُب ، وفيها مخابىء نستطيع أن
نلعبَ فيها لُعبةَ الِإِسْتِخْفَاء .

— إني ماهرة في هذه اللعبة . . . وستعرف صدقَ قولي .
— وعندنا نافورة يسبح فيها البط والإوز . . . وفي أقصى
الحديقة جُبٌّ .

— جُبٌّ ؟ !

— جُبٌّ مُخِيفٌ ، كانوا يرمون فيه اللصوص والجرمين .
— أحقًّا ؟ . . . وِدِدْتُ أن أرى ماذا فيه .
— أنا لم أدخله في حياتي . . . إن العفاريت تتصايح فيه
طُولَ الليل .

— ليتني أسمعُ أصواتَ هذه العفاريت !

— ألا تَفْزَعِينَ ؟

وفي هذه اللحظة تعالى صوتٌ ينادي « فتحية » ، فقالت لى :
جَدَّتِي تَدْعُونِي .

وصَعِدَتْ مِهْرُولَةً ، وما لبثتُ أن هَبَطْتُ إِلَى تَقُول :
جَدَّتِي تَبْغِي أَنْ تَلْقَاكَ .

فرافقْتُها صاعداً إلى الطبقة العُلْيَا من المنزل ، وبينما نحن على السَّلَمِ
حدثتني الفتاة أن جَدَّتَهَا مكفوفة البصر ، وإن كانت تضطلع بشئون
المنزل ، ولا يُعْيِيها أن تَطُوفَ في الحجرات كأنها مبصرة . . .

وأقبلنا على رَدَّهة صغيرة تحتوى على أثاث ساذج ، ولكنه بادی
النظافة ، حَسَنُ الترتيب . وواجهتني على المَتَكِّ الفسيح امرأة بيضاء
الثوب ، على رأسها خمار ناصع البياض ، وبيدها شُبَّحَةٌ تُنَقِّلُ حَبَّاتِهَا
بين أناملها وهي تتمتم . وطالعتني منها وجه سَمَّحٍ عليه إشراق . وإذا
أحست وجودي نادتنى باسمي في تَلَطُّفٍ ، ولما دنوت منها مدَّت يدها
إلى رأسي ، وجعلت تتلو رُقِيَّةً بصوت عذب صافى النغم ، وختمت
رُقِيَّتَهَا تُوَالِي الدعاء لي ، وهي تقول :

أنتَ ناجح بإذن الله . . . ستنال الشهادة على بركة الله !
ثم أجلسَتَنِي بجوارها على المَتَكِّ ، وأمرت « فتحية » بأن تُعِدَّ
لي كُوبًا من شراب الليمون ، ثم شرعت تجاذبني الحديث في شئون
المدرسة والمنزل ، واستطردت من ذلك إلى أن تَسْرُدَ على طَرَفًا من
أحداث طفولتها ، وكيف أخذت قسطها من حِفْظِ القرآن . وكان حديثها
طليًا ممتعًا أنساني مرَّ الوقت ، وجعلني أشعر حين انتهت جلستي معها
بأنني أتركها على شَوْقٍ إلى المزيد .

وأخذتُ مركبتِي قافلًا إلى منزلي ، ولم تزل صورة السيدة « هاجر »
— جَدَّة « فتحية » — ماثلة أمام عيني ، وقد أُلْقِيَ في رُوعِي أنني كنت
في حضرة وَلِيَّةٍ من صفوة الأولياء الصالحين الذين اختلفتُ إلى

أضرحتهم في صُحبة زوج أخى والحاضنة « مَسَرَّات » .
وفى تلك الأُمسيةِ وجدُّتني أنْفُضُ نفسي متحدِّثًا إلى زوج
أخى ، أَصِفُ زيارتي « لفتحية » وما لَقِيتهُ فى جِلستى إلى السيدة
« هاجر » من حفاوة وتكريم ، وما أَكَدَّتْهُ لى من أنى ناجح
بإذن الله ، وأنى سبَّأُ الشَّهادة على بركة الله . فَتَطَلَّقَ وجهُ زوج
أخى ، واستزادتنى من وصف تلك السيدة المباركة ، ومما خَصَّتْنى به من
طرائف الأحاديث .

وانصرمتُ أيام قلائل ، ورجعتُ أصيلاً من المدرسة إلى منزلى ،
فراعنى أن أجِدَ « فتحية » هى وجدَّتْها السيدة « هاجر » فى حجرة
الاستقبال مع زوج أخى . وعلمتُ أن الحاضنة « مَسَرَّات » هى التى
ذهبت تدعوها إلى هذه الزيارة بإشارة من زوج أخى .
وما أسرع أن أخذتُ بيد « فتحية » ماضياً بها إلى الحديقة ،
فلما بدأنا نجوس خلالها ، مالتُ على « فتحية » تقول :
أريد أن أرى الجبَّ .

فصحبْتُها إلى مكانه ، ووقفنا مُتجاہِة لحظةً ونحن فى صمت ، ثم
سمعتُها تقول : أحقُّ أنهم كانوا يقذفون فيه بالصَّوص والمجرمين ؟
— هذا حق .

ووجدتُ الصَّبِيَّةَ تَخْطُو نَحْوَ الْجَبِّ ، وأنا دَهْشَ مأخوذ ، ثم
ما لبثتُ أن تَخَطَّتْ عَتَبَتَهُ ، ووقفتُ ترمي بنظرها في أرجائه ، واستدارتُ
راجعة تقول :

مكان مظلّم ، فيه بئر عميقة المهوى ، لا يبعث منه شيء على خوف !

٧

ترادفتُ أعوام ثلاثة ، وأنا في هذه المدرسة مع صديقيَّ « خيرى »
و « الزغبى » نتلازم ولا نفرق . وكانت حظوظنا في الحياة متشابهة ،
فإذا كان رسوبٌ في الإمتحان رَسَبْنَا جميعاً ، وإذا كان نجاح
فُرْزْنَا معاً .

ولم تكن أيامنا تخلو من مشاحنات تشوب ما بيننا من صفاء ، ولكن
كان يكفى أن يداعبَ أحدنا أخاه بكلمة ، أو يجاذبه بنكتة ، حتى يزول
الخصام ، ويشملنا الوئام .

أما « فتحية » فقد أصبحتُ صلتى بها أوثقَ ما تكون ، أزورها
وتزورنى ، وكذلك توثقتُ الصلةُ بين زوج أخى والسيدة « هاجر » ،

فهما تتزاوران وتأنسُ كلتاها بصاحبتهما كلَّ اثتناس .

وخلَّا بيتُ « فتحية » من « سرحان » ، فقد كَبِرَ ، وباعه « محي الدين افندى » لأحد السَّقَّائين في الحىِّ الذى يقيم فيه ، فكان السَّقَّاء يَشُدُّ الحمار إلى عَرَبَةٍ تحمل قَرَبَ الماء ، فيظلُّ مُطَوِّفًا بالحارات والأزقة طولَ النهار .

وقد يَحْدُثُ أن أكونَ أنا و « فتحية » في فناء بيتها نلعب ، فنسمع نهيقَ الحمار ، في بعضِ الطريق ، فتغشانا كآبة ، ونُحِسُّ كأنه يُهَيِّب بنا أن نعينه على أمره ، وأن نواسيه في محنته ، فنخرج له نلتقاه في شغف وتحنان ، ولا نُعَمُّ « فتحية » أن تُلقِمَه قطع السكر في رِقَّة وملاطفة .

والتحقتُ بمنزلنا خادم كَنِيفَتُ على الخمسين ، تُدْعَى « أم خُصِير » ، وَكَلَّتْ إليها زوجُ أخى الإشرافَ على مخزن المئونة ، وكانت امرأة صَخَّابة سَلِيطة ، لا يَكِلُ لها لسان ، ما إن تفرغُ من مشاكستها للطاهى حتى يَنْدَشَب بينها وبين سائر الخدمِ عِراك . وكثيراً ما فَرَّعَنى صياحها من نومى ، فأنهضُ في سخط . ومَرَّاتٍ أقسمتُ أن أشكوها إلى زوج أخى ، ولأمر ما تهَيَّبتُ أن أفعل .

وكانت زوجُ أخى تَحْمَدُ لها مشبوبَ نشاطها في خدمة الدار ،

ودأبها في رعاية المرافق ، دون حَمَزٍ أو توجيه .
وعلى الرغم من سلاطتها وشغفها ، لم يكن الخدم يضيقون بها ذرعا ،
إذ كانت تؤنسهم في ساعات صفوها بألوان من المنمكة والمزاح .
ويوماً قَدِمَتْ علينا « فتحية » هي وجدتها ، لتبديت كلماتها
ضعيفين في البيت ، وطاب السهرُ لي مع « فتحية » بعد العشاء ، فلما
أثقل علينا النوم ، ولم نستطع له غلابة ، قمتُ أرافقها إلى مخدعها ،
في حجرة الضيافة ، وكانت مستقلةً في جناح بعيد . فجزنا في
مسيرنا بحجرة « أم خضير » ونحن نخطو على هيئة ورفق ، فتناهت إلى
سمعي أصوات غير مأوفة ، فوقفنا بباب الحجرة نصت ، وما لبثت أن
سددت نظري في فُرْجَةِ المفتاح ، فرأيتُ عجبا : « أم خضير » ترقص
في تبدل ، ومن حولها جمع الخادومات يطبلن ويصفقن ويغنين ، وزحمتني
« فتحية » تريد التفرج ، وأخذتُ مكاني في تشوف وتعجل . ولكن
سرَّعَان ما تملت عن الباب ، وهي تبادلي النظرات في دهشة وتخجل .
وتابعنا سيرنا صامتتين .

كانت « أم خضير » زوجا لرجل يُسمى « بابا درويش » ، وقد
أطلق عليه الناس هذا اللقب ، لأنه كان يضع على رأسه طرطورا متطاولا ،
على نحو ما يلبس « الدراويش » . وكنتُ أراه يتردد على منزلنا زري الملبس ،

يلف على طُرطُورِهِ عمامة خضراء ، وفي كل مرة يطرق الدار يخرجُ إليه « بشير أغا » ليناوَلَه مبلغاً من المال ، تمنحُه زوجُ أخى إياه . وأذ كر أنى لُحْتَه غيرَ مرة يقصد إلى باب الحَرَم ، فى مُسارِقَة وتلصّص ، فتلقاه زوجُه « أمّ خُضَيْر » وتُلْقى إليه صُرَّة لا أدرى ماذا تحوى ، وتناقشه فى إمرة جارحة وتسلط مُذِلّ ، فيتضاحك الرجل فى عُبث وتهريج ، وينصرف حاملاً الصُرَّة ، غيرَ لَاحِظٍ على شىء ، فيتبعه من يصادفه من الخَدَم ، وهم يماجنونه ويناولونه فى غير احتشام .

وحلَّ يوم مرضتُ فيه الحاضنة « مَسَرَّات » ، إذ تَوَرَّمتُ قدماها ، فلم تَعُدْ تقوى على النهوض . ولزمتُ حِجْرَتَهَا لا تبرح المَخْدَع ، فاضطلعتُ « أم خضير » بما كانت تضطلع به الحاضنة من شأنى . والحقّ أنها كانت تؤدّى عملها على خير ما يجب ، ولا سيما إذا اقتضى الحال دقة فى الرعاية والتعهد ، فإن انحرفتُ صِحتى ألفتُ « أم خضير » أنشط ما تكون فى خدمتى وتمريضى . ولكنها كثيراً ما شاركتنى غير مدغوة فى طعامى ، وطالما قرّبتُ لى صَحْفَةَ الحساء خالية من الدجاجة ، مدعية أن القطّ النهمها ، وأنها لن تُنجيه من العقاب !

٨

وكانت « تهاني » تزورنا مع جدتها « إجلال هانم » في الحين بعد الحين ، والتقت في بعض زياراتها « بفتحية » ، فتمّ بينهما التعارف ، ولكن « تهاني » لم تكن تهبط من عليائها لتلاعب « فتحية » أو تلبسَ معها في الحديث .

واتفق لقاؤهما في منزلنا ذات يوم ، فأنكرت « فتحية » من « تهاني » تحيتها الجافية المتعالية ، ولم تلبث أن استخفت ، فلم يستبن لها في المنزل ظل ، وما توانيت في البحث عنها ، بيد أني لم أجدها إلا حين تحاقنا جميعاً حول مائدة الغداء .

وفطنت إلى أن « تهاني » تُخالسُ « فتحية » نظرات سُخرية واستهزاء ، ثم تميل على جدتها تُسرّ إليها بعض الكلمات ، وشعرت بأن « فتحية » تغالب التبرّم والضيق ، على تظاهرها بالسكينة ، كأنها غيرُ مبالية .

وبعد أن استوفينا قسطنا من الطعام ، ترك الجمعُ مقاعد المائدة ، وخلا المكانُ لنا نحن الثلاثة ، أنا و « فتحية » و « تهاني » .
وخصّني « تهاني » بالحديث ، قائلةً في صوتٍ غيرِ جَهير :

فتاة من عامة الناس ، لا تليقُ بما لنا من مقام !
فأحسستُ بأن أوصالى قد جمدتُ ، وأنى إن أطلقتُ لسانى
أسمعتُ « تهانى » ما تكره ، ورأيتُ « فتحية » تنهضُ صامته تريد
الخروج ، وسمعتُ « تهانى » تتابعُ قولها فى صوت أجهرَ من ذى قبل :
انظُرْ إلى جَوْرَبِها ... جورب ولا كالجوارب ... آخرُ بدعة!
وانبعثتُ ضاحكةً فى توقُّح ، ولا أدرى كيف احتبسَ الكلامُ
فى فمى ، فلم أنبسُ ، على حين أنى كنتُ أغلى كالمِرْجَلِ الفوّار .
ورمقنا « فتحية » بنظرة حادة ، وانصرفتُ فى خُطّا سِراع .
وعلمتُ فيما بعدُ أنها غادرتُ البيتَ مع جدّتها السيدة « هاجر » بعد
الغداء بقليل . فلبثتُ وقتى مع « تهانى » ضائقَ الصدر ، كئيبَ
النفس ، على الرّغم مما حاولته هى من إيناسى وابتعاثِ نَشَطَتِي للهو
والمِراح .

وما إن آذنتُ الشمسُ بالغيوب ، حتى انصرفتُ من الدار
« إجلال هانم » ومعها « تهانى » ، فشعرتُ بعد انصرافها كأنما انزاح
عن كاهلى عبءٌ ثَقِيل . ولكن طيفَ « فتحية » ظل يلمح أمام عيني ،
وكأنها تعتّبُ علىّ فيما كان من سكوتى ، وتساألنى : كيف وقفتُ
مكتوفَ اليدين إزاء الإهانة التى ألحقها « تهانى » بها ؟

وحان موعدُ النوم ، فرأيت « أم خضير » تطرُقُ حجرةً مخدعي
لِتَسْوِيَّ الفراش ، وتَمَلَّأُ قَلَّةُ المَاء ، وساورَتْنِي فكرةٌ لم أملك لها
دفعاً ، فاقتربتُ من المرأة ، وهمستُ أقول لها في ملاينة ورجاء :

أترضين أن تؤدِّي لي خدمة هيئة ؟

فنظرت إلي ، وهي تبسم ، ثم قالت :

على العين والرأس . اطلبُ تجدني خادمتك .

فأحجمتُ عن الكلام لحظات ، وأنا مطأطي أفرك إحدى يدي
بالأخرى ، ثم اندفعتُ أقول : أريد أن تشتري لي شيئاً . أريد أن
تختاريه من أحسنِ نوع . كم قرشاً تطلبين ثمناً له ؟
فرنتُ ضحككُها ، وهي تقولُ معايشة :

كيف لي أن أطلبَ منك ثمنَ شيء لا أعرفُ ما هو ؟

— زوج من الجوارب ، من أحسنِ صنف .

— أفى حاجة أنتَ إلى زوج من الجوارب ، وصِوانك مملوء

بالجديد منها والقديم ؟

— لا أريده لي . . . أريده . . .

وأرتجَ عليّ ، فلم أَلْفِظْ من قول . وشعرتُ بالدم يضطرم في

وجهي ، وسمعتُ المرأة تقول ، وقد غمزتُ بحاجبها :

أَتُمِمْ . . . أتريده جورباً نسوياً ؟

فغمغمتُ قائلاً : نعم .

فتدانتُ المرأةُ مني ، وهي تقول ، وقد برقتُ عينها :

لأيةِ الفتاتينِ تريدهُ ؟ . . . لهذه أم لتلك ؟

فأجبتها محتبسَ الصوت : أريدهُ « لفتحية » . . .

— حسناً ، حسناً . . . سأحضِرُ لك الجوربَ من أحسن صنف .

وسرعان ما تدانتُ مني ، ومدتْ يدها إلى خصرى تدغدغني ، وهي

تقول : طِبْ نَفْسًا وانتعش . . . وخلِّ عنك الخجلَ وإلا كُتِيب .

وفي غدي ، وأنا خارجٌ من المدرسة أصيلاً ، أعتلي المَرْكَبَ ،

ناولني السائقُ « مدبولي » كَفِيفَةً صغيرة ، وأخبرني بأن « أم خضير »

أوصته بأن يُسَامِهَا إلى ، فأحسستُ بقلبي دائبَ الخفقان ، وجعلتُ

أقلبُ الكَفِيفَةَ بين يدي ، وأنا مهتاج ، ولطالما كهممتُ بأن أفتحها لأتبيّن

ما تحويه ، ولكنني ملكتُ نفسي ، وآثرتُ أن أبقى الكَفِيفَةَ على

حالتها ، وقلتُ للسائق « مدبولي » :

خُذْ طريقيك إلى منزل « محي الدين افندي » . . .

وما كدنا نصل ، حتى قفزتُ من المركبة عاجلاً إلى المنزل ،

فصادفتُ « فتحية » في الفناء ، بين يديها دِيباجة تُعْنَى بتطريزها ،

فلما أَحَسَّتْ مُقَدَمِي ، أَلْقَتْ عَلَى نَظَرَةٍ عَابِرَةٍ ، وانكفأت على ديباجتها
كأن لم تَرَ شَيْئًا . وفي هذه اللحظة وجدتني كأنما صُبَّ على رأسي دَلُوءُ
ماء بارد ، فتناقلتُ خُطَايَ ، وَعَلَنَ لِي أَنْ أَتْرِكَ الْمَنْزَلَ رَاجِعًا ، ولكنني
لم أُمَلِكْ إِلَّا أَنْ أَتَقَدَّمَ عَلَى هَيْئَةٍ ، وَأَنْ آخِذَ مَكَانِي بِجَوَارِهَا ، عَلَى
دَكَّةِ الْخَشَبِ . وَشَرَعْتُ أَنْ أَمْلِيَ تَعَبْتُ بِاللَّفِيفَةِ مَعِيَ وَأَنَا صَامِتٌ ،
وَشَاهَدْتُ الْجُورِبَ يَبْرُزُ مِنْ جَوَانِبِ اللَّفِيفَةِ هَفْهَفًا رَقِيقَ الْحَاشِيَةِ ،
فَاهْتَزَّ لِمَرِّ آهٍ قَلْبِي ، وَالتَفْتُ عِجْلَانٍ إِلَى « فَتْحِيَةِ » ، وَمَدَدْتُ لَهَا يَدِي
بِالْجُورِبِ فِي أَهْتَامٍ وَتَحَمُّسٍ ، وَقُلْتُ :

لَقَدْ أَحْضَرْتُ لَكَ شَيْئًا يَا « فَتْحِيَةِ » . . .

فَعَدَلْتُ بِبَصَرِهَا نَحْوِي وَهِيَ تَقُولُ : لِي أَنَا ؟

وَمَا إِنْ رَأَتْ الْجُورِبَ فِي يَدِي ، حَتَّى أَزُورَّتْ عَنِّي ، وَبَغْتَةً غَطَّتْ
وَجْهَهَا بِكَفِّهَا ، وَانْدَفَعَتْ تَنْشِيجَ وَتَقُولُ مُحْتَدَّةً : لَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى
جُورِبٍ . . . لَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ . . . دَعْنِي وَشَأْنِي !

وَتَمَحَرَّجَ مَوْقِفِي ، وَاشْتَدَّ ارْتِبَاكِي ، فَأَعَدْتُ الْجُورِبَ إِلَى كَفِيفَتِهِ ،
وَأَنهَمَكْتُ أَعْقِدُ اللَّفِيفَةَ كَمَا كَانَتْ ، وَهَمَمْتُ بِالْإِنْصِرَافِ ، وَلَكِنِّي
أَلْفَيْتُ « فَتْحِيَةَ » تَهَادِي فِي نَشِيجِهَا ، وَيَتَعَالَى نَحِيْبُهَا ، وَخَشِيتُ أَنْ
يَبْلُغَ الصَّوْتُ أَسْمَاعَ جَدَّتِهَا ، أَوْ يَفَاجِئَنَا أَبُوهَا فَيَرَاهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ،

وَحَزَبَنِي أَمْرِي ، فَزَوَّيْتُ مَا بَيْنَ عَيْنَيَّ ، تَسْتَغْرِقُنِي أَخِيرَةً ، وَحَتُّ
السَّائِقِ « مَدْبُولِي » يَلُوحُ وَيَخْتَفِي ، وَهُوَ يَرْقُبُنَا رِقْبَةً ائْتِطَلَّعَ ، ثُمَّ
رَأَيْتُهُ مَقْبِلًا عَلَيْنَا ، وَهُوَ يَقُولُ :

مَاذَا جَرَى ؟ مَاذَا لَا تَتْلَا عِبَان ؟

ثُمَّ قَصَدَا إِلَى « فَتْحِيَّة » فَرَبَّتْ كَتِفَيْهَا ، وَقَالَ لَهَا :

أَهَذَا وَقْتُ غَضَبٍ وَبُكَاءٍ ؟ تَعَالَى مَعِيَ . . .

وَذَهَبَ بِهَا إِلَى صُنْبُورِ الْمَاءِ ، فِي أَقْصَى الْفِنَاءِ ، فَغَسَلَ لَهَا وَجْهَهَا ،
وَجَعَلَ يُضَاحِكُهَا وَيُفَاكِكُهَا ، حَتَّى سُرِّيَ عَنْهَا ، وَعَادَ بِهَا إِلَى جِوَارِي ،
وَقَالَ لِي فِي لَهْجَةِ الْأَمْرِ : قُمْ فَتَقَبَّلْ رَأْسَهَا .

وَأَطَعْتُ دُونَ جِدَالٍ ، فَالْتَفَتَ السَّائِقُ « مَدْبُولِي » إِلَى
« فَتْحِيَّة » قَائِلًا : لَا يَصِحُّ أَنْ تَرْفُضِي هَدِيَّةً يَقْدِمُهَا إِلَيْكَ أَخُوكِ .
وَأَخَذَ اللَّفِيفَةَ مِنِّي فَقَدَّمَهَا إِلَيْهَا ، فَتَقَبَّلَتْهَا مِنْهُ ، وَإِذَا هُوَ يَقُولُ لَهَا :
جَاءَ دَوْرُكَ . . . قَوْمِي الْآنَ فَتَقَبَّلِي رَأْسَ أَخِيكَ .

فَلَمْ تَتَمَنَّعْ ، وَلَبِثَ مَعَنَا السَّائِقُ « مَدْبُولِي » وَقْتًا يَشِيرُ تَضَاحِكُنَا
بِمَعَابِثَاتِهِ وَنِكَاتِهِ ، وَيُدْفَعُنَا إِلَى الْإِشْتِرَاكِ فِي اللَّعِبِ مَعًا ، حَتَّى صَفَا
مَا بَيْنِي وَبَيْنَ « فَتْحِيَّة » ، وَعَادَتْ إِلَى مَأْلُوفِ شَأْنِهَا مِنْ مَرَحٍ
وَإِينَاسٍ .

وكنتُ فيما بعدُ كلما لقيتُ « فتحية » تطلعتُ في شَغَفٍ إلى
ساقِها ، لأنظرَ ما تكتسيان من جَوَرٍ ، فألاحظُ أنها اقتنَت
جواربَ كثيرة ، وأنها كانت أشدَّ ما تكون عنايةً بتخيُّر ألوانها
وأنواعها ، ولكني لم أرها يوماً تلبس الجوربَ الذي أهديته إليها ، ولم
يذكرُ بيننا يوماً ما حديث في شأن ذلك الجورب المنبوذ !

٩

هأنذا بعد أربعة أعوام أبلغُ السادسةَ عشرةَ ، ومع ذلك فما أزال
في مدرستي الابتدائية المعهودة ، مؤتسماً فيها بصحبة قريني « الزغبى »
و « خيرى » ، نؤلفُ معاً ثالثَ التلاميذ الكبار أصحاب النفوذ
والسلطان ، يتهيبُنَا سائرُ أبناء المدرسة ، ويحسبونَ لنا ألفَ حساب !
أما « تهنانى » فقد سافرتُ بها جدَّتُها « إجلال هانم » إلى
« استانبول » منذ أعوام ثلاثة ، ولم أعلم من أمرهما إلا أن « تهنانى »
ألحقتُ هنالك بالقسم الداخلى في إحدى المدارس الفرَنسيَّة .

ورَوَّعَنِي يوماً على حينِ فجأةٍ نبأٌ فاجع ، ذلك هو وفاةُ

« محي الدين افندي » فَعَشِيَتُ الْمَدْرَسَةَ يَوْمَئِذٍ غَاشِيَةً مِنَ الْأَسَى ،
وراح التلاميذ يتناقفون الحديثَ في هذه الفاجعة ناكِسي الرؤوس ،
مكتئبي النفوس .

تَلَقَّتْ السَّيِّدَةُ « هاجر » هذه الصدمةَ بصبرٍ واحتمال ، ولكن
الحزن كان يَسْرِى في طواياها ، فينالُ منها مَنَالُ السُّوسِ من خَشَبِ
غليظ . على أن ذلك الحادثَ الأليمَ كشفَ عن مَعْدِنِهَا الْأَصِيلِ
وجوهرها الكريمِ ، فقد نَشِطَتْ مُوَاجِبَةُ مُطَالِبِ الْعِيشِ فِي إِبَاءٍ وَعِزَّةِ
نفس . وكان أولَ ما لَحِثَتْ إِلَيْهِ مِنْ تَدْيِيرِ أَنَّهَا انْتَقَلَتْ إِلَى شِقَّةٍ صَغِيرَةٍ
في منزلٍ بحى « السيدة زينب » ومارستَ نوعاً ملائماً من التجارة
تستطيعُ الْإِشْتِغَالَ بِهِ ، ذلك هو أن تتنقَّلَ في بيوتِ الْمُوَسَّرِينَ حَامِلَةً
طرائفَ من الْأَمْتَعَةِ وَالْثِيَابِ وَأَدْوَاتِ الزَّيْنَةِ ، فتبيعها لربَّاتِ البيوتِ
نَقْداً أو نَسِيئَةً . وكانت « فتحية » ساعداًها الْأَيْمَنَ فِي هَذَا الشَّأْنِ ،
إلى جانب تَكْشِيبِهَا بِالْحَيَاكَةِ وَالتَّطْرِيزِ .

وكثيراً ما كانتُ زَوْجُ أَخِي تُضَيِّفُهُمَا أَيَّاماً ، وتواليهما بِالْوَانِ مِنْ
الْمَبَرَّاتِ ، فَأَقْضَى مَعَ « فَتْحِيَّةَ » أَوْقَاتاً مُؤْنِسَةً . وَكُنْتُ أَعْرِفُ مِنْ
مَنْ نَفْسِي أُنَى كَلِمَا لَاقِيَتْهَا شَعَرْتُ بِأَنِّي أَسْتَطِيبُ الْحَيَاةَ ، وَأَسْتَجِيبُ
لِوَاجِبِ الْمَدْرَسَةِ ، وَأَجِدُنِي كَأَنَّمَا أُوتِيتُ الْقُدْرَةَ عَلَى مَغَالِبَةِ الْمَصَاعِبِ

واجتيازِ العقبات ، فلا ألبثُ أن أفكرَ في قابلِ أيامي ، فيزدحم رأسي
بشئِ المشروعات والخطط .

وكنتُ أتحدثُ إلى « فتحية » وأنا شاردُ النظر ، هائمُ الفكر ،
أقول :

حينما تكبريا « فتحية » سنحقق معاً عظام الآمال ، وسنبهض
بحسام الأعمال .

فتنظر إليّ ، والدهشة ملء عينيها ، ثم لا تغمُ أن تقولَ في صوت
لين الثبرات : إن شاء الله . . . إن شاء الله .

وكان يحلولي ، وأنا في ساعةِ استذكارى للدروس ، أن أستبقيها
في حجرتي ، فتعكف على ديباجتها تطرّز ، وأنا مكبٌ على كتي
وكراساتي .

على أن هذا لم يكن يمنع أن أرفع رأسي في الفينة بعد الفينة ،
أختلس النظرَ إليها ، فأراها في ضوء المصباح قد تألقَ حياءَها فاتن
القسمات ، فأظلم أتملّئ تلك الفتنة ، يحدوني باعث كمين .

وقد أرى « فتحية » ترفع هامتها عن الديباجة ، ناظرةً إليّ ،
فتباغتني وأنا أرنو إليها ، فتبادلُ الابتسام ، ولا نلبثُ أن تعرّونا
خجلةً واضطراب .

وليلةً دخلت علينا « أم خضير » ونحن معاً في حجرتي ، على هذه الحال التي أسلفت وصفها ، فجعلت تنقل نظرها بين « فتحية » وبينى ، ثم همهمت :

أما كفاً كما شغلاً ؟ . . . استريحاً قليلاً . . . رَفَهَا عن نفسها وقتاً . . . المثل يقول : ساعة لقلبك !

ثم تدانت مني ، وانحنّت على أذني كأنما تريد أن تسرّ إليّ الحديث ، ولكنها على الرغم من ذلك رفعت صوتها تقول :

لو كنت مكانك لما جلست هكذا أنكفي على مكتبي كشيخ هرم ، بل كنت أجلس بجانبها أقطف لي من خدّها قبلة منَعِشَة !

فساورتني ربّكة ، واضطرم وجهي ، وانعقد لساني ، فأما « فتحية » فقد نهضت من فورها ، وهي غضبي تقول :

ما هذا الكلام الفارغ يا « أم خضير » ؟ . . .

وما عتّمت أن غادرت الحجرة ، قلقة الخطأ .

وما إن مضت عني « أم خضير » وخلّت لي أركان الحجرة ، حتى رأيتني أعمد رأسي بيدي ، وأهيم في حلم بهيج ترف فيه تلك القُبلة المنشودة التي أطبعها على خدّ « فتحية » . . .

وكنت أشعرُ بوحشة حين تنقضى ضيافةُ صديقتي ، ويغيبُ عن
عيني مرآها ، فأجدني مأولاً فاترَ الهمة غيرَ مقبلٍ على الدرس
والاستذكار . . .

١٠

ولم تكن عيني تقع على أخى « حمادة » إلا لِمَامًا ، فإذا لَقِيتهُ
تَجَهَّم لى ، وبدا كالحالِ الوجه ، يُحَيِّينِي بتحيته المعهودة ، قائلاً :
ولد بليد فاسد !

ويستأنفُ خطوَه نائياً عني بِجَنَبِهِ ، وقد أ كَسَبَ قِسِيَّاتِهِ أماراتِ
التأففِ والاستكبار . . .

ولم يكن أخى يزيدُ شيئاً على هذه الجملة التى أَلْفَتْهَا منه ، مختصراً
فيها نصائحه وتوجيهاته وألوانَ رعايته .

ولقد كنتُ أَعُثُّ على الرسائل المدرسيَّة الخاصةِ بى مغلقةً لم يُفَضَّ
غِلافها ، مبعثرةً على المناضد أو فى إحدى زوايا الحِجْر .

ولاحظتُ أن أخى تستبين فيه علامُ الشيخوخة ، مع أنه لم يكن

وقتش قد جاوز الخامسة والأربعين ، فهو يبدو صاحب الوجه ، كثير
الغضون ، متقوِّس القامة ، لا تفارق الرُّعْشَةُ يده .

وكما شهدته على تلك الحال ، يغالب شيخوخته الباكورة ، يدركني
عليه بعضُ إشفاق ، على الرغم من إزرائه بي ، وتقطع الأسباب
بينه وبينى .

١١

وحلّ بنا « شهرُ رمضان » ذلك الشهر المبارك الذى يُضْفِي على
البيتِ رَوْقًا وبهاءً . فما إن كَمِيلُ ميزان النهار حتى تنبسط الموائد
شَتَّى للرجال والنساء ، فإذا تجاوزتْ مآذنُ المساجد بأذانِ المغرب ،
استقبلتْ تلك الموائد ضيفانها من خاصّة الزوار ، أو من القرّاء والأنباع ،
وقدّمتْ قِصَاعَ الثريد مُكَلَّلَةً بقطع اللحم من يحتشدُ بالباب من العفّة
عابري السبيل .

وفى طوايا الليل تتلألُ الأنوارُ فى جنبات الدار طَوَالَ الشهر ،
كأنما هى ليالى عُرسٍ موصول . ولا تزال الدار فى حركة دائبة حتى

ساعة السَّحُور ، والقُرَّاء يتبارَوْنَ في تلاوة القرآن ، على اختلاف
الألحان ، وينشدون المَوْشَحَاتِ النبوية راقية الأنعام . كما كانت صلاةُ
الجماعة تقام في جلال وخشوع ، فتعمرُ الدارِ برُوحٍ لطيف من التدبُّثِ
والإيمان لا تَزِمَتْ فيه ولا استيحاش ، ولكن صفاءً يتيح للنفوس
التقلبَ في أعطافِ المَرَحِ والإيناس .

وكان بَطْلُ المَوْسِمِ في ليالي « شهر رمضان » هو « بابا درويش »
زَوْج « أُمِّ خُضَيْر » . . . فلم يكن يبرحُ الدارَ خلالَ الشهرِ كُلِّهِ ،
يقطع أغلبَ نهاره نائمًا في حجرة القُرَّاء ، فإذا ما تَأَهَّبَتِ الدارُ لتقديم
موائد الإفطار تعالَى صوته مجلجلا ، وتراءى شخصه متنقلا ، فبينما هو
بالباب يشاحنُ العُفَّةَ من عابري السبيل في تطاول وتأمُّر ، إذا هو بين
الخاصَّة من الضيوف يقبِّل يدَ هذا ويتملِّق ذاك ، ويحاول أن يُشعرَ مَنْ
هنا وَمَنْ هناك بما يؤدِّي لهم على الموائد من خَدَمَات . . .

وبعد صلاة العشاء والتراويح ، يُقْجِمُ نفسه حاكماً مهيمناً يومَ الجمعِ
أنه يَضَعُ نظامَ التلاوة بين القُرَّاء ، ويعيِّن مراتبَ الوافدين للسمع ،
لا يَصُدُّه عن ذلك كله ما يلقاه من سُخْرِيَةٍ واستهزاء .

وكان مِنْ تَلَطُّفِ زوج أخى أن استضافتُ السيدة « هاجر »
و « فتحية » لتقضيَا عندنا هذا الشهرَ الكريم ، فاستجابتا للدعوة ،

وأُمضيتُ مع « فتحية » فترةً من الزمن تملّيتُ فيها أُطيبَ ما في الحياة .

كنا نطعم معاً في فَطُورٍ أو سَحُورٍ ، ولا ألبثُ حينَ عَوْدَتِي من المدرسة أن أعْجَلَ إلَيها وهي تنتظرني بجوار النافورة في الحديقة ، فنجلس معاً نُلقِي إلى الإِوزِّ والبَط ما يَتيسَّر من الطعام . وكان يطيب لنا المكوثُ جنباً إلى جنبٍ ينعقدُ بيننا صمتٌ ، وفي الفينة بعد الفينة تتهدّى سوانح النظرات والبسمات . ومتى ارتفع صوتُ المؤذن بالتكبير ، داعياً إلى الإفطار ، صَحَوْنَا من غفوة أحلامنا ، وكلُّ منا يقرأ في عين صاحبه أسفاً على انقطاع غفوةٍ مُحبَّبةٍ تلوخُ فيها مباحجُ الأحلام .

وكنا نقضي السَّهرةَ معاً في البهو الكبير ، نستمع مع الوافدات على الدار من الضيوف إلى قارئةٍ رخيمةٍ الصوت تتلو آيَ الذِكر الحكيم ، ونخرج أحياناً إلى الفناء الداخليّ نتسلَّى بما تخوضُ فيه الخادِمات من مُلاعِباتٍ ومفاكِهاتٍ وأَسْمارٍ .

وليلةً خلوتُ بنفسِي في حِجْرَتِي تؤنِّسني لطائفُ أحلامٍ ، فأُنَبِّهَنِي على حين فجأةٍ شخصٌ « أمّ خُصير » ماثلاً في الحجرة ، وناكبي دُعرٌ ، وسمعتها تقولُ في صوتٍ عابثٍ :

مَعْدِرَةٌ . . . لقد أزعجتُك من أحلامك !

فأجبتها ، وأنا أحاول ضَبْطَ النفس : أَيْةَ أَحْلَامٍ تَعْنِينِ ؟
فتدانتُ مني ، وابتسامتها تتلعب على شفثيها ، وقالت كأنها
تهمس :

قسماً إني لأعلم ماذا يشغلُ بالكَ !
وازدادتُ من دُنُوِّها ، وهي تُواصلُ حديثها :
كلَّ الشَّبَّانِ في مثلِ سِنِّكَ يَعَشَّقُونَ !
فصرفتُ عنها بصرى ، وأنا مضطربٌ ، فتابعَتْ قولها :
ولكني لم أرَ شاباً أجهلَ منك بشئون الغرام والهيام !
وجعلتُ المرأةَ تتلفَّتُ حوالَيْها ، ثم تهوَّى على أذني بغمها قائلةً
في خفوت : إذا جاءتكِ فأغلقِ البابَ عليكما دون أن تُشعرها بأنك
تفعل ... لا تُضِعِ الفرصةَ يا أبله !

وأحسستُ بأن « أم خضير » تكاد تلامِسُ بخدِّها صفحةَ وجهي ،
وهبتُ على أنفاسها الثقالة ، فتناوتتُ عنها ، وأنا أشعرُ بخشية وتقرُّز .
أما هي فاستمرت تقول : البنتُ مثلكِ بلهاء ، لا تحسنُ الملاءمةَ !
ثم وقفتُ متأوِّدةً الخضر ، غمَّازةً بالحاجب ، تتلعبُ أصابعها
تمثيلاً للموقف ، وهي تقول : حينما كنتُ في سِنِّها كانَ عِلْيَةُ الناسِ
يتزاحمونَ عَليَّ ، ويتغزَّلونَ فيَّ ، ويتنافسون في استهداء قُبَلَةِ مني !

ورأيتها تؤليني ظهراًها ، ماضيةً تتخطّر . وما بلغت الباب استدارت
تواجهني بقولها : لا تنس نصيحتي . . . كن شجاعاً !
واستخفي شبحها عن عيني ، فهرعت إلى الباب أغلقه على بالفتح
وقضيت ليالي في بحر جحيم من المشاعر والتصورات . . .

١٢

وسمعت يوماً أن « إجلال هانم » و « تهناني » رجعتا من
« استانبول » وأنهما معترمتان زيارتنا في ضحوة غد ، فكانت مباغثة
دهش لها أهل الدار ، ولاحظت على « فتحية » وجوماً وهيجة نفس ،
وفاجأتها وهي تنتحي بجدتها ناحية ، وتحثها على مغادرة الدار ، فاعترائني
ضيق ، ونظرت إلى « فتحية » في حيرة وإشفاق ، ولم أدخر وسعاً بعد
ذلك في أن أسري عنها ، وأن أتلطف بها كل التلطف .

وفي أصيل غدي ، حين عدت من المدرسة إلى المنزل ، ألفت
السيدة « هاجر » و « فتحية » جالستين في ركن من أركان البهو ،
مع القارئة . وكانت « فتحية » تلام الصمت ، وفكرها في شرود ،

ولما أحستُ بي مُقبِلًا ، على شَفَقَتِي ابتسامٌ ترحيب ، أرْعَتْنِي نَظَرُهَا فِي
شَيْءٍ مِنَ التَّكْلُفِ ، فَقَصَدْتُ إِلَيْهَا ، وَاتَّخَذْتُ مَجْلِسِي بِجَانِبِهَا أَنْفُضُهَا
جَعْبَةً الْأَخْبَارِ .

وَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، تَنَاهَتْ إِلَيْنَا جَلْبَةٌ مَرْكَبَةٌ بِالْبَابِ
الْكَبِيرِ ، فَشَمِلْنَا إِصْغَاءً ، وَتَبَادَلْنَا نَظْرَةً ذَاتَ مَعْنَى ، وَرَأَيْنَا بَعْضَ
الْخَادِمَاتِ يَهْرَوْنِ إِلَى حِجْرَةِ زَوْجِ أَخِي . . .

وَبَعْدَ لَحْظَاتٍ تَتَابَعَتْ الْحَرَكَةُ ، وَسَمِعْتُ أَصْوَاتًا تَبَيَّنَتْ لِمَنْ هِيَ .
عَلَى الْفُورِ ، ثُمَّ رَنَّتْ ضَحْكَةٌ مَدِيدَةٌ فِيهَا نَعُومَةٌ وَطَرَاوَةٌ ، فَالْتَفَتُّ إِلَى
« فَتْحِيَّة » فَإِذَا وَجْهٌ مُتَمَتِّعٌ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ شَهِدْنَا « إِجْلَالَ هَانِم »
تَعْتَمِدُ عَلَى سَاعِدِ « بَشِيرَ أَغَا » وَتَسِيرُ سِيرَهَا الْوَاهِنُ الْوَيْدُ ، وَعَنْ يَسَارِهَا
« تَهَانِي » تَخْطُو خُطَوَاتِ الظُّبَى الْمَرِحِ ، وَتَنْثُرُ حَوْلَهَا الْبَسِمَاتِ خَلَابَةً
سَاحِرَةً ، وَخَلْفَهُمْ جَمْعٌ مِنَ الْحَاشِيَةِ وَالْأَتْبَاعِ .

وَأَسْرَعْتُ زَوْجَ أَخِي تَسْتَقْبِلُ الضَّيْفَيْنِ فِي وَسْطِ الْبُهِوِ ، وَتَشْتَبِكُ
مَعَهُمَا فِي مُلَاحَظَةٍ وَعِنَاقٍ . وَوَجَدْتَنِي أَتَقَدَّمُ نَحْوَهَا ، وَاشْتَيْتُ عَلَى يَدِ
« إِجْلَالَ هَانِم » أَقْبَلَهَا ، فَحَيَّيْتَنِي وَلَاطَفْتُ رَأْسِي ، وَكَانَتْ يَدُهَا كَمَا
عَهْدْتُهَا تِلْكَ الْيَدَ النَّقِيَّةَ الْأَدِيمَ ، الرَّقِيقَةَ الْبَشْرَةَ ، الَّتِي يَنْفَحُ مِنْهَا عَطْرُهَا
الْمَالُوفُ . وَلَمَّا رَفَعْتُ رَأْسِي أَمَامَ « إِجْلَالَ هَانِم » اسْتَبَانَ لِي عَلَى الْفُورِ

ما صنعت الشيخوخة بذلك الوجه الوديع ، ولم أكن أحسب أن أربعة أعوام تستطيع أن يكون لها ذلك الأثر الوخيم . ورأيتُ شفيتها ترتعشان ، وهي تبسم لي ، في ملاطفة وتحنن . فنالني عليها تحسر ، ووددتُ أن تتاح لي فرصة أعاود فيها تقبيل تلك اليد الكريمة .

ثم عدلتُ ببصري إلى « تهاني » ، فخيلَ إليَّ أن جسدها كله يبتسم في تألق ، وراعى أنها أصبحت فارعة القامة ، يانعة الأوصال . فصاحتُها صامتاً ، خافضَ البصر .

ومضينا جميعاً إلى حجرة الزُّوَّار ، وحانتُ مني التفاتة ، فلمحتُ « فتحية » ماثلةً حيث تركتها بجانب جدتها ، لا يعبأُ بها أحد ، فهمتُ أن أرجع إليها ، ولكنني ألفتني في الركب منقاداً لا قبلَ لي بالنُّكُوص .

وكانت « تهاني » آخذةً بيدي ، وهي تنظر ذات اليمين وذات الشمال ، وتتحدثُ إليَّ في شأن الدار ، تعجبُ لها كيف هي على حالها لم يتبدلَ من أمرها شيء ، كأنَّ آخرَ عهدِها بها أمس .

واحتوتُنا حجرة الزُّوَّار ، وتناقل الجمعُ أحاديثَ متعاقبة متلاحقة ، كانت « تهاني » ضِجْرَةً بها ، تُبدى في جلستها علائم التامل والقلق .

وبعد قليل رأيتهَا تَمْسِكُ يَدِي ، وهي تقول :

بِنا إلى حديقة الدَّار .

ورجعنا نجتاز البهو ، فمررنا بالفقارثة في مجلسها صامتة ترتقب
أذان المغرب ، فَمَا « فنجية » وجدتهَا السيدة « هاجر » فلم أجد لهما
من أثر .

ونزلنا إلى الحديقة نجوس خِلالَهَا ، وكانت « تهنى » تتباطأ
في مشيتها ، يتموِّج على جسدها ثوبها الحريريّ الهفيف ، ذو اللون
الوردي . ووجدتني أَخَالِسُهَا النظرَ متملياً وجهها الوَضِيءَ ، تَرُوعُنِي
فيه عينان مكحولتان ، ينحسر دونهما البصر .

وأخذنا بأطراف الأحاديث ، وراحت « تهنى » تقصّ على من
أنبأ حياتها في « استانبول » ، وتنقّص أنباء حياتي الخاصة في المنزل
والمدرسة .

وبغته أَلَقْتُ عَلَى نظرةً فاحصة ، وقد ارتسمت على فمها ابتسامة
واضحة ، وقالت لي : لقد أصبحت رجلاً يا « سامي » . . . لقد
نَبَتَ شاربُك !

فابتسمتُ لها وأنا أقول : لم يَعدْ لائِقاً بنا الآن يا « تهنى »
أن نلعبَ لُعبةَ الاستخفاء ، أو نتسلّق عرائش العنب !

وتضاحكنا طويلا ، ونحن نتذاكرُ تلكَ العهودَ الخالية . وما
زلنا في سيرنا ، حتى بلغنا الظلةَ القائمةَ بجوار النافورة ، فتبينتُ من
« تهناني » رغبةً في الجلوس ، فاستجبتُ لرغبتها ، وأسرعتُ أخرج
مندبلي فأبسطه لها على المقعد الخشبي ، فأشرق وجهها ارتياحاً ،
وجلستُ في رشاقة وهي تقول : شكراً لك يا « سامي » .

واستأنفتُ تتحدثُ في شئون حياتها أثناء غيبتها في « استانبول »
وكانت تُفعمُ أحاديثها بوصف ما لقيتُ في تلك المدينة العظيمة
من حفاوة وتكريم . فقد أغدقَ عليها سَرَاةُ المدينة وعليتُها ألواناً من
الهدايا والتحف . ولقد تنافسوا في التودد إليها ، والتعلقُ بها بكل سبيل ،
ولقد ضاقتُ ذرعاً بما كان ينتهي إليها من رسائل المعجبين .

وتسامتُ برأسها في خيلاء ، وهي تقول : حينما تزورنا في منزلنا
سأريك هذه التذكارات من الهدايا والرسائل .

وجذبتُ ثوبها لتسوِّيَ جوربها ، فبدتُ ساقها بديعةَ التكوين ،
ولححتني أسارقها النظر ، فأسبلتُ ثوبها متعجّلةً ، وجابهتني بنظرةٍ
زاجرة ، وهي تنقسمُ لي قائلة : خبيث !

لم تستغرقُ هذه الحادثةُ إلا لحظات ، ولكن أثرها تعمق في

نفسى ، فلم يَبْرَح . وشعرتُ بيقظةٍ تسرى فى أوصالى ، يُدْكِ لَهيبَهَا
مجاورةُ الفتاةِ لى ، والتصاقُ جَسَدِهَا بى .

واقترَب موعِدُ الإفطار ، فنهَضْنَا نَعُودُ إلى داخل الدار ، ورغبتُ
« تهانى » فى أن تغسلَ يديها ، وكانت الطسوت والأباريقُ مُعَدَّةً ،
فطاب لى أن أحملَ لها الإبريق ، وأن أصبَّ منه على يديها ، وأنا
أتوسَّم هاتين اليدين البَضَمَتَيْنِ ، تنساب عليهما رَغَوَات الصابون ،
وهما تتلَوَّيان فى نعومة وَايَان . على حين كانت « تهانى » تعابثنى فى
الفينة بعد الفينة بما ترشَّنِي به من رَذَاذ ، ثم أراها تتدائى منى بوجهها ،
ولا تلبث أن تتراجعَ فى تضاحك ومِرَاح . وفيما نحن كذلك كاد وجهُها
يلامس وجهى ، فإذا شَبَّح « فتحية » يطالعنى ، وعينُها تنظر إلىَّ ،
فلاحقنى ارتباك ، وسقطَ الإبريق من يدي ، فاندلق ماؤه على الأرض ،
وكاد يصيبُ ثوبَ « تهانى » لولا أنها قَفَزَتْ مرتدَّةً ، فوقعتُ عينُها
على « فتحية » منصرفةً تحثُ خُطَاها ، فلوتُ « تهانى » رأسها إلىَّ ،
وحَدَجَتْنِي بنظرةٍ حامية ، وهى تقول : يالك من غَرِير !

ثم جذبتُ المِنْشَفَةَ منى ، ومسحتُ يَدَهَا على عَجَل ، وصَحِبَتْنِي
ونحنُ فى صمتٍ إلى حجرة الطعام ، وأَذَانُ المغرب تتجاوَبُ به
أرجاء الدار .

وَشَعَرْتُ بِأَنْ « تَهَانِي » تَقْرُصُ يَدِي ، وَهِيَ تَقُولُ :
مَاذَا تَسْتَحِقُّ مِنْ عَقُوبَةِ لِقَاءِ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ؟
وَأَلْفَيْنَا أَهْلَ الدَّارِ وَضَيْفَانَهَا مُتَحَلِّقِينَ حَوْلَ الْمَائِدَةِ ، مَا خَلَا
« فَتْحِيَّةَ » وَجَدَّتْهَا السَّيِّدَةُ « هَاجِرَ » .

وَأَخَذْتُ « تَهَانِي » مَجْلِسَهَا بِجَانِبِي ، وَشَرَعْنَا نَطْعِمُ ، وَكَانَتْ
لَا تَنْفَكُ فِي أَثْنَاءِ الْأَكْلِ تَتَابَعِ سِرَّارِهَا لِي ، تَتَنَاوَلُ الطَّاعِمِينَ بِالْوَانِ
مِنَ النَّقْدِ وَالْمَلَا حِظَةَ فِي سَخَرِيَّةٍ وَاسْتَهْزَاءٍ ، لَا تَرْحَمُ مِنْ لِسَانِهَا أَحَدًا ،
حَتَّى جَدَّتْهَا الْعَجُوزُ . وَلَمْ يَكُنْ يُغْنِيهَا أَنْ تَتَحَدَّثَ ، وَأَنْ أُؤَلِّفَهَا سَمْعًا ،
وَإِنَّمَا كَانَتْ تَقْتَضِينِي أَنْ أُعْلِنَ مَوَاقِفِي عَلَى مَلَا حِظَاتِهَا ، وَمَجَارَاتِي
لَمَا تَبْدِيهِ مِنْ أَلْوَانِ الْإِسْتَهْزَاءِ ، فَإِذَا تَوَانَيْتُ أَوْ بَدَأْتُ عَلَى فَتُورٍ ، طَفِيقَتْ
تَغْمِزُنِي تَارَةً وَتَقْرُصُنِي تَارَةً أُخْرَى ، فَأَعْجَلُ بِالْإِيْمَاءِ إِلَيْهَا ، أَوْ أَبْتَسِمُ
لَهَا ، عَلَامَةً الرِّضَا وَالْإِقْرَارِ !

عَلَى أَنْتَى كُنْتُ فِي سَرِيرَةِ نَفْسِي أَحْسَنَ بَأْنِي ضَائِقٍ بِهَذَا كُلِّهِ ،
وَأَنْتَى لَا أَسْتَطِيعُ اسْتِسَاغَةَ هَذَا الْعَبَثِ الْجَرِيِّ ، وَالتَّطَاوُلِ الْبَغِيضِ .
وَكَثِيرًا مَا خَطَرْتُ « فَتْحِيَّةَ » بِبَالِي ، فَشَغَلْتَنِي حِينًا عَمَّا أَنَا فِيهِ ،
وَأَشْعَرْتَنِي بِأَنْ مِنْ حَقِّهَا عَلَيَّ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهَا ، وَأَنْ أَتَلَطَّفَ بِهَا . بِيَدِ
أَنْتَى لَمْ أَمْلِكِ الْقِيَامَ بِشَيْءٍ .

وفرغنا من الطعام ، فانصرفنا إلى البهو ، ننتظر شروع القارئة في إنشاد بعض الموشحات في التمدُّح بالنبي ، وكانت القارئة متربعة على حَشِيَّتِهَا تحنسى القهوة وتجذب أنفاس الدُّخان في غير هواة ولا رفق . واستقبل البهوُ جديداً من وفود الزوّار ، رغبةً في تشنيف الأسماع بالإنشاد ، ولكن القارئة ظلت مُكَبَّةً على قهوتها ، تتناول منها قدحاً بعد قدح ، مسحورةً بدُخانها ، تُشعلُ منه لِفَافَةً بعد لِفَافَةٍ ، وبينها وبين جارتها حديث جَيَّاش موصول .

وطال بنا الإلتظار ، ويدت « تهاني » متململة ضَجِرَةً ، وهمستُ لى برغبتها في أن تغادر البهوَ معاً ، فاستمِلتُها بعضَ الوقت ، ترصداً لفرصة مواتية .

ولاحت الفرصة المنتظرة ، فاتهبزتها لى وحدى ، إذ نادتنى من أقصى البهو إحدى الزائرات ممن أعرف ، فهَرَعْتُ إليها أستقبل تحيتها لى ، وتلطفها بى ، وما لبثتُ أن تسالتُ أسارق الخطأ إلى الدَّهليز ، فصادتُ هنالك « أمَّ خُصير » ، فأقبلتُ عليها مشبوبَ النفس أسألهَا : أين « فتحية » ؟

— لست أدري أين هي ؟ ربما وجدتها في حجرة الحاضنة « مَسَرَّات » .

وَيَمَّتْ الْحَجَرَةُ أَعْدُو إِلَى مَكَانِهَا الْمَعْزَلِ ، وَبَلَعْتُهَا مَبْهُورَ الْأَنْفَاسِ
فَأَلْفَيْتُ الْحَاضِنَةَ « مَسْرَات » عَلَى سَجَّادَتِهَا مَسْتَرخِيَةً وَسَنَى تَفْسَحُ
الْمَجَالِ لِمَعْدَتِهَا ، كَيْ تَوْدِيَّ مَهْمَتَهَا فِي هَضْمِ الطَّعَامِ ، فَهَزَزْتُهَا بِقُوَّةٍ وَأَنَا
أَقُولُ : أَيْنَ « فَتْحِيَّة » ؟ أَيْنَ « فَتْحِيَّة » ؟

فَانْتَبَهَتْ الْحَاضِنَةُ مُزْعَجَةً غَضْبِي ، تَقُولُ :
أَهَذَا جِئْتَ تُقَلِّقُ رَاحَتِي ؟

— أَرْجُو مِنْكَ أَنْ تَخْبِرَنِي أَيْنَ « فَتْحِيَّة » ؟
فَتَشَاءُ بَتٌ طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَتْ فِي صَوْتٍ مَتَقَطِّعٍ :
كَانَتْ هُنَا ، وَخَرَجْتُ ، لَا أَدْرِي إِلَى أَيْنَ ؟
فَتَرَكْتُ حَجَرَةَ الْحَاضِنَةِ أَهْرُولَ ، وَهِيَ تَشِيَّعُنِي بِقَوْلِهَا :
حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !

ضَاعَ جَهْدِي فِي الْبَحْثِ عَنْ « فَتْحِيَّة » أَيْنَ تَكُونُ ، وَكَانَتْ
كَمَا أَخْفَقْتُ فِي الْعُثُورِ عَلَيْهَا فِي مَكَانٍ ، تَوَقَّعْتُ رَغْبَتِي فِي مُوَاصَلَةِ الْبَحْثِ
وَالِاسْتِقْصَاءِ ، وَأَنَا مُعْتَزِمٌ أَصْدَقَ الْإِعْتَزَامِ أَنِّي لَا أَكَادُ أَرَاهَا حَتَّى
أَهْوِيَّ عَلَى يَدَيْهَا أَسْتَغْفِرُهَا مِمَّا كَانَ ، وَأَفْزَعُ بِهَا إِلَى مَلَاذٍ أَمِينٍ يَحْمِينِي
مِمَّا أَعَانِيهِ مِنْ أَلَمٍ وَضِيقٍ .

وَاحْتَوَانِي الدَّهْلِيْزُ مَرَّةً ثَانِيَةً ، فَفَاجَأَتْنِي « تَهَانِي » ثَائِرَةً مُتَمَرَّةً ،

وجابهتني تقول :

أَمِنْ الذُّوقِ أَنْ تَتْرَكَ ضَيْفَتَكَ وَحْدَهَا ؟ أَيْنَ كُنْتَ ؟

فَأَغَصَّتْنِي كَلِمَاتُهَا ، وَوَجَدْتُنِي أَنْفَجَرَ قَائِلًا :

كنتُ أبحثُ عن « فتحية » .

فَرَنْتُ ضَحْكَتَهَا عَابِثَةً هَوَّجَاءَ ، فَتَابَعْتُ قَوْلِي :

أَلَيْستُ هِيَ ضَيْفَتِي أَيْضًا ؟

فَلَبِثْتُ تُصَوِّبُ فِي نَظَرِهَا وَتُصَعِّدُهُ ، وَهِيَ فِي وَقْفَتِهَا تَتَلَوَّى عَلَى

نَحْوِ أَثَارِ بَيْنِ جَوَانِحِي غَرَائِبَ إِحْسَاسٍ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي تُوْدَةٍ الْمَتَرَفِّعِ :

من هِيَ « فتحية » ؟

— إِنَّكَ تَعْرِفُهَا . . . « فتحية » بنت « محيي الدين افندي » ..

— أَوْه . . . تلك الفتاة السُّوقِيَّةُ الَّتِي تَلْبَسُ الْجُورْبَ مَقْلُوبًا ؟

وَاسْتَرَسَلْتُ فِي ضَحْكَاتِهَا الْعَابِثَةِ الْهَوَّجَاءِ ، فَوَجَدْتُنِي أَقُولُ صَارِمًا

عَنِيفَ الْإِلَهْجَةِ : كَفَيْ يَا « تَهَانِي » !

وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكْتَفِ وَلَمْ تَزْدَجِرْ ، فَضُضْتُ تُصَبُّ عَلَى رَأْسِ « فتحية »

أَوْضَارَ النُّعُوتِ وَالْأَوْصَافِ .

وَكُنْتُ وَاقِفًا أَحَدِّقُ فِيهَا ، وَخَلْفَ ضُلُوعِي عَاصِفَةٌ تَزُلُّلُ كِيَانِي .

وتركزت نظرتي في فيها ، فلم أعد أرى من ذلك الجسد الثعالبى إلا
هاتين الشفتين العظيمتين تتلعبان في عنفٍ وجبروت .

ودار رأسى ، فلم أعد أرى ما أفعّل ، ولكنى تبينت أنى رفعت
يذى ، كأنى أريد أن أهوى بها على غريمتى التى تمادت فى جراءة
وتطاول ، فإذا أنا أهجم عليها ، فأحتويها بين ذراعى ، وأندفع فى
تقبيل فيها ، كأنى أمرقه تمزيقاً .

وأحسستُ بحركةٍ مفاجئة ، فالتفتُ أستوضح ما جرى ، فألفيتُ
« فتحية » واقفةً مع « أم خضير » ، ولم يعزبُ عن عيني أن أرى وجه
« فتحية » بادية الامتقاع ، مصعوق النظرات .

وتقدمتُ منا « أم خضير » فى خطوات عابثة ، وكأنها لم تلاحظ
شيئاً مما كان ، وهى تجرّ يد « فتحية » جرّاً ، وتقول فى غير مبالاة :
كنتَ تبحثُ عن « فتحية » ، فجئتُك بها .

وسرعانَ ما رأيتُ « فتحية » تدور بوجهها عني ، وتنفلتُ عَجْلى ،
تخفيها معاطفُ الدّهليز .

ومكثتُ لحظاتٍ فى ذهالةٍ أعيا بإدراك ما يجرى حولى ، فلما ذهب
الروغُ عني ، طوّفتُ ببصرى ، فلم أجد من أحد ، فانطلقتُ فى الدّهليز

أَنْشُدُ « فَتْحِيَّةَ » ، ورَأَيْتُ « أُمَّ خَضِيرَ » مُقْبِلَةً عَلَيَّ ، فَسَأَلْتُهَا مَلْهُوفَ
النَّفْسِ : أَيْنَ « فَتْحِيَّةَ » ؟

فَابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً ، وَدَنَتْ مِنِّي تَقُولُ :
هَدَيْتُ مِنْ ثَائِرَتِكَ . . . لَا تُتْلَقُ بِأَلَّا لَشَيْءٍ . . . سَأُصْلِحُ لَكَ
الْأَمْرَ . . . عَوَّلْ عَلَيَّ !

فَسَدَدْتُ إِلَيْهَا نَظْرَاتِي ، أَسْتَجْلِي مِنْهَا مَا تَعْنِيهِ ، فَأَرْدَفْتُ تَقُولُ :
اذهِبْ إِلَى حَجَرَتِكَ ، وَانْتَظِرْنِي هُنَاكَ !
وَوَجَدْتُنِي أَدْعِنُ لَهَا ، فَأَقْصِدُ إِلَى حَجَرَتِي عَلَى الْفَوْرِ .
وَضِيقْتُ بِالِانْتِظَارِ ذِرْعًا ، وَأَنَا أَشْعُرُ بِأَنِّي حَبِيسٌ لَا أَسْتَطِيعُ
الْفِكَالَ .

وَهَزَّتْ مَسَامِعِي خَفَقَاتُ أَقْدَامٍ ، وَأَخَذَتْ عَيْنِي « أُمَّ خَضِيرَ » ،
وَقَدْ أَحَاطَتْ يَدُهَا بِكَتِفِ « فَتْحِيَّةَ » ، وَمَا لَبِثْتُ أَنْ وَاجَهْتُنِي بِقَوْلِهَا
فِي لَهْجَةٍ مَكِينَةٍ : « فَتْحِيَّةَ » لَهَا عِنْدَنَا مَقَامٌ كَرِيمٌ . إِنَّهَا صَاحِبَةُ الْبَيْتِ ،
وَرِضَاهَا أَمْرٌ لَا يَدَّ مِنْهُ . مَا لَنَا وَاللَّضِيفَ الدَّخِيلَ الَّذِي لَيْسَ مِنَّا ،
وَلَيْسَ لَهُ فِي قَلْبِنَا مَكَانٌ ؟ !

وَسَكَنْتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ دَفَعْتُ « فَتْحِيَّةَ » نَحْوِي فِي لُطْفٍ ، وَهِيَ
تَقُولُ لِي : تَقَدَّمْ لِتَصَالِحِهَا . . .

فما أسرع أن هُرِغْتُ إلى « فتحية » أمسك بيديها أضغطُهما في
اهتياج ، فأحسستُ بها تدسُّ وجهها في صدري وهي تنشج ، فطوّقتُها
بذراعيّ الألفها ، فما إن رأيتُنا « أمّ خضير » على هذه الحال ، حتى
خرجت خفيفة الخطو ، وأقفلت وراءها الباب .

وظللنا كذلك حيناً حتى أمسكتُ « فتحية » عن النشيج ،
وشرعتُ تتطلع إليّ ، فتواصلتُ نظراتنا ، ولحتُ شفيتها تحتلجان ،
فما هي إلا أن أهويتُ على فمها أوسعهُ من تقبيل !
وكان عناقٌ طويل ...

١٣

وفي الغداة تركتُ فراشي ولمّا تبلُغ الساعة السادسة ، على غير
ما تعودتُ .

وتسلّلتُ من البيت أتقى أن تقع عينُ « فتحية » على .
وأمضيتُ يومى في المدرسة ، كأني نائم أحلم ...

وملك نفسي شعوراً بأننى قد انفسحتُ لى دنيا جديدة بهيجة لم يكن
لى بها سالفُ عهد .

ولاحظ على قريبي « خيرى » أنى فى حالة تبعثُ على التساؤل
والاستخبار ، فقال لى : مالك اليوم يا « سامى » طلقاً بساماً لا تتنبهى
عن مَرَح ؟ هل كَسَبْتَ الورقة الأولى من ورقِ النصيب ؟
فأجبتُه فى نشوة : رَبحْتُ الدنيا كلها يا « خيرى » !
فهرزَ كتفيه لى ، ولوى رأسه عنى .

وترامى إلى سمع رفيقنا « الزغبى » هذا الحوار ، فدنا منى وهو
يتفحّصنى بنظر ثاقب ، ويربّت كتفى مبتسمِ الثغر ، وقال :
إنى أعرفُ السرَّ فى هذا الانقلاب !

فتألأتُ على وجهى غبطة ، وجعلتُ أقهقه ، ثم أخذتُ بيده ،
وملتُ على أذنه هامساً أقول : أمّا أحببتَ فى حياتك ؟
فسمعتُه يقول : أوه . لى فى هذا الميدان جولات وجولات !

ومضينا معا يصارحُ كلانا صاحبه بأقاصيصِ قلبه ، على حين وقف
« خيرى » بجوار الحائط ينظرُ إلينا فى تطلع واستغراب ، وهو يقرضُ
أظفار يده !

وكان شوقى إلى « فتحية » ينمو فى هذا النهار ساعةً بعد ساعة ،
فلما قَفَلْتُ أصيلاً إلى المنزل ، لم يكن لى من همٍّ بادئٍ بدءٍ إلا أن
أسارعَ إلى السؤال عنها ، فأعلمونى بأنها بارحتُ الدارَ فى الضَّخْوَرةِ

الباكرة ، فسُرَّعَانِ مَا غَاضَتْ بِشَاشَتِي ، وَاعْتَمَّتْ نَفْسِي ، وَمَضَّنِي أَسْفُ ،
فَيَمَّمْتُ حَجْرَتِي ، تَذْهَبُ بِي الْمَوَاجِسُ كُلَّ مَذْهَبِ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ لَزِمْتُ النَافِذَةَ أَرْوِّحُ عَنْ نَفْسِي ، وَأَشْغَلُ نَاضِرِي
بِالتَّطَلُّعِ إِلَى حَدِيقَةِ الدَّارِ . وَبَيْنَمَا أَنَا مَنْسَرِحُ الْفِكْرِ فِي آفَاقٍ شَتَّى لَحْتُ
طِينَيْنِ يَجُوسَانِ خِلَالَ الشَّجَرِ ، فَهَدَدْتُ عَيْنِي أُتَبِّينُ : لِمَنِ الطَّيْفَانِ ؛ فَوَضَحَ
لِي أَنَّهُمَا أَخِي وَ « تَهَانِي » يَسِيرَانِ جَنْبًا إِلَى جَنْبِ ، فَوَجَدْتُني مُهْتَمًّا
أَرْقُبُهُمَا وَأَتَقَصَّى حَرَكَتَهُمَا فِي دِقَّةٍ ، ثُمَّ تَرَكْتُ النَافِذَةَ ، وَقَصَدْتُ إِلَى
الْحَدِيقَةِ أَنْتَبِذُ مِنْهَا مَكَانًا مُسْتَوْرًا أَرَى مِنْهُ دُونَ أَنْ تَنَالَنِي الْعَيُونُ .

وَكَانَ جَلِيًّا أَنْ أَخِي بِالْغُ التَّلَطُّفِ « تَهَانِي » يُرَبِّتُ يَدَهَا ،
وَيَدَاعِبُ خَدَّهَا ، وَيُسِرُّ إِلَيْهَا بَعْضَ كَلِمَاتٍ تَتَلَقَّاهَا مَرِحَةً طَرُوبًا
تُرْسِلُ نَاعِمَ الضَّحِكَاتِ .

وَأَلْفَيْتُهُمَا يَتَجَهَّانِ إِلَى الْبَابِ ، وَالْمَرْكَبَةُ هُنَالِكَ فِي انْتِظَارِهَا ، وَمَاهِي
إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ « إِجْلَالَ هَانِمَ » هَابِطَةً عَلَى السَّلَمِ تَلْحَقُ بِهِمَا ، فَرَكَبُوا
جَمِيعًا . وَاعْتَلَى « مَدْبُولِي » كُرْسِيَّ السَّيَاقَةِ يَفْرُقُ بِسُوطِهِ ، فَمَا لَبِثْتُ
الْمَرْكَبَةَ أَنْ دَارَتْ عَجَلَاتُهَا تَطْوِي الطَّرِيقَ .

وَرَجَعْتُ أَدْرَاجِي أَسْتَشْعِرُ انْقِبَاضًا وَوَحْشَةً ، وَأَسْأَلُ نَفْسِي :

كيف ساغ « تهاني » أن ترتحلَ عن الدار ، دون أن تُحييني تحية التوديع ؟

وعجبتُ لأخى ، كيف جدَّ من أمرِهِ هذا الإقبالُ على « تهاني » وذلك التلطف بها ، وهو الذى كان لا يَبشُّ لها ولا لجدَّتِها ، بل لقد كان ينظر إلى « تهاني » نظرة إصغار ، ولا يُعيرُها أدنى التفات ؟ وفى صُبْحِ غدى ، لم أأَكْدُ أَخْذُ مكانى من المركبة قاصداً إلى المدرسة ، حتى ملتُ على « مديولى » أسأله مداعبا :
إلى أين ذهبتَ بالركبِ أمس ؟

فتضاحك الرجلُ قائلاً :

كانت نزهة طيبة ، طُفْنَا فيها بالشوارع ، وقصَدْنَا بعضَ المتاجر ...
فقلتُ له : هل اشتريتُم شيئاً ؟

— ملأنا المركبةَ بشتى الأشياء .

وخلوتُ بنفسى فى المركبة يستغرقنى التفكيرُ فى حديثِ السائق ،

وفىما كان بين أخى و « تهاني » أثناء طوافهما فى الحديقةِ أمس .

١٤

انصرمَ أسبوعان عانيتُ فيهما أشدَّ القلق والاضطراب ، وعلى الرغم من شوق المشبوب للقاء « فتحية » لم تطوِّع لي نفسي أن أزورها في دارها . . .

ويا طالما تمثَّل لي أن ما كان بيننا في اليوم المعهود قد أساء إليهما ، وأنها واجدةٌ عليّ ، مستريبةٌ بي ، نافرةٌ مني .

وكنتُ عصرَ يوم في طريقى إلى البهو ، عائداً من المدرسة ، فصادفتُني « فتحية » بالباب ، فسرتُ في كياني رجفةً ، ولكني تمالكتُ ، وتدانيتُ منها أحييها وأنا صامت ، وسرتُ معها خطوات ، ثم قلت : كِدْتُ أياس من عودتك يا « فتحية » . . .

فأجابتنِي في لهجة مألوفة : كانت عندنا شواغل .

ومضيتُ بها إلى حجرتي ، وبين جنبيَّ يشبُّ ضرام الشَّعْف والحنين ، والدنيا من حولي تتألق وتزدهر ، وتشيعُ فيها نشطة الحياة .

وما إن احتوتُنَا الحجرة ، حتى التفتُ إليها متودِّداً عَطُوفَ الالهجة ،

أقول : أ كنتِ بباب البهو تنتظرين مقدمي ؟

فَسَمَتْ إِلَىٰ بَعِينِينَ كَاتِلَاتَيْنِ قَرَأَتْ فِي نَظَرَاتِهِمَا أَوْضَحَ جَوَابَ .
وَمَا أَسْرَعَ أَنْ مَلَكْتُهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْ ، وَكَأَنِّي قَدْ مَلَكْتُ
الدُّنْيَا جَمْعَاءَ .

وَامْتَدَّتْ إِقَامَةُ « فَتْحِيَّة » فِي الْبَيْتِ أَسَابِيعَ ، وَطَابَ لِي مُقَامُهَا .
وَتَوَشَّجْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَوَاصِرُ حُبِّ مَكِينٍ ، وَوَجَدْتُ عَظِيمَ الثَّقَةِ
بِنَفْسِي ، قَادِرًا عَلَىٰ أَمْرِي ، نَاشِطًا لِلْعَمَلِ ، أَسْتَذْكُرُ دَرْسِي غَيْرَ وَانْ وَلَا
مَلُولٍ ، وَهِيَ عَنْ كُتُبٍ مَنَى تَوَاصَلَ التَّطْرِيزَ . وَشَعَرْتُ بِأَنِّي مَعْنِي
بِمَلْبَسِي وَزِينَتِي ، حَرِيصٌ عَلَىٰ تَنْظِيمِ حُجْرَتِي ، أَسْتَعِينُ « فَتْحِيَّةً » فِي
تَحْقِيقِ مَا أَصْبَوُ إِلَيْهِ مِنْ أُنَاقَةٍ وَنَظَافَةٍ وَتَنْسِيقٍ .

وَقَضَيْتُ فِي صَحْبَتِهَا هَذِهِ الْفَتْرَةَ مِنْ أَيَّامِي هَآنِيَّ النَّفْسِ ، بَارِئُ
الْبَالِ مِنْ شَوَائِبِ الْحَيَاةِ ، يَتَطَلَّعُ كَلَانَا إِلَى الْغَدْرِ الْمَرْجُوِّ بَعِينَ الثَّقَةِ
وَالْإِطْمِئْنَانِ ، وَيُحِسُّ كَلَانَا أَنَّ عَيْشَهُ قَدْ أَصْبَحَ مَوْصُولًا بِعَيْشِ صَاحِبِهِ ،
بَيْنَنَا تَلَاوُثٌ وَانْدِمَاجٌ ، لَا فِرَاقَ بَعْدَهُ وَلَا انْفِصَامَ .

وَتَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْفَتَرَاتُ الْمُدَوَّدَةُ الَّتِي تَقْضِيهَا « فَتْحِيَّةٌ » مَعْنَا فِي
الدَّارِ ، وَنَحْنُ نَسْتَمِرُّ نَشْوََةَ الصَّحْبَةِ ، وَمُتَّعَةَ الْإِقْدَاءِ ، لَا حِسَابَ
وَلَا ارْتِيَابَ .

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ ، لَمْ يَجْرِ لِسَانِي بِاسْمِ « تَهَانِي » ، وَكَذَلِكَ

« فتحية » لم تتحدثْ إلىَّ في شأنِها أىَّ حديث .

ومما ساعدَ على ذلك أن « تهانى » لم تطأَ قدمُها أرضَ البيت ،
منذ ذلك اليوم الذى خرجتُ فيه هى وجدَّتُها بالمركة يصحبُهما أخى .
على أنى عجبتُ لهذا الإلحاق كيف يكون ، ولم أقفْ له على كُنْهِه ،
وإن كنتُ قد طُبْتُ به نفساً ، ووَدِدْتُ أن تَظَلَّ « تهانى » خلفَ
ستائر النسيان .

ولكن ما هى إلا أسابيع ، حتى جعل يَهْزُ سمعى طنينُ التهامُس
بين الخدم ، فكنتُ أَتَبَيَّنُ فى أحاديثهم الغامضة اسمَ أخى مقروناً باسمِ
« تهانى » .

وكانت « أمُّ خُصير » حين تَقْدَمُ إلى حجرتى لتعالجَ تنظيفها
وترتيبها ، لا تفتأُ تدور حولى بأطرافٍ من الكلام فى شأنِ « تهانى »
وأخى ، تثير بها فضولى ، ولا تَشْفِى غليلى ، فأراها حيناً تَغْمِزُ وترْمِزُ ،
وحيناً تقتضبُ الأنباء والأقاصيص ، وتارةً تتساءلُ عابثة : لماذا انقطعتُ
« تهانى » عن زيارة البيت كما كانت تفعل من قبل ؟

وذات ليلة ساقَتْنِي خُطَاى إلى حجرة الحاضنة « مَسَرَّات »
فلَقِيتُ معها زوجَ أخى مقبلةً عليها تتحدثُ فى حِمِيَّةٍ واهتمام ، فلما
رأَتْنِي زوجُ أخى أمسكتُ عن الكلام عامدة ، ولكنَّ الحاضنة لم

تَمَالِكْ أَنْ تَسْتَرْسَلَ فِي زَمْجَرَةٍ وَحِدَّةٍ ، وَأَنْ تَسْتَنْزِلَ لَعْنَاتِ السَّمَاءِ عَلَى
نَفُوسٍ تَمَلُّوْهَا الْخِيَانَةُ وَالْعَدْرُ ، بِهَا تَتَقَوَّضُ دَعَائِمُ الْبُيُوتِ ، وَعَلَى يَدِهَا
يَتِمُّ خَرَابُ الْأَسْرِ .

وَلَمْ يَخْفَ عَنِي أَنْ زَوْجَ أَخِي تَكْفُكُفْ أُنْدَاءَ مِنْ دُمُوعٍ ، وَأَنْ
مُحَيَّاهَا يَرْتَسِمُ عَلَيْهِ طَابَعُ الْأَسَى الدَّفِينِ ، فَعَزَّ عَلَى نَفْسِي مَا هِيَ فِيهِ ،
وَرَأَيْتُنِي أَقْتَرَبُ مِنْ مَكَانِهَا ، فَأَخَذْتُ يَدَهَا وَأَرْفَعُهَا إِلَى فَمِي أَطْبَعُ عَلَيْهَا
قَبْلَةَ رَفِيقَةٍ ، وَأَنَا أَهْمُهُمْ :

أَنْتِ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَعَامِلَكَ أَخِي هَذِهِ الْمَعَامِلَةَ !
فَمَسَحْتُ عَلَى رَأْسِي ، وَقَبِلْتُ جَبِينِي فِي حَنَانٍ .

وَلَوْ حَظُّ أَنْ أَخِي يُكْثِرُ مِنَ التَّغْيِيبِ عَنِ الدَّارِ ، فَإِنْ اتَّفَقَ لِي أَنْ
أَرَاهُ ، لَحَتُّ مِنْهُ حَالًا غَيْرَ مَا كُنْتُ أَعْهَدُ ، إِذْ كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَبْدُوَ فِي
مَظْهَرٍ مِنَ الْأَنَاقَةِ وَالرَّشَاقَةِ وَالْمِرَاحِ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ مُشَلًّا وَاضِحًا لِلتَّوَقُّرِ
وَالزَّمْتِ وَالْإِحْتِشَامِ .

إِلَّا أَنْ هَذَا الْمَظْهَرَ الطَّارِئُ لَمْ يَكُنْ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَسْتُرَ الشَّيْخُوخَةَ
فِي مَوَكِبِهَا الْجَارِفِ ، فَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ أَخِي غَضُوبٌ يَرَّحِمُ بَعْضُهَا
بَعْضًا ، وَكَسَتْهُ مَسْحَةٌ مِنَ الشُّحُوبِ تَنْبِئُ عَنْ اضْمِحَالٍ قَوَاهِ ، وَإِنْ
كَانَتْ سُنَّةُ لَا تَوْهَّاهُ لَتَلِكِ الشَّيْخُوخَةَ الْعَجَلَى .

واعتكفتُ زوجُ أخى فى حجرتها ، وألزمتُ عينيها نظارةَ ذرقاء ،
ولم تكن تأنسُ إلا بقاء السيدة « هاجر » ، ففى تطيل الجلوسَ إليها ،
ويطيبُ لها أن تتحدثَ معها ، وأن تستمعَ لما تُفيضُ فيه جليستُها من
حديث هادئ وديع يبعثُ الطمأنينة والرضا .

وفى الحين بعد الحينِ تخلو « أمُّ خُصير » بزواج أخى ، تنفضُ بين
يديها جعبةً من الأخبار فى همسٍ وسِرار .

وتلبّدُ فى جوِّ الدار وجوم ، فكأننا كنا نحيا فى مأتمٍ صامتٍ
لا تنقضى أيامه ولياليه .

وتواردتُ الأيام ، تكشف الستارَ شيئاً فشيئاً عما تمّ بين أخى
و« تهانى » من زواج ، ولكن هذا النبأ على خطره لم يكن يجرؤ على
أن يجهّرَ به لسان !

١٥

لبثتُ أربعة أشهر ، تتوثقُ فيها علاقتي « بفتحية » . وحين يوم
تجَلَّى لى فيه أنها تعالِبُ طارئاً من الإعياء ، فأخذ وجهها يبدو عليه
الامتناع ، وجعلت تَجَنُّحُ إلى الركود ، ويُسرِعُ إليها الغثيان ...
وكثيراً ما رأيتها شاردة النظرات ، غافلةً عن مُناقَلَتِي الحديث . وازداد
على مرَّ الأيام امتناعها وتثاقُلها حتى انطلق لسانها بالتأوُّه على كُرِّه ، ولم
تَعُدْ تطيق صبراً على ما بها من آلام .

وفي ظهيرة يوم ، وأنا بالمدرسة مع « الزغبى » فى فترة الراحة ،
وقفنا نتجادبُ أحاديثَ الشباب . فانبرى « الزغبى » يتحدث عن
الحبِّ وأحداثه ومُعَقِّباته ، وجعلتُ أستزيدُه من الإفاضة فى هذه الشؤون ،
وأستوضحُه ما غمَضَ من الدقائق . وبغتةً لاح فى مخيلتي طيفُ «فتحية»
فى مظهرها الجديد ، فبدأتُ أَكْتَنِهُ ما بها من إعياء ، وما تعانیه من
انقلاب . ودهانى قلق ، ثم عرانى سُهُوم ، ولكنى وجدتنى قد
استخفَّنى فرح مفاجئ ، فأقبلتُ على « الزغبى » أقبله طرُوباً مهتاج
النفس .

ولما كانت أُوْبَتِي إلى المنزل بعدَ العصر ، أَلْفَيْتُ « فتحية »
 قابضةً في حجرتي ترتقب مَقْدَمِي ، فوَقَفْتُ حِيَالَهَا أَتَأَمَّلُهَا ، وقلبي يكاد
 يَطْفِرُ من بين الجوانح ، فَسَمْتُ إِلَى بَعِينِهَا كَأَنِّهَا تَعْجَبُ مما ترى مني ،
 وتَسْأَلُ عن سِرِّ وُقُفِّي وتأَمَلِي ، فَأَمْسَكَتُ يَدَهَا الْأَظْفَهَا ، وَهَمَسْتُ فِي
 أُذُنِهَا قَائِلًا :

أَغْرِيْبُ عَنْكَ أَنَا يَا « فتحية » حتى تُخْفِي عَنِّي هَذَا الْأَمْرَ ؟
 . فاعتمدتُ برأسها على كتفي ، وقد أسبلتُ جفنيها دون أن تُجِيبَ .
 واحتضنتُها مشغوفَ الفؤاد أقول :
 ما أسعدني بهذه البُشْرَى يا حبيبتي !

وسررتُ في كياني شجاعةً واقتدار ، والتمعتُ عيني التماعةَ التَّاهِبَ
 والتدبير ، ولاحظتُ عَلَى « فتحيئة » ما أنا فيه ، فنظرتُ إِلَى نَظْرَةٍ
 استخبار ، فقلتُ : ستعلمين كلَّ شيء !

واندفعتُ مُدْبِرًا عن الحجرة ، قاصداً حجرةَ زوج أخى « مَوَدَّةَ
 هانم » فصادفتُها على الْمُتَّكِأِ تجتذب أنفاسَ لِفَاقَتِهَا ، فارتميتُ على
 صدرها أوسِعُها عناقًا وتقبيلاً ، فابتسمتُ لى وهى تقول :
 جئتَ تَطْلُبُ شيئًا لا مُحَالَةً .

— شيئًا عظيمًا فيه سعادتي جمعاء !

فرفعتُ نظَّارتها الزرقاء عن عينيها شيئاً ، وحدَّقت في وجهي
متعجِّبة ، وقالت : أىَّ شىء يا « سامى » ؟

وفي غيرِ تردُّدٍ ألقيتُ جوابي قائلاً :

إننى أحبُّ « فتحية » وأريد أن أتزوَّجها . . .

فَعَظُمَتْ دهشتُها ، وقرأتُ في عينيها الحيرةَ البالغة ، وجعلتُ

تبعث من بين شفتيها هممةً لم أستبِ منها كلاماً . ثم قالت لى :

نفكرُ في هذا الأمر يا « سامى » .

فلم أبرحُ موقفي منها ، وتشبَّثُ بها أقولُ مُلِحاً :

فيمَ التفكير ؟ ليتك تعلمين مبلغَ حُبِّي إياها !

وطَفِقتُ أَفْضَى إليها بما بيني وبين « فتحية » من هوى مشبوب ،

وأسرُدُ لها كيف نشأت هذه العلاقة ، وكيف تطورت ، وما زلتُ

أديرُ الحديث حتى أَمَطْتُ لها اللثامَ عن « الحادثِ السعيد » الذى

تنطوى عليه الفتاة !

فما أسرع أن ألفتُ زوجَ أخى مأخوذةً متجهمةً تعالج أن تنبِس ،

فيعيَا لسانها بالكلام . ولم تملكْ إلا أن تُنكَّسَ رأسها وهى تقول :

لا بدَّ أن أتحدَّثَ إلى أخيك فى هذا الأمر !

فرونوتُ إليها وقتاً ، ثم صحتُ بها محدداً :

فلتركننا أخى وشأننا . . . إنه فى شغلٍ عنا ، لا يعنيه شئ
من أمرنا !

وبعد أيامٍ رأيتُ أخى فى المنزل ، فتوقعتُ أن يدورَ بينه وبين
زوجهِ حديثٌ فى شأنى مع « فتحية » ، واستشعرتُ قلقاً ورهبةً ،
وجعلتُ أجولُ فى الدار لا أجدُ لى من قرار ، وأنا أتسَمُّ ما يجرى فى
حجرة أخى وزوجهِ . وبينما أنا كذلك رَوَّعَنِي صوتهُ صائحاً فى البهو
يقول : ما هذه المفاسد التى تقعُ فى بيتى ؟ أنا لا أقبلُ فى البيت
مُجَانِبَةَ الصون والعفاف ، فلترحل الفتاة وَجَدَّتْهَا على الفور !

فانبسطتُ على عيني غشاوةً ، وأدركنى شبهُ إغماء ، فتهالكتُ
على مقعدٍ كان منى غير بعيد ، وتناهى إلى سمعى هرج ومرج : أخلاط
من أصوات تعلو وتهبط ، وخفقات أقدام تغدو وترُوح .

وخيلَ إلى أنى أسمعُ صوتَ « فتحية » خلال هذه الجلبةِ ،
فشبتُ النار فى قلبى ، ونهضتُ متحفزاً مستوفزاً أعدو ، وواصلتُ
عدوى ، حتى قاربتُ البهو فى غير وعى ، فرأيتُ أخى ماثلاً متنفخاً
يهتزُّ شارباه ، وقد التفتَ به لمةٌ من الخدم والأتباع ، وبين يديه
خادمُهُ الخاصُّ « سعد الله » فارعُ القامة ، صلبُ العود ، عريضَ
الألواح . فلما لمحنى أخى تقدّم خطوات ، وهو يلوحُ بعصاه مُغَضِّباً

مزججراً يقول : أنتَ فعلتَ هذا ؟ أنتَ يكون منك هذا الإثم ؟
لَتَذُوقَنَّ وَبَالَ أَمْرِكَ !

فَدَلَفْتُ إِلَيْهِ ذَلِيلَ الْخَطْوِ ، مَطَاطِيءَ الرَّأْسِ ، وَانْحَنَيْتُ عَنْ كَشْبِ
مِنْ يَدِهِ ، وَأَنَا أَقُولُ ضَارِعَ اللَّهْجَةِ : « فَتْحِيَّة » لَا ذَنْبَ لَهَا ، أَنَا الْمُسْتَوَلُّ
عَمَّا كَانَ . . . اغْفِرْ لِي زَلَّتِي !

فَاعْتَدَلَ أَخِي فِي وَقْفَتِهِ ، وَاتَّكَأَ عَلَى عَصَاهُ ، وَهُوَ يَقُولُ لَخَادِمِهِ
« سَعَدَ اللَّهُ » : عَلَيْكَ بِهِ ، فَأَدْخَلَهُ حَجْرَتَهُ ، وَلَا تَدَّعْهُ يَفَارِقُهَا ، حَتَّى
أُنْهِىَ إِلَيْكَ أَمْرِي .

فَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ وَجَدْتُنِي قَدْ أَحْدَقْتُ بِذِرَاعَانِ عَنِيْقَتَانِ تَسُوقَانِي ،
فَتَعَاصَيْتُ وَتَأَبَّيْتُ ، أَتَصَايِحُ وَأُحَاوِلُ التَّفَلُّتَ ، وَلَكِنْ الْخَادِمُ لَمْ يَدَعْ
لِي طَاقَةً بِالْخِلَاصِ ، وَإِذَا أَنَا قَدْ خَارَتْ قَوَايَ ، وَأَظْلَمَتْ الدُّنْيَا أَمَامَ
عَيْنِي ، وَوَجَدْتُنِي بَعْدَ حِينٍ فِي حَجْرَتِي ، عَلَى وِسَادِي ، أَبْكِي وَأَبْكِي . .
مَضَتْ أَيَّامُ كُنْتُ فِيهَا كَالْحُمُومِ ، لَا أَرِيْمُ فِرَاشِي ، وَمَعِيَ زَوْجُ
أَخِي ، تَتَعَبِدُنِي وَتَتَلَطَّفُنِي بِي ، وَلَا تَقْصُرُ فِي تَهْوِينِ مَا كَانَ عَلَيَّ .
وَكَلَّمَا سَأَلْتُهَا عَنْ « فَتْحِيَّة » :

أَيْنَ ذَهَبْتَ ؟ وَإِلَى أَيِّ مَصِيرٍ سَيِّقَتْ ؟ رَبَّدَتْ كَتِفِي وَهِيَ تَقُولُ :
لَا تَكُنْ مَهْمُومًا ، لِيَهْدَأْ بِالْكَ ، لِكُلِّ شَيْءٍ دَوَاءٌ !

وَأَبْلَلْتُ مِنْ وَعْكَتِي ، فَتَرَكْتُ مُضْجَعِي ، وَمَا زَالَ شَبَحُ
« فَتْحِيَّة » يُرَاوِدُنِي ، فَيُفَعِّمُ بِالْقَلْقِ نَفْسِي ، وَلَمْ يَشْفِ غَلِيلِي مَا حَدَّثَنِي
بِهِ زَوْجُ أَخِي فِي هَذَا الشَّانِ ، فَجَعَلْتُ أَحَاوِرُ « أُمَّ خُضَيْر » لِأَسْتَخْلَصَ
مِنْهَا حَقِيقَةَ مَا جَرَى ، فَصَارَحَتْنِي بِأَنْ أَخِي عَمِلَ عَلَى إِرْحَالِ « فَتْحِيَّة »
وَجَدَّتْهَا إِلَى إِحْدَى الضِّيَاعِ ، وَأَنْ « فَتْحِيَّة » بَاتَتْ هُنَاكَ زَوْجًا
لَشَيْخٍ الْخَفَرِ !

فَنَزَلَ عَلَى هَذَا النَّبَأِ نَزُولَ الصَّاعِقَةِ ، وَوَجَدْتُ نَائِرًا أَتَسَخَّطُ ،
حَاقِدًا أَغْلِي ، وَبَنَيْتُ عَزْمِي عَلَى أَنِّي لَا بَدَّ نَاقِضٍ مَا أَبْرَمَ أَخِي مِنْ
عَسْفٍ وَعُدْوَانٍ ، وَأَنَّهُ لَا قُوَّةَ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ « فَتْحِيَّة » آخِرَ الْأَبَدِ .
عَلَى أَنِّي كُنْتُ لَا أَكَادُ أَهْمُ بِإِنْفَازِ خُطَّةٍ ، أَوْ إِعْمَالِ تَدْبِيرٍ ، حَتَّى
تَعْتَاقَنِي الْعَقَبَاتُ ، وَيَتَعَاطَمَنِي الْأَمْرُ ، وَأَجِدَنِي فِي شَبَاكِ لَا أَعْرِفُ لِي
مِنْهَا مَخِيصًا .

وَتَعَاقَبَتِ الْأَيَّامُ عَلَيَّ ، فَشَاعَتْ فِي أَوْصَالِي بِلَادَةٌ وَاسْتِرْخَاءٌ ، وَفَقَدْتُ
كُلَّ هِمَّةٍ وَنَشَاطٍ . أَصْبَحْتُ أَمَلْتُ دَرْسِي ، وَلَمْ أَعُدْ أَفْتَحْ مِنْ كِتَابٍ ،
بَلْ لَقَدْ ضَيَّقْتُ ذَرْعًا بِنَفْسِي وَبِمَنْ حَوْلِي مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا .

وَكَانَ طَيْفُ « فَتْحِيَّة » يُحَوِّمُ فِي مَخِيلَتِي يَسْأَلُنِي :

مَاذَا صَنَعْتُ مِنْ أَجْلِهَا ؟

فتنطوى جوانحى على حَسْرَةٍ واغتمام ، وأستشعرُ احتقاراً لنفسى ،
وإزرأ بما قارفتُ من آثام . . .

وكنتُ فى غالبِ أمرى إذا أُوتيتُ إلى حَجرتى حاصرتنى
ذِكْرِيَّاتُ حُلُوةٍ تتراءى لى فيها « فتحية » جالسةً قُبَالَتى تَطْرُزُ ،
فأتملى وجهها الوسيم الوديع ، أو ذاهبةً آيةً تتعهدنى وتُعنى بخاصة
شأنى ، أو متحدثةً إلىّ فى مستقبلنا المرجو بصوتها الرفيق . فأسارعُ إلى
نفسى أتساءل محزوناً محسوراً :

تُرى كيف تعيشُ « فتحية » الآن فى زوايا الريف ؟ وما موقفها
إزاء ما أُرغمتُ عليه من زواجٍ بغيض ؟ لا مَرِيَّةَ فى أنها تُعانى ضرراً
من المهانة والإذلال ، وتكابد ألواناً من الشَّقْوة والبأساء .

وإذا أنا تضطرم نفسى هَمًّا وأسى ، وَيَحْضُرُنِي شَبَحُ أَخَى فى
وقفته الصُّلْبَةِ المَجَنَّةِ ، وفى يمينه عصاه يُلوِّحُ بها فى وجهى ، فأعجبُ
كيف جَبُنْتُ حِيَالَهُ حتى فَرَضَ عَلَىَّ ما فرض ، وَأَنْفَذَ ما أنفذ ؟ أما
كان حَرِيًّا بى أن أنتزعَ العصا من يده ، وأن أهوىَ بها فأحطمَهَا
على رأسِهِ ؟

وتعرونى نَوْبَةً أَفْقِدُ فيها رشدى ، فيعلو صوتى بِشْتَمٍ وسباب ،
وأنهالُ على نفسى بِجُمُوعِ يَدَى ضَرْباً ولكما ، وأظلُّ كذلك مهتاجاً

حتى أسقطَ على سريري كالجدارِ يتهاوى . فإذا نهضتُ عندَ الصباح
أُزيلُ فراشي ، وجدتُ الوسادَ مُحضَّلاً بالدموع .

ولما عُدْتُ إلى المدرسة لم تَخَفَ حالتِي على رفيقِي « الزغي »
و « خيرى » ، فأقبلا علىَّ يتعرفان خبيثة أمرى ، ويستجاليان مكنونَ
سرِّي ، فأجبتُهُما : أريد أن أخلصَ من هذه الدنيا ... أريد أن أنتحرَ .
فوجدتُ « خيرى » يَفْغَرُ فاه مرتاعاً ، ويرتدُّ خطوات ، ولكن
« الزغي » جعل يتلطفُ بى ، ويأخذُ بيدي ، وهو يقول : ماعليك
من بأس ، هَدِّئْ من رَوْعِكَ ، ماذا فى الأمر ؟ اُصْدُقْنِي .

فَسِرْتُ معه خافضَ الرأسِ صامتاً ، أحاولُ أن أستبقى فى سريري
ما يَشْغَلُنِي ، ولكنى ما عَتَمْتُ أن ألفتِنِي أنفجرُ نافضاً دَخِيلَةَ نفسى ،
مُفْضِياً بكل ما أقالسيه من متاعبَ وهموم . وختمتُ حديثى بقولى :

أبعدَ هذا تحسب أن خيراً لى أن أعيشَ ؟ أليسَ الانتحارُ أولى بى ؟
فتضحك « الزغي » وهو يَضَعُ يده على مَنْكِبِي ، وقال :

ما زلتَ طفلاً يا « سامى » لا خِبْرَةَ لك بالحياة . إن ما جَرَى
لك أهونُ من أن يُحَسَبَ له حساب . سوف تنسى ما كان بينك وبين
فتاتِكَ ، وسوف تَقَعُ فى شِبَاكِ حبٍّ جديد .

فصحتُ على الفور : معاذَ الله أن أخونَ لها عهداً !

١٦

ما شأنُ « تهباني » بي ؟

ألا بُعْدا لتلك النزعات التي تجعلني أدمِنُ التفكيرَ في تلك
الإنسانة العتيقة اللعوب !

ما لهذه القبلة التي أذاقتني إياها منذُ أشهرٍ خَلَّتْ تعاوُدي
ذكراها ، فتشِيرُ بين جوانحي رغبةً عارمةً جارمةً ؟

ما لهذه الإنسانة لا يتمثلُ لي طيفُها إلا جسداً غصّاً بضاً ، تتموج
عليه شُفوفٌ حريرية ناعمة زاهية ؟

أنا من هذه الذكريات والأخيلة في عذاب موصول ، فلا أجدُ
أمامي إلا رأسَ أخى أصبُّ عليه سَوْطَ النقمة والسُّخْطِ .

وساعةً وأنا في المدرسة يزدهمُ خاطري بتلك المشاهدِ والتصوُّرات ،
أخذتُ بيدَ « الزغبى » أشدُّ عليها قائلًا :

كيف حالُكَ مع « الحاجةِ فاطمة » ؟

فَجَبَّتْ « الزغبى » وحدَّقَ فيَّ ، فقلتُ له :

لقد حدَّثتَنِي عما تلقاه في بيتها من مُتَع . ألم تعاوُدْ زيارة البيت ؟

فانبسط أساريه ، وتبسّم ضاحكاً يقول :

وهل أستطيع عنه سُلوًا ؟

ومال على أذني هامساً يقول : إذا شئت ذهبنا العشيّة معا .

فضغطت يده ، وقلت : موافق .

وأقبل « خيرى » فى هذه اللحظة ، فقال له « الزغبى » :

.. ستكون معنا . . . استعدّ لقضاء سهرة ممتعة .

فسأله « خيرى » : أين ؟

فأجاب « الزغبى » : عند « الحاجة فاطمة » . . .

فأجفل « خيرى » وهو يقرض أظفاره ، ويقول :

أبي . . . أبي ، لو علمَ لكنت الطامّة الكبرى .

فقلت « للزغبى » : لنترك « خيرى » حرّاً فى تصرفه . . .

فقال « الزغبى » : أفتركه طفلاً حتى يشيب ؟

ثم التفت إلى « خيرى » وصاح به : قولْ فُصِّل ، ستكون معنا . . .

لا تخش شيئاً من أهلك ، لن تجده هناك !

ولما جنّ الليل ، احتوتنا حانة وَضِيعَة فى حى « باب الشعرية »

فطلب لنا « الزغبى » شراباً أسودَ لاذعاً كريه المذاق ، ما كدتُ

أصيبُ منه جرعة ، حتى اندلعت النار فى أحشائى ، فأدرك « الزغبى »

ما بي ، فَلَا كَزَنِي وهو يقول :

تَشَجَّعْ ، وكن بطلاً ، وافعلْ مثلَ ما أفعل .

وتناول كأسه ، فصبَّ منها في فمه جُرْعَةً وافية ، ثم انطلق ضاحكاً يَزْهُو ، فتناولتُ كأسِي ، وصنعتُ كما صنع ، وكنتُ أحسُّ بَادِيَّ بدء شَيْئاً من التَّهَيُّبِ والترُّدِّد ، فأنا حيالَ مغامرة مجبولة لا أدري لها عُقْبَى ، ولكني ما لبثتُ أن تطاير عني شعورُ الخوف والإحجام ، وجعلتُ تسرى في أوصالي ساريةً من الجرأة والطلاقة وَالْإِنْدِفَاع .

أما « خيري » فقد أمسك عن الشراب ، وَحَرُنَ لَا تَلِينُ لَهُ قَنَآةً ، وكان وجهه كاسفاً ، وجبينه يتفصَّدُ عرقاً ، فَهَزْنًا به ، وتركناه يَقْرِضُ أظفاره ، وهو في حالة زَرِيَّةٍ من التخاذُلِ وَالْإِرْتِبَاك .

وفصلنا عن الحانة ، فقادنا « الزغبي » يَخْتَرِقُ بنا مَلَاوِيَ الدروب والحارات ، وهو آخِذٌ بيدِ « خيري » يجرُّه جرّاً .

وفي أثناء مسيرنا كان « الزغبي » يُطْنِبُ في الحديث عن « الحاجة فاطمة » ويتفنَّن في وصف دارها ذاتِ الأسرار . وما زال يحدِّثنا حتى بلغ بنا بيتاً عتيقاً بابُه ضَخْمٌ فَسِيحُ الجوانب ، فوقف « الزغبي » عنده ، وأومأ إلينا أن نلتزم الصمت ، وتقدم يدُقُّ البابَ

على نحو خاص ، فانفتح طاق بدا فيه وَجْهٌ لم تتبين منه إلا صوتاً أجشَّ
يقول : مَنْ الطارق ؟

فأجاب « الزغبى » خافت الصوت : أنا « الزغبى » .
فلبثَ الوجهُ لحظات ، كأنما يثبَّت ويستوثق ، ثم توارى
عن الطاق .

وسَمِعْنَا صَرِيرَ الباب وهو يتزحزح لِيَفْسَحَ لنا فُرْجَةً صغيرة ننفذُ
منها فى محاذرةٍ واحتراس ، وإذا بنا فى فِناءٍ تَمُوجُ فيه الظلمات ،
وأمامنا ذُبَالَةٌ شَمْعَةٍ يحملها شَبَحٌ يتقدمنا ، ونحن فى أثره نخطو
صامتين ...

وجعلنا نتخبَّط فى دهاليزَ ، ونتنقَّل على دَرَج ، ومال « خيرى »
على أذنى يهيمسُ : ألا تخشى أن يقتلونا ؟
فأجبتُه مؤكِّداً : لستُ أخشى شيئاً !

وتهدأت إلى أسماعنا أنغامُ غِناء ، ونقرات طبل ، وكلما أمعنا فى
السير ، تجلَّت الأنغام وتعالَت النِّقرات . وما لبثنا أن وضحتُ لنا ضجة
رَنَّت فيها ضحكات نساء ، فأحسستُ نشوةً تمتلكنى .

وبغتهً فَطَنْتُ إلى أن ذُبَالَةَ الشَّمْعَةِ قد اختفتُ ، وما هى إلا أن

استقبلتنا قاعة رَحْبَةٍ شَحَّ فِيهَا الضوء ، فأضنى عليها غلالةً من الغموض
والخفاء .

وأخذت عيني جمعاً من النساء في ثياب كاشفة ، وأوضاع متبدلة ،
يُحِيطُ بهنَّ رجال يتطوَّحون ويترنَّحون ، وهم يعايشون النساء في عريضة
وصخب ، ومن حولهم يدوي قرع الطبول ، وشدو الألحان .

وحانت مني التفاتة إلى « خيري » فلمحته يدير بصره يمنة ويسرة
وعلى فيه ابتسامة بلهاء ، وانحنى « الزغبى » علينا يقول :

تعاليا أعرفكما « بالحاجة فاطمة » .

ومضى بنا إلى ركن في القاعة ، تبينت فيه امرأة بادنة ، تقدمت
بها السن ، متلفعة بخمار ناصع البياض ، وهي تجلس جلسة رزينة
محتشمة ، على أريكة وثيرة الحشايا ، وبين يديها « نارجيلة » تجتذب
أنفاسها في هيئة ورفق ، ومن معصمها تتدلى سُبْحَة طويلة ذات
حبّات غلاظ .

ووجدتني أتداني من مجلسها أحييها في أدب ، فسحت على
رأسي تقول : ماشاء . . . ماشاء الله . . .

ثم ما عثمت أن صاحت بالخدام مجلجلة الصوت :
انظر يا ولد ما ذا يطلب ضيوفنا « البكوات » . . .

وأخذنا مجالسنا عن كُثْبٍ منها ، فتصدَّى « الزغبى » للخادم
يتخير لنا ما نشرب ، وأقبلت علينا « الحاجة فاطمة » تتحدث إلينا
فى مختلف الشئون ، حتى إنها خَصَّتْ حياتنا المدرسية ببعض الحديث ،
ولم تنسَ أن تزوِّدنا بالنصائح والوصايا ، تحمُّنا على الاجتهاد فى
التحصيل .

وعجِّلَ الخادمُ إلينا بما طلب « الزغبى » من الشراب ، ولم يكن
بينه وبين شراب الحانة كبيرُ اختلاف ، فَكَرَعَ « الزغبى » من
كأسِهِ ، وَحَذَوْتُ حَذْوَهُ . وكانت « الحاجة فاطمة » تَلَحَّظُنَا بعينٍ
يَقْظَى ، فانثنت على « خيرى » تسأله : لماذا لم تَشْرَبْ يا بُنَى ؟
فطَفِقَ يَفْرُكُ يديه ، وهو يغمغم ويتضحك ، فأخذت كأسه ،
وَقَرَّبَتْهُ مِنْ يَدِهِ ، فآثَلَتْهُ : إنه شراب مفيد للصحة .

فتناول الكأس منها ، وما لبث أن رفعها إلى فمه .
وتابعت « الحاجة فاطمة » حديثها إلينا ، بيد أنها خلقت بالحديث
فى آفاق جديدة متطرفة ، فراحت تقصُّ علينا أشتاتاً من الأضاحيك
والفكاهات والنكات . وهى فى الفينة بعد الفينة تَمِيلُ على طَرَفِ
أريكتها فتُدْلِي يدها إلى زجاجة تحت الأريكة تملأ منها كأساً ، وسرعان
ما ترفع الكأس إلى فمها فى مسطرة واستخفاء .

وَنَدَّتْ مِنْ « خَيْرَى » ضَحْكَةً رَنَّانَةً ، فَانْتَفَتُ إِلَيْهِ ، فَوَقَعَ
بَصْرِي عَلَى كَأْسِهِ فَارْغَةً ، وَإِذَا هُوَ يَشْرَبُ إِلَى الْخَادِمِ ، طَالِبًا إِلَيْهِ
كَأْسًا ثَانِيَةً !

وَقَدِمَ عَلَى « الْحَاجَةِ فَاطِمَةَ » ثَلَاثَةُ شُبَّانٍ يَتَخَطَّرُونَ فِي أُنَاقَةٍ
وَزَهْوٍ ، فَاسْتَقْبَلَتْهُمْ تَحِيَّيَهُمْ أَحْسَنَ تَحِيَّةٍ ، وَتَرَحَّبَ بِمَقْدَمِهِمْ أَجْمَلَ
تَرَحُّيبٍ . فَرَأَيْتُ « الزَّغْبَى » يُهَيِّبُ بِنَا أَنْ نَنْهَضَ ، وَفِيمَا نَحْنُ نَتَّبِعُهُ
مَدِيرِينَ عَنْ مَجْلِسِ « الْحَاجَةِ فَاطِمَةَ » سَمِعْتُهَا تَصِيحُ بِالْخَادِمِ مَجْلِسَةً
الصَّوْتِ : انْظُرْ يَا وَلَدَ مَاذَا يَطْلُبُ ضِيُوفُنَا « الْبَكَوَاتِ » ؟

وَسَرَّعَانَ مَا انْتَضَمْتَنَا حَلَقَةٌ مِنْ نِسَاءٍ وَرِجَالٍ ، فَبَرَزَتْ لَنَا مِنَ الْجَمْعِ
ثَلَاثُ نِسْوَةٍ تَقَاسَمَتُنَا بَيْنَهُنَّ ، فَانْبَرَيْتُ أُعَبُّ مِنَ الشَّرَابِ عَبًّا ، وَأَلْفَيْتُنِي
بِجَمُوحِ الْحَرَكَةِ ، طَلَقَ اللِّسَانَ ، أَشْعَرُ بِنَزْعَةِ الْمَغَامِرَةِ ثَوْرُ ثَائِرَتِهَا فِي دَمِي
لَا خَشْيَةَ ثَمَّةَ وَلَا اسْتِنْكَافٍ .

وَتَوَارَدَتْ الْمَشَاهِدُ لَا أَضْبِطُ مَعَهَا وَعْيِي ، وَلَا أَمْلِكُ زِمَامَ إِرَادَتِي ،
فَكَأَنَّمَا قَدْ طَوَانِي تَيَّارُ عَاصِفٍ مِنْ أَصْوَاتٍ وَحَرَكَاتٍ .

وَلَسْتُ أَنْسَى أَنِّي لَمَحْتُ « خَيْرَى » عَلَى رَأْسِهِ طُرْطُورٌ ، وَقَدْ لَفَّ
خَاصِرَتَهُ بِبِنِطَاقٍ حَرِيرِيٍّ ، وَشَرَعَ يَرْقُصُ ، عَلَى حِينِ أَخَذَقَ بِهِ الْجَمْعُ
يَغْنُونُ وَيَصْفَقُونَ .

وكنْتُ أحياناً يَدَهُمْنِي فتور ، فتغمرُنِي غاشيةٌ من الظلمة والصمت
أُخْذِي فِيهَا إِلَى غَيْبُوبَةٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنَا قَدْ اسْتَيْقِظْتُ فُجْأَةً عَلَى هَيْجَةٍ مِنْ
تَصَايِخٍ وَغَنَاءٍ وَإِيقَاعٍ ، فَلَا أَلْبَثُ أَنْ أَخُوضَ مَعَ الْجَمْعِ غَمَارَ الْعَرَبْدَةِ
وَالضَوْضَاءِ .

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِي أَنِّي كُنْتُ كُلَّمَا تَطَلَعْتُ إِلَى وَجْهِ الْغَانِيَةِ الَّتِي
تَجَاوَرُنِي ، رَأَيْتُنِي أَتَمَثَّلُ وَجْهَ « تَهَانِي » بَسَامًا يُغْرِينِي بِهِ ، فَأَجِدُنِي
قَدْ انْهَلَتْ عَلَيْهَا أَوْسَعُهَا ضَمًّا وَتَقْبِيلًا .

وَتَوَالَتْ الضُّجَّةُ ، وَاشْتَدَّ عَلَى رَأْسِي وَقْعُهَا ، فَلَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ تَمْيِيزَ
شَيْءٍ مِمَّا يَجْرِي حَوْلِي . وَانْتَبَهْتُ إِلَى أَنِّي أَتَرَجَّحُ فِي مَرَكَبَةٍ تُكْرَرُ كَرًّا ،
وَحُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي سَمِعْتُ « الزَّغْبَى » يَهْزُنِي قَائِلًا :
أُصْحُ يَا « سَامِي » . . . دَنُوتَ مِنَ الْبَيْتِ .

وَأَحْسَسْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ بِذِرَاعَيْنِ تَحْمَلَانِنِي ، فَتَصَدَّانِ بِي فِي الدَّرَجِ ،
وَكَأَنِّي أَسْمَعُ صَوْتَ « مَدْبُولِي » يَقُولُ : هَلْ أَنْتَ أَحْسَنُ حَالًا ؟
وَقَضَيْتُهَا لَيْلَةً ثَقُلْتُ عَلَى وَطْأَتِهَا ، وَفَزَعَتْنِي أَحْلَامُهَا ، إِذْ كَانَ
يَتَرَاءَى لِي أَنِّي أَشْتَبِكُ فِي مَعْرَكَةٍ حَامِيَةٍ بَيْنَ أَخِي تَارَةَ وَشَيْخِ
الْخَفَرِ تَارَةَ أُخْرَى !

١٧

لذَّ لي هذا اللونُ من حياة العُث والهوى ، ولم أعدُّ أكتفى
بِالاختلاف إلى منزل « الحاجة فاطمة » وحده ، فقد عرفتُ الطريقَ
إلى أشباهِ له ونظائر ، حتى أصبح لي في ذلك الميدان مكان مرموق ،
وكأنني آليتُ على نفسي ألا أعودَ إلى البيت ليلةً غيرَ مخمور .

وازداد تخافى عن المدرسة ، حتى أصبحتُ أيام حضوري تُعَدِّلُ
أيامَ مَغِيبي أو تقلُّ عنها عددا .

واقترضتُ هذه المعائبُ مَزِيداً من النفقات ، فكنتُ أفرعُ إلى
زوج أخى ، وهى فى حجرتها التى لم تكن تَرِيحُها إلا فى النَّدْرَةِ ، وكأنما
ألزمتُ نفسَهَا أن تكون فيها سَجِينَةً بلا سَجَّان . وأظَلُّ أتلطفُ بها فى
طلب المال ، وأتحوَّلُ كلَّ حيلة للحصول منها على ما أطلب ، متفنناً فى
التعليل والتسويغ ، ولا أزال كذلك حتى أظفرَ بِبُغْيَتِي مرةً بعد مرة .
على أن زوج أخى كانت سخيةً علىَّ ما وَسِعَهَا أن تسخو ، تأبى
أن تردَّنى خائبَ الأمل ، ولكنها كثيراً ما استبقتُ يدي بين يديها
تهزّها فى حُنُوٍّ ، وهى تحدِّق فى عيني قائلةً لى : كن عاقلاً يا بُنَى فى
تصرفاتك ، وحاذِرْ أن تُغْوِيكَ نزغات السوء .

وكان يطيبُ لى أن أُطيلَ جلوسى إليها ، أحاولُ أن أفاكهها وأن
أسرّي عنها ، ولكنَّ الكآبة التى رانت على هذه الحجرة كانت
تريدنا أحياناً على صمت مُطْبِق ، فألبثُ قبالةَ زوج أخى أرنو إليها
كاسفَ البال ، وهى قابعة فى ركود واستسلام ، على عينيها نظارتها
الزرقاء تزيد مُحَيَّاها من شحوب . وأجدنى أهمهم :

حتى متى تظلين فى هذا العذاب ؟

— هذا أمر الله يا بُنَى !

فأشدُّ على يدها أقول :

لماذا لا تخرجين للنزهة والترفيه عن النفس .

فتربتُ كتنفى متنهدةً تجيب :

أنت طيبُ القلب يا « سامى » ، أعلم أنك تحبُّ الخير لى ...

انهضْ يا بنى ، فتمتع بشبابك ، فالدنيا لأمثالك !

أما أخى فقد أصبح يزور الدار زيارة الضيف ، ويلوح فيها كما

تلوح سحابة الصيف ... وكنتُ أتكبُّ عن مرآه ، ولكننا كنا

نساقى اتفاقاً ، فلا يزيد ما بيننا على أن أحييه على كُرّه ، فيعقد لى

جبينه ، ويمطُّ شفثيه ، وهو يردّ تحيتى مغمغماً لا يُبين .

ولطالما كان يَغْلُو بى فضولى ، أريد أن أعرف أين تسكن
« تهانى » ؟ وكيف تعيش ؟ وعلى أى نحوٍ تعاشر أخى ؟ فأكشف
« أم خضير » بِمَرَادِ نفسى ، فتُنْهِى إلى أطرافاً من الأخبار والأحداث ،
تَهَيِّجُ بها رغبتى فى طلب المزيد .

وحان يوم كنت فيه أعتلى مركبتى ، فبرقت فى خاطرى فكرة
هيمنت علىّ ، فهمست فى أذن « مدبولى » بكلمات ، فنظر إلى مدهوشاً
يهزّ رأسه هَزَّةَ الإمتناع ، ولكنى ألححت وأصررت ، فوجهَ قِيَادَ
المركبة وجهَةً أخرى ، ومضى بى إلى حيث أريد .

وجازت المركبةُ بدارَ قِيَاحَةٍ تُحِيطُ بها حديقةٌ رشيقةٌ ، فالتفت
« مدبولى » إلى غامزاً بعينه ، مُؤَمِّناً إلى الدار ، ثم لَسَعَ ظهرَ الحِصَانِ
بسوطه ، فانطلقت عَجَلَاتُ المركبة تطوى الطريق .

وملكتنى نشوةٌ حين ظَلَيْتُ أتتبع الدارَ بنظراتٍ منهومة ،
والمركبةُ تنأى بى عنها فى غير مَهَلٍ .

وبغتةً أمسكتُ بيد « مدبولى » أقول له : قِفْ !

— لماذا ؟

فشددتُ عِنانَ الحِصَانِ من يديه ، ووقفتُ المركبة وأنا أقول :
ستنتظرنى قليلاً .

ونزلتُ عن المركبة وثباً ، وتوخيتُ الدار ، وأنا أتلقت محذراً أن يرانى أحدٌ ممن أعرف ، وما إن قاربتُ البابَ حتى لحْتُ مركبةً فخمةً مُقفلةً تبارحُ الدار ، فانزويتُ أرقبُ ، وجازتُ المركبةُ غيرَ بعيدٍ منى ، فإذا فيها أخى و « تهنانى » تتألقُ على وجهيهما البهجةُ والمرحُ ، فاضطربتُ نفسى ، ورجعتُ إلى مكانِ مركبتى ، تتقاسمُني مشاعرُ متناقضة . وما كان أشدَّ دهشتى إذ رأيتُ المسكان خالياً من المركبة ، فجعلتُ أدور يميناً ويسرةً فى تعجبٍ وحيرة ، وبعدَ لأيٍ رأيتُ « مدبولى » مترجلاً يبحث عنى ، فصحتُ به : أين المركبة ؟

— خبأتُها فى زقاق هنالك . كدتَ تُوقعُنى فى بليّةٍ وشرٍّ ، فقد لحْتُ مركبةً أخيك قادمة ، فسارعتُ إلى الاختباء .

ووافيتُ البيتَ ، لا يبرحُ رأسى مشهد « تهنانى » فى صُحبةٍ أحنى وقضيتُ فى الحديقةِ ساعةً تراوِدُنِى فكرةٌ معيّنة ، وأنا أرسُمُ لتحقيقها خطةً محكمةً ، وزُهِيتُ نفسى بما أحسسته من جرأتى ومضاء عزمى .

وفى صبيحة غدى ، كانت تلك الفكرةُ المعينة قد اختمرتُ فى رأسى ، ولم يعدْ لى مَصْرِفٍ عن إنفاذها فى غير وئاء . فخرجتُ من الدار مشغولَ البال بما أنا فيه ، ألتبس فى التجوال فرجةً وتسرية . وشدّما أدهشنى أن أطلعَ وجهاً طال مغيّبه عنى سـنـينَ ، ذلك هو وَجْه القَرَم

المُشَوَّه ، صبيّ البستاني القديم . . . إنه « العيوطى » الذى طَرَدَه أخى
شرّاً طَرْدَةً !

اقترَب منى هابطاً على يديّ يقبِّلُها ، وهو يقول فى مَسْكَنَةٍ :
الحمدُ لله على أنك بخير يا سيدى . جئتُ أراك يا سيدى !
فَعَجِبْتُ لذلك الذى عَهِدْتُهُ متمرّداً شَعُوباً ، كيف صار اليوم
متخاضِعاً ذَلِيلًا ؟ فقلت له :

كيف أنت يا « عيوطى » ؟ أين كنتَ هذه السنوات ؟
— كنتُ فى الصعيدُ أعمل .

وجعلتُ أتفرّسُ فيه ، فخيّلَ إلىّ أنه قد تقاصرَ عن ذى قبل ،
وأن أحاديده وجهه قد مَشَى بعضُها فى بعض ، وأن جبهته بها ندوب
غائرة ، وأن فمه قد تحطمتُ فيه الثنايا .

فقلتُ له فى إشفاق : وماذا تعملُ الآن ؟

فتطلع إلىّ يَفْرُكُ يديه ، ويبتسم قائلاً : أبحثُ عن عمل .
وأخذتُ أخطو فى الطريق ، وهو بجانبى يتحدثُ إلىّ حديثَ
هِجْرته إلى الصعيد ومُقامِهِ فيه ، وتنقّله بين النُجُوع والأصقاع ، مشاركاً
فى شَقِّ الترع ، وتمهيد الجسور ، يزاوُل ألواناً من المغامرات ، ويزدوقُ
من العيش طَعْمِيهِ الحلو والمرّ .

وكنتُ في أثناء حديثه لا أُلقِي له سَمْعِي كلَّ الإلتقاء ، فقد حَلَقَتْ
بني الخواطرُ في آفاق أخرى ، كثيراً ما كانتُ تتراءى فيها « تهاني »
مع أخي تحويهما المركبةُ الفخمة .

ووجدتُني أدُلِّي بنظري إلى « العيوطى » وقد لمَحَ في رأسى خاطر
جريء ، فقلتُ له :

أَلْقَنِي غدا . . . أنا في حاجةٍ إلى من أثقُ به ، لِيُنْجِزَ لى أمرا .
وما أسرعَ أن دَسَسْتُ في يده مِنحة طيبة من النقود ، فجعل يقول :

لا حَرَمَنِي اللهُ خَيْرَكَ . . . أنا طَوْعُ عُمْرِكَ !

ولما لَقِيتُ « العيوطى » في غدٍ خلوتُ به أرسُمُ له مهمته ، وأفهمتهُ
كيف ينجزها على خيرِ وجه ، ورجبتُ إليه في أن يأتى إلى كلِّ
مساء بما عنده من الأخبار .

ومضتْ أيام كنتُ أرتقبُ فيها كلَّ ليلة مَقْدَمَ « العيوطى » على ،
فأنتحى به ناحية أسأل وأستفسر ، متقصِّياً في السؤال والاستفسار ، وهو
ينفضُّ لى ما وراءه في حماسة وبقظة واهتمام .

وحلَّ يوم بلغتُ فيه مهمةُ « العيوطى » منتهاها ، فقد أنهى إلى
أن « تهاني » ترحَّب بِمَقْدَمِ عليها ، وأنها في ارتقابِ فرصةٍ تتحَّينها
لألقاها في دارها خُلُصةً وراء الأنظار . . .

وفي وقتِ الظهيرة من غدى ، رجعتُ إلى داري ، فإذا أنا أجد
« العيوطى » بالباب ينتظر ، مهتاج النفس ، متهلل الوجه .
فبادرتُ أسأله : ما وراءك ؟ ماذا أسرع بك ؟
فأمسك بيدي ، ومضى بى صامتاً خطوات ، وجعل يشرئبُ إلى
وهو يهيمس قائلاً : إنها فى انتظارِ قدومك عليها عصرَ اليوم . . .
فوقفتُ مأخوذاً لا أملكُ سَكينةَ نفسى إزاء هذه المفاجأة .
وما عتَمْتُ أن قلتُ : كيف السبيلُ إلى دخولِ المنزل ؟
فابتسم ابتسامةَ دهاءٍ وتخابُث ، وقال :
هذا شأنى . . . كُنْ مطمئناً .

وأمضيتُ الوقتَ دائبَ الحركة ، موصولَ السعى ، لا أنجزُ عملاً ،
ولا أعرفُ لى من قرَّار . وطالما وقفتُ أمامِ صِوَانِ الثياب ، أوازنُ بين
الحللِ جديدها وقديمها ، أيُّها ألبس ؟ وأيُّها أَلَيَق ؟ وطالما بعثتُ أربطة
الرقبة أحدى فى فيها لا أدري ماذا أتخيرُ منها ؟ حتى دقتُ ساعةُ الحائطِ
تؤذِنُنِي بأن الموعدَ قد أَرِفَ ، فَرَدَدْتُ بابَ الصَّوَانِ أَغْلِقُهُ ، وقد استقرَّ
رأى على ألا أضيعَ وقتى فى استبدالِ ملابس بملبس . ووجدتُنى أمثلُ
أمامَ المرآةِ عجلانَ أُصْلِحُ من هُندامى ، وأطرِّى شعرى . ثم ما هى

إلا أن عَدَوْتُ أَقْفِزُ عَلَى الدَّرَجِ ، حَتَّى بَلَغْتُ بَابَ الدَّارِ ، فَعَثَرْتُ
« بِالْعِيوْطَى » كَأَمَّنَا يَرُصُّدُ نَزُولِي .

وَسَرْنَا مَعًا فِي خُطَا خِفَافٍ ، حَتَّى صَادَفْتُنَا مَرَكَبَةُ أُجْرَةٍ ، فَاسْتَوْقَفَهَا
« الْعِيوْطَى » وَطَلَبَ إِلَى السَّائِقِ أَنْ يَقْصِدَ بِنَا جِهَةً أَجْهَلُهَا ، فَسَأَلْتُ
« الْعِيوْطَى » فِي ذَلِكَ ، فَأَجَابَنِي :

لَا نَسْتَطِيعُ الزَّهَابَ إِلَى بَيْتِ « تَهَانِي » تَوًّا... عَلَيْنَا أَنْ نَمُهِدَ لِلْأَمْرِ !
وَصَعِدْنَا فِي الْمَرَكَبَةِ ، فَضُتْ بِنَا تُكْرِكِرُ ، وَ « الْعِيوْطَى » يَشْرَحُ
لِي مَا دَبَّرَ مِنْ خُطَّةٍ ، ثُمَّ جَعَلَ يَدُلُّ السَّائِقَ عَلَى الطَّرِيقِ .

وَنَزَلْنَا عَنِ الْمَرَكَبَةِ أَمَامَ دَارِ زَرْيَةِ مُسْتَهْدِمَةٍ ، فَسَبَقَنِي « الْعِيوْطَى »
دَاخِلًا فِيهَا ، وَأَنَا عَلَى أَثَرِهِ ، حَتَّى أَفْضَى بِي إِلَى حَجَرَةٍ مُعْتَمَةٍ تَهَبُّ
مِنْهَا رَائِحَةُ كَرِيهَةٍ ، وَتُرَكْنِي هُنَيْيَةً ، ثُمَّ عَادَ إِلَى يَحْمِلُ صُرَّةَ فُضْهَافِ بْنِ
يَدِي ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا ثَوْبًا نِسْوِيًّا وَبُرْقَعًا وَمُلَاءَةً سَوْدَاءَ ، وَهُوَ يَقُولُ :
الْبَسْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ !

فَأَلْقَيْتُ عَلَى الْمَلَابِسِ نَظْرَةً اسْتَعْرَابَ ، وَعَجِبْتُ كَيْفَ يَرِيدُنِي
« الْعِيوْطَى » عَلَى أَنْ أَتَزَيَّأَ بِهَذَا الزَّيِّ ؟ وَانْفَجَرْتُ ضَاحِكًا عَلَى حِينِ
بَغْتَةٍ ، حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَايَ ، فَهَزَّنِي « الْعِيوْطَى » قَائِلًا :

حَانَ الْمَوْعِدُ... هَيَّا... لَا نُضِيعِ الْوَقْتَ !

وشرعتُ أستبدل بملبسى هذا الزىِّ النسوى ، يعينُنى « العيوطى »
على إحكام ارتدائه والظهور به .

وانتابتنى نشوة السادرِ الطليق ، فجعلتُ أقهقه فى غير مبالاة ،
وخرجتُ مع « العيوطى » فى لبؤس التنكُّرِ ، فأقلتُنا مركبةُ أجرةٍ
تنهبُ بنا الطريق إلى دار « تهبانى » ، فلما كانتُ منها عن كُشْب ،
نزلنا عن المركبة نترجِّل ، ووقف « العيوطى » يقول :

تشجعْ ، واضبطْ نفسك ، وادخلْ على بركة الله ! . . . ادخلْ
وحدك من الباب الخلفى . . . إنها فى انتظارك هناك .

ونحوتُ نحوَ الباب ، فما إن دخلتُ حتى وجدتنى فى رَدْهةٍ
صغيرة ، فقطعتها وقلبى دائبٌ خفوقه إلى بابٍ على اليمين ، ونفَذْتُ
منه محاذراً سريعَ التلفت إلى دهليزٍ استقبلتنى فيه هبةٌ من عطر ليس
عنى بغريب . . . فسرتُ فى أوصالى انتعاشة ، وانبعثتُ فى مشاعرى
يقظة ، ورأيتنى أخطو نشوان .

وبغتهٍ برزتُ لى « تهبانى » ، فوجدتنى أخِفَّ إليها ، وألفيتها
تأخذ بيدى ، وهى تحدِّقُ فىَّ ، وتكبتُ فى فيها ضحِكَات .

وراعنى منها أولَ ما راعنى عيناها الجياشتان بأحاسيسَ فوّارةٍ
عارمة ، فلم أعد أقوى على أن أطيلَ فيهما النظر .

وسرنا معاً ، فقالت لى فى همس :

شكرتُ لك تفكيرك فى ... جميلٌ منك أن تتكبدَ هذه المشقاتِ
فى سبيل لقائى . . . إن المغامرات تستهوينى كلَّ استهواء .

فضغطتُ يدها وأنا أهمهم : فى سبيلك كل صعب يهون !

وشعرتُ فى هذه اللحظة بأنى أكاد أختنق تحت وطأة ذلك البرقع
المشدود على وجهى ، فهممتُ بأن أفكَّ وثاقه عني ، فعاجلتني
« تهانى » تمنعني ، وهى تقول : دعه قليلاً .

واجتزنا الممرَّ ، فأسامنا إلى حديقة محدودة خلف الدار خاصةً
بالحریم ، فى طرفها منظرَة خشبيّة رشيقة ، فلما دخلناها أغلقتُ
« تهانى » بابها إغلاقاً محكمًا ، وهى تقول لى :

هنا يسعُك أن ترفعَ برقعك ، وأن تخلعَ مُلاءتك أيضاً !
فما أسرعَ أن فعلتُ .

وكانت المنظرَة ذات أثاث طيب يعمرُ بوسائل الراحة والرفاهة ،
فجلستُ على متكأٍ وثير الحشايا ، وأنا أمسح وجهى ، وأسوى شعري ،
فوقفتُ « تهانى » ترنو إلى ، ثم قالت :

لا أستطيع أن أجالسك وأنت فى زى امرأة . . .

ثم جذبتُ من تحت إحدى الوسائد منامة هفافة ناولتني إياها ،

فَقَمْتُ إِلَى رُكْنٍ أَخْلَعَ ثَوْبِي الدُّسُوعِيَّ ، وَأَلْبَسَ الْمَنَامَةَ ، عَلَى حِينِ
أَخَذْتُ « تَهَانِي » تَنْظُرُ فِي مِرْآةٍ لَهَا ، تَسْتَكْمِلُ زِينَتَهَا ، فَلَمَّا فَرَغْتُ
مِنْ أَمْرِي طَابَ لِي أَنْ أَفَاجِئَهَا ، فَأَخْتَلَسَ مِنْهَا قُبْلَةً فِي عُنُقِهَا ، فَفَطَنْتُ
إِلَى مَا أُرِيدُ ، وَتَنَحَّيْتُ بِوَجْهِهَا عَنِّي ، وَهِيَ تَقُولُ فِي مِلَاطِفَةٍ :

مَاذَا كُنْتَ تَبْغِي أَنْ تَفْعَلَ ؟ أَعَزَبَ عَنْكَ أَنْيَ زَوْجُ أَخِيكَ ؟
وَنَظَرْتُ إِلَى تَتَبِينَ أَثَرَ قَوْلِهَا فِي نَفْسِي ، ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ تَقُولُ :
اجْلِسْ قُبَالَتِي نَتَحَدَّثْ .

فَجَلَسْتُ حَيْثُ أَشَارَتْ ، وَرَأَيْتُهَا تُنَدِّي مِنْ دِيلِهَا بِالْعِطَرِ ، وَتَدْلِكُ
بِهِ وَجْهِي فِي دُعَابَةِ وَرِقَّةٍ .

وَكُنْتُ بَيْنَنَا لَحَظَاتٌ صَمَتْ ، عَبَثْتُ فِيهَا « تَهَانِي » بِقِلَادَةٍ
تَتَدَلَّى عَلَى صَدْرِهَا ، وَهِيَ تَرُقُّ قُبْنِي ، وَعَلَى ثَغْرِهَا ابْتِسَامَةٌ خَفِيفَةٌ .

ثُمَّ قَالَتْ : لَا أَحْسَبُ « مُودَّةَ هَانِمَ » إِلَّا حَاقِدَةً عَلَيَّ !
وَنَهَضْتُ تَخْطُو فِي خُيَلَاءٍ ، فَطَطْتُ شَفَتِي وَأَنَا أَجِيبُهَا :

لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ !

فَعَادَتْ تَوَاجِهُنِي ، وَمَا زَالَتْ الْقِلَادَةُ بَيْنَ أَنْامِلِهَا تَعْبَثُ بِهَا ،
وَتَقُولُ : إِنَّهَا تَمُوتُ كَمَدًّا . . .

وَتَعَالَتْ مِنْ فَمِهَا ضِحْكَةٌ مَجْلِجَلَةٌ هَازِئَةٌ ، وَقَصَدَتْ إِلَى مِنْصَدَةٍ .

صغيرة ، فتناولت منها مِرْوَحَةً جعلتُ تبسطها وتطويها ، وتنتظر
بأنها تنفخ حصها في دقة ، فشعرتُ بأنني أضيق بما تقول ، ولكنني كضمتُ
شعوري ، وأجبتها غير مكترث : واقعُ الأمر أن « مودّة هانم » تواصل
حياتها المألوفة ، كما هي حالها من قبل .

فاقتربتُ مني ترميني بنظرة باهرة ، ومالتُ على كتفي تداعبني
بِمِرْوَحَتِها ، وقالت : لا تتكلف إخفاء الحقيقة ، فقد شاع أمرها
وذاع . . . أنت لا تحسن الدفاع عنها يا صاح !

وفاجأتني تناطعُ خدي بِمِرْوَحَتِها لطمة خفيفة ، وهي تسترسل في
تضاحكٍ اعتزازٍ واستعلاء .

واستدارتُ ماضيةً عني ، فانتفضتُ أوصالي من حميةٍ وغيظ ،
وسألتُ نفسي : أكانَ قدومي إلى هذا المنزلِ لأسمعَ تلك القوارص ؟
وألفيتني أنهنّ خلفها وأنا أقول : مالكِ ولهذا الكلام ؟

فعدّلتُ بوجهها إلىّ تجيب في تهكم :
معذرةً يا « سامي » . . . لم يكن في علمي أنك حسّاسُ العواطف
نحو « مودّة هانم » إلى هذا الحدّ ! . . .

— إنها زوجُ أخى .

— زوجُ أخيك . . . لولا إشفاق على هذه العجوز لما تركتُ

أخاك يُبْقَى عليها إلى اليوم . . . في مُكْنَتِي أن أجعله يخلعُها من
عِصْمَتِهِ في أيّ وقت أريد !

فصحتُ بها ، وقد تضرّج وجهي غضباً :

حسبك يا « تهناني » ... الزمى حدّك !

فاعتدلتُ قِبَالَتي تضع يديها على كتفي ، ونظرتُ إلى ، ثم قالت

ساخرة : لم هذه الحِدَّة ؟ رَوْقُ دَمَك !

ولطمتُ خدي بِمِرْوَحَتِها لُطْمَةً أَشَدَّ من الأولى ، وهي تقول :

حقاً إنك لقليلُ الذوق في مخاطبتي . . . أنا زوجُ أخيك ، ولي

عليك حقوق !

فوقفتُ حِيالها حيران ، يخونني منطقي ، ولا يسعفني تديري .

وكنتُ أحدثُ نفسي وأنا أحدّق فيها :

ماذا يجب أن أعملَ إزاء هذه الغانيةِ المتمرّدةِ الشَّغُوبِ ؟

وتواقفنا وقتاً نتراشقُ بالنظرات ، وما هي إلا أن رأيتهَا تهبطُ على

فتأخذُ برأسي بين يديها ، وتُشَبِّعُنِي تقبيلًا . . .

١٨

تتابعَتُ الأشهرَ تَسِمُ حَيَاتِي بِهَذَا الْمِسْمِ الْجَدِيدِ ، مِيسَمِ الْعِلَاقَةِ
الْأَثِيمَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ « تَهَانِي » ، فَكُنْتُ أَتَحَوَّلُ أَشْتَاتَ الْحِيلِ لِمُلَاقَاتِهَا
فِي مَنْزِلِهَا بِنَجْوَةٍ مِنْ أَعْيُنِ الرِّقَبَاءِ ، وَكَانَ « الْعِيُوطَى » هَمَزَةً الْوَصْلِ
فِي هَذِهِ الزَّوَرَاتِ الْخَفِيَّةِ ، وَظَلَّتِ الْمَنْظَرَةُ هِيَ الْمُلْتَقَى ، ، أَقْضَى فِيهَا مَعَ
« تَهَانِي » سُوءِ عَاتٍ فِي رِعَايَةِ الشَّيْطَانِ .

مَا أَعْجَبَهُ هَوًى يَرِيطُ بَيْنَ قَلْبَيْنَا : أَنَا وَ « تَهَانِي » فَمَا كَانَتْ
جَلَسَاتِنَا مَحْضَ صَفَاءٍ ، وَلَا خَالِصَ مَتْعَةٍ وَإِنْسَانٍ ، بَلْ لَقَدْ كَانَ يَشُوبُهَا
دَوَمًا ضُرُوبٌ مِنَ الْمَشَاحِنَاتِ ، تُثِيرُهَا « تَهَانِي » بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، وَتُمِضُنِي
فِيهَا بِمَا يَرِنُّحُ أَعْطَافُهَا مِنْ كِبَرٍ وَاسْتِطَالَةٍ وَتَأَمَّرَ .

وَكَانَ شَغْبُهَا عَلَىَّ يَنْتَهِي أَبَدًا بِأَنْ تَعْمِدَ إِلَى مِرْوَحَتِهَا ، فَتَلَطِّمَ بِهَا
وَجْهِي ، حَتَّى لَقَدْ حَانَتْ سَاعَةُ آذَتْنِي لَطَمَتُهَا ، فَوَجَدْتُني أَنْتَزِعَ هَذِهِ
الْمِرْوَحَةَ مِنْ يَدِ « تَهَانِي » وَأَنَا أَقُولُ ثَائِرًا :

إِذَا لَمْ تَكُفِّي عَنْ هَذَا الْعَبَثِ فَإِنِّي أُرِيكَ مَا تَكْرَهِي .

— لَا تَسْتَطِيعُ مَعِيَ شَيْئًا

فَرَأَيْتُنِي أَرْفَعُ الْمِرْوَحَةَ فِي وَجْهِهَا ، أَوْشِكُ أَنْ أَهْوِيََ بِهَا عَلَيْهِ ،

وإذا أنا أنهالُ على المِرْوَحَةِ تمزيقا ، وأمْرِقُ من المنْظَرَةِ مرُوقَ
القَذِيفَةِ في الفضاء .

وأقسمتُ غيرَ مرةٍ ألا تطأُ قدمي هذا المنزلَ الكريه ، وألا
أواصلَ هذه الغانيةَ النكراء ، ولكني كنتُ أحنثُ وأحنثُ ،
وأعرضُ لألوان من المغامرات والأخطار ، لكي أستأنفَ مع
« تهاني » تلك العلاقة المحرَّمة الغبراء .

ولم أستريحُ من مشاغبات المِرْوَحَةِ طويلا ، فاقد كنتُ كلما
مَرَّقْتُهَا لا تلبث أن تبرُّزَ في يدِ « تهاني » على نحوٍ جديد !

ويوماً ضِقتُ بلطمة المِرْوَحَةِ ذُرْعاً ، فما إن مَسَّتْ وجهي ، حتى
انتفضتُ أجتذبها من يدِ « تهاني » ، وهممتُ بأن أمزِّقها شراً ممزَّق ،
كما هو دأبي من قبل . ولكني وجدتني أمتشقها فأضربُ بها وجهَ
« تهاني » مرةً بعد مرةٍ في غَاظَةٍ وعنف ، ورأيتُ « تهاني » قد
رِيعَتْ مما أصابها ، وعاجلتها بهتةٌ ، ثم ما لبثتُ أن ولولتُ وهي تحمي
وجهها من سَقَطَاتِ المِرْوَحَةِ ، وإذا هي تنهاوى ويستبدُّ بها
نَشِيج . . .

ووقفتُ حِيالَهَا كالمذهول ، لا أدري كيف صنعتُ ما صنعتُ ؟
واستمرتُ « تهاني » تَنَشِجُ كأنها طفل يتوجَّع ، فشعرتُ بقلبي تُدَاخِلُهُ

اللَّوْعَة ، وسألتُ نفسي : أكانتُ أستحقُّ منى هذه القسوة ؟
ورفعتُ رأسها إلىّ ، تُصَعِّدُ نحوى نظرة حامية ، وهى تقول :
أُغْرِبُ عن وجهى !

ولحتُ على خَدَّيْهَا أثر الضربات ظاهراً شديداً الإحمرار ، فما
تمالكْتُ أن أقبلتُ عليها ، آخذاً بكتفها ، وهى تَلْوِى كَشْحَهَا عَنِ ،
وتقول : دَعْنِى دَعْنِى !

فتشبَّثْتُ بها ، قائلاً فى لهجة استرضاء :
لم أكنْ أقصد أن أسوءك . . . أخطأتُ . . . لا عليكِ !
وجذبتُها إلى صدرى ، واندفعتُ أنثر قبلاقي على وجهها جُزَافاً .
وترادفتُ الأيام ، تتوالى فيها زوراتى لبيت « تبهانى » . . . وكان
أكبر ما استرعى نظرى أنه منذ ذلك اليوم الذى قسوتُ فيه عليها
اختفتُ المِرْوَحَةُ كُلَّ اختفاء ، ولم يعدْ لها فى حياتنا من أثر !
وجدتُ من أمرى أنى أحسستُ فى علاقتى « تبهانى » نزعة العِزَّةِ
والشُّمُوخ ، وعلى الرغم من أنها قد استكانتُ لذلك الإِثْقَابِ الذى
طُرأ علىّ ، فقد كانتُ فى الحين بعد الحين تعاودها الشراسة والصِّلَف ،
تحاول أن تستردَّ سلطانها المسلوب ، فأرانى قد سارعتُ إلى العُنْفِ
(٨ - شباب)

بها ، غير متورّع عن ضربها ، حتى تَفِيءَ إلى سكينه وانقياد .
وعلى مرّ الأيام كنتُ أزداد تطاولاً عليها ، مع كلفى بها ،
وانجذابى لفتنتها ، فلا تكاد تبدرُ منها هنات حتى ألتبسها سبباً
لا تبارها وتأديبها في غير هواة . بل لقد كنتُ أتجنّى عليها ، وأدبرُ
لها من حباثل المُنَا كدات ما يُوقِعُها تحت طائلة العقاب الصارم . فإذا
بلغتُ من ضربها وإيذاها ما رُبى أحسستُ نشوةً تتسرّب في دمي ،
واعتداداً يملأ أقطارَ نفسى .

و ذات يوم ونحن في شُجون من الأحاديثِ ، ألفتُها تفجّوئى
دونَ مناسبة بقولها : ماذا تعرفُ من أمرِ « فتحية » ؟
فصدم سؤالها نفسى ، ولم أحرّ من جواب ، وجعلتُ أحدجُها
متفحّصاً ، فراحتُ تخطو أمامى في خيلاء ، وفي فمها إلفاقها تنفث
دخانها في غير مبالاة . وواصلتُ حديثها تقول :
« فتحية » ابنة ضابط المدرسة . . .

وأسبلتُ لى جفنها في خبث ولؤم ، وتعمّدتنى بنفثة من دخانها
في قِحة وجراة ، فنهضتُ غضبانَ حميماً أمسك بيدها فأضغطُها وأنا
أقول : ماذا تقصدين بقولك هذا ؟
فجذبتُ يدها من يدى ، وهى تقول :

عجبتُ لك ! . . . أى ضيرٍ علىَّ فى أن أسألك ؟
فرفعتُ يدي أهُمُّ بأن أَلِطَمَهَا ، فرأيتُ وجهها قد اكفهرَ ،
واكتسى سَحْنَةً نَمِرَةً توشك أن تنقضَّ على الفريسة .
وسمعتها تتحدَّأنى بقولها : أأنت تبغى أن تضربنى من أجل
هذه المخلوقة الحقيرة ؟ . . . جَرَّبُ ما تريد !

فهجمتُ عليها ، ولكنها كانت هذه المرة خَصْماً غَلَاباً لا يَلِين
ولا يستكين . ونَشِبَ بيننا شجار شديد ، شَعَرْتُ فيه بأظفار « تهبانى »
كأنها نصال مسنونة تَعِثُ فى وجهى فساداً . . .

وخرج كلانا من المعركة : شَعْرُهُ منفوش منتزع ، وثيابه مهلهلة ،
وجراحه تَدْمَى . وما هى إلا أن سقطنا جميعاً على أديم الأرض محطمين
لا نملك لأنفاسنا تصعيداً ، وجعل كلُّ منا ينظر إلى صاحبه ، فىرى
فيه صورة مخلوق شريد نبذته الحياة !

ولبثنا نتبادل النظرات فى صمت ، وأخذت « تهبانى » تمسح
جبينها بيدها ، ثم رفعت رأسها ، تدور ببصرها يَمَنَةً وَيَسْرَةً ،
فَحَزَرْتُ أنها تبحث عن منديلها ، فأخرجت منديلى أقربَّه إليها ، فإذا
هى تدفع يدي عنها ، فتدانيتُ منها على مَهَل ، وجلست بجانبها أمسح
وجهها فى رِفق ، ثم أمسكتُ بيدها وأنهاضتها أَجْلِسُهَا على المَتَكِ ،

ثم قصدتُ إلى زجاجة العطر ، فعُدْتُ إليها أنشِئُها وأنضحُ وجهها ،
ثم انثَيتُ أصنعُ بنفسى ما صنعتُ بها ، وأخذتُ مجلسى بجانبها ،
وأرَحْتُ كَتفى على رأسها ، ولبثُ الأطفُ شعرها ، فلمحتُها تُرْخى
جفنها ، وأنفِيتُنِ أقولُ كأنى أحدثُ نفسى :

ألا يَمكنُ أن تَظَلَّ عَلاقَتُنا فى صَفاء ؟ وألّا تُشَوِّبُها تلكُ الأَ كدار ؟
وامتدَّ بَيننا صَمتٌ ، ولاحظتُ أن « تَهانى » قد أخذتُها سِنَّة
من النَوم ، ورأسُها يَتوسَّدُ كَتفى !

ولما قُفِلْتُ إلى مَنزلى هَذه الأُمُسيَّة ، أَصَفَحْتُ ما دار فى زورِقى
« لَتهانى » ، فبرزتُ لى « فَتَحية » تَحُلُّ تَفكِيرى كُلَّهُ ، وازدَحتُ
ذِكرَياتِها تَسُدُّ على كُلِّ مَنفَذٍ ، ولاح لى طَيفُها يَتَنَقَّلُ فى حَجَرِتى
مُخْتَلَفَ الأَوضاعِ ، فَيَبِعثُ فى ذا كَرتى مَشاهدَ حَياتِها مَعى فىما سَلَفَ
من أَيامى .

وَوَظَلَّيتُ مَهمومَ النَفسِ ، مُزَعَّجَ البَالِ بِهَذه المَشاهدِ والأَطِيفِ ،
فلم يَهْدَأْ لى خَاطِرٌ إلّا بَعدَ أن بَنيتُ عَزمى على أن أَعْمَلَ شَئِئاً من أَجَلِ
« فَتَحية » شَئِئاً حَاسِماً يَنقُذُها مِمَّا تَعاينِهُ !

لا بَدَّ أن أبدأَ ذلكَ من غدى . . .

وخلوتُ « بالعيوطى » أتقدِّمُ إليه بما أريدُ ، وطلبتُ منه أن

يسأل عن مقام « فتحية » في الضيعة التي حلت إليها ، وأن يستقصى أخبارها كل استقصاء . فنهى إلى بعد أيام أن زوجها شيخا خفرا انتقل بها إلى بلدة الأصيل ، وأنه لا علم لأحد بشيء من أخبارها أو أخباره .

فقرّ عزمي على أن أواصل البحث ، وأتابع التحري والتفتيش ، حتى أبلغ مأربي من التعرف والتحقيق ، تمهيدا لما أقوم به من عمل حاسم في سبيل « فتحية » .
ولكن توالى الغداة والعشي ، وأنا لا أجدني قد أبرمتُ فتيلًا !

١٩

وأذكر أني في إحدى زوراتي « لتهاني » وهي على صدرى أطوقها بذراعي ، وأعينا موصولة النظرات ، وجدتني جياش النفس ، ألهب افتنانا بتلك الإنسانية الخلابة التي أستمع بها أروع استمتاع .
فأهويت عليها أقبلتها وأضمها ، كأني أخشى أن تضيع من يدي ، وسرعان ما همهمت أقول : أيقبلك أخى كثيرا ؟

فلاحتُ على ثغرها بَسْمَة ، وأومأتُ برأسها علامةَ الإيجاب ،
فشددتُ عليها قائلاً : أنتِ تكذِيبين .

فردتُ علىَّ تقول : وماذا أ كذب ؟ لقد أخبرتكِ بالحقيقة !
فقلتُ لها مَغِيظاً : ماذا عسى أن يكونَ من رجل هَدَمَتْهُ السنون ،
وألحَّ عليه الضعف ؟

فتعالتُ ضِحكتها ، وتابعتُ قولي لها :

إنه يحسن الثأوب والتمطى ، فأما غير ذلك فلا . . .

وأغمضتُ « تهناني » عينيها ، وهي تدنني مني ففها ، فأخذتُ
شفتيها بين شفتيَّ ، وجعلتُ أتفننُ في تقبيحها وأنا أقول :
أخى لا يستطيع أن يقبلك على هذا النحو . . . لا أسمحُ لك أن
يقربَكَ أحدٌ سواي . . . لا أسمحُ لك بأن يمسَّ فمكِ إلا في !

هَمْتُ « يتهاني » أشدَّ هُيام ، فلم أعدُ أطيق عنها بُعداً ، وكثيراً
ما كنتُ أقضى أياماً في دارها ، حبيسَ تلك المنظرة ، فأقاسمُ أخى
حياته : مَطْعَمَهُ ومَشْرَبَهُ وملبسه ، فضلاً عن أنى أقاسمه زوجته ،
وذلك كله دون أن يعلم من أمره شيئاً قلَّ أو كثير !

ولا أدري ما سرُّ تلك النشوة التي كانت تهزُّني وأنا في مَحْبِسِي ،

حين كنتُ أحسُّ بأن أخى على مقربة منى ، يدبُّ في أرجاء البيت ديباً . . .

ما كُنْه تلك العاطفة الشاذة التي أخذت تنمو نموها بين ضلوعى نحو أخى ؟

ماذا لا أفتأُ أمعن التفكير فيه ، وقلبي ترعاه نارٌ تتلظى ؟

لقد شعرتُ على مرّ الأيام بأن تلك النزعة الشاذة تتجسّم وتتضخم ،
وأنها أشبه ما تكون بوحش مفترس يتنزى بين ضلوعى متحفراً
لا نكالك ووثاب .

فأما الدنيا فى عيني فقد اكتست أمامى صبغة غائمة قائمة ، ولطاماً
وجدتني كأنى أسمع وساوس نفسى تحدثنى بأشياء تتمثل فيها الفجيرة
والرهب .

ومرة سَنَحَ لى خاطر مفزّع ، فأردتُ أن أفضى به إلى « العيوطى »
ليعيننى على إنفاذه ، وخرجتُ أبحث عنه ، وأنا أشمُّ ريح الجريمة
يزحمُ خياشيمى !

ولما لقيتُ « العيوطى » انتبذتُ به مكاناً قصياً فى دارى ، وهممتُ
بأن أناجيّه بذاتِ نفسى ، ولكن مَلَكَتْنِي رِعْدَةٌ ، وخيّلَ إلى أن
« العيوطى » قد انقلب شُرطيّاً يحدّجنى بنظرة اتهام . . . وعن كُشْب

منه جثة يشخب دمها غزيرا .

فما عتمت أن أدبرت عن « العيوطى » حيث الخطا ، وصعدت
إلى حجرتى ، وانكفأت على فراشى ملثات العقل ، محموم الجسد ،
أهذى بقولى :

مالى ولأخى ؟ ما مددت إليه يدي بسوء . إني من دمه برىء !
ورقدت فى حجرتى يومين صريع التهافت والحمول ، تلازم فراشى
زوج أخى ، وتتعهدنى بألوان من الرعاية والعطف ، ولا تفتأ تطيب
الحجرة بالبخور الزكى ...

وسمعتها تقول ، وهى تضغط يدي :

ألا تغير من سلوكك يا « سامى » ؟ ... ألا تهتدى يا بُنى ؟
إنى أخشى عليك مغبة ذلك الضلال !

وبعد أن تماثلت من تلك الوعكة ، مضيت إلى « تهانى »
أصل ما انقطع من علاقتى بها . فأقبلت على مشبوبة الشغف ، بالغة
الترحاب ، ترمى بنفسها بين يدي ، فأردت أن أستجيب لها ، وأن
أبارى عاطفتها ، وإذا بغشاوة قد انسدت بينى وبينها ، تنساب عليها
دماء ، وعلى صفحتها يتخايل وجه أخى جاحظ العين ، فاغر الفم ،
سليب الحياة ، وكأنه يؤمئ إلى إيماءة اتهام . فارتدت خطوة فى

فزَع واضطراب ، وأسندتُ إلى المتكأِ جسمي المتداعِي ، والعرق
يرفضُ من جبيني ...

وسمعتُ تهاني تقول : ما بك ؟

فأجبتها زائغَ النظرات :

يبدو لي أنني ما زلتُ موعوكا ، لم أسترجعُ صحتي بعد ...
فأسعفتُني ببعض المنعشات ، وبذلتُ جهدها في التسرية عني .
وأدهشني من شأني أن هذه الظاهرة الجديدة كانت تعتريني في
أغلب زياراتي « لتهاني » ، فلم أكنُ أجدُ من نفسي ذلك الإقبال الذي
عهدتُه نحوها . إذا جلستُ إليها أراني قد تبدَّ حسِّي ، وانغلقتُ نفسي ،
ولبثتُ واجهاً لا أنبس ، فتنظر إليَّ « تهاني » وقد رابها أمرى ، ثم
تهزُّني في شدة ، وهي تقول : أفق ... ماذا جرى لك ؟

— لا شيء !

— لقد خبا حُبُّك لي ...

فتبدو علي في ابتسامة كابية ، وأقولُ في غير اكتراث :
حبي لك على حاله ...

فتردُّ علي بقولها : صارحني ... إنك تكرهني !

— أقسمُ لك .

وأجدُ لساني قد اُعْتُقِلَ ، وريقى قد نَضَبَ ، فأنظر إلى « تهانى »
وقد مالَها النشيج ، ولكنى أحسّ كَأَنى مُقَيَّد لا أستطيع البَراحَ من
مكاني ، لأُكفِكَ دمعَها الهامى !

٢٠

صَحَوْتُ صَبَحَ يَوْمَ يَوْزُ سَمْعَى نُوَاحٌ وَعَوِيلٌ . . .
واستبانَ لى أن أرجاء البيت كله تتجاوب بهذه الأصوات
الباكية .

فَقَفَرْتُ من مضجعى وقلبي يَرَجُفُ ، وخرجت عادياً ، فرأيتُ
« أمَّ خضير » تعترض طريقى وهى تضرب صدرها ، ناعيةً
إلى أخى .

فَجَمَدَتْ قَدمايَ فى موقفى ، واسترسلتُ المرأةُ تذكُرُ أن أخى
وُجِدَ فى فراشه مَيِّتاً لا حَرَآكَ به ، فقلتُ لها متلعثما :

كيف ؟ لقد لمحتُه بعينى رأسى البارحة فى حجرة « مودّة هانم »
يجالسها ويتحدّث إليها ، موفورَ العافية !

— جاء أجله يا بُنَيَّ !

وتركتُ المرأةَ ماضياً إلى مَخْدَعِ أخى ، فوجدتُ البابَ يتجمّعُ عليه الخدم فى ضجةٍ وتصايح ، فشقتُ لى بينهم طريقاً ، ودخلتُ الحجرةَ ، فألقيتُ « مودّةَ هانم » بجانب السرير تنحب ، وشاهدتُ أخى ممدّداً مُسَجِّى ، فطفرَ الدمعُ من مآقٍ ، وتقدمتُ من مكانه أحسِرَ عن رأسه الملاءةَ البيضاء . فظهرَ وجهه شديد الامتقاع ، بالغ النحول . ورأيتنى آخذ بيده ، فأطبعَ عليها قُبلةً وداع ، قُبلةً حانيةً يتمثلُ فيها الندم والاستغفار !

وجلستُ بجوار « مودّةَ هانم » صامتاً ، مطأطئ الرأس ، أسبح فى ذِكرَيَاتِ الأمس ، وأخيلةِ الغد .

وأحيينا ليلَى المآتم ، وأخذ المنزلُ يستردُّ مألوفَ أحواله من قبل ، وازدادتُ أرملةً أخى من عزلة واعتكاف ، فكنتُ أقصِدُ إليها أقضى معها أطولَ الأوقات ، محاولاً ما وسعنى أن أثبّت فى نفسها رَوْحَ العزاء والسَّلَوى .

ولقد كان أكثرُ حديثها يدورُ حولَ أخى ، حولَ ذِكرَيَاتِهِ وسوالفِ أحداثِهِ ، فكانت تُطَنِّبُ فى الإشادة به ، وفى التمدُّح بخصاله ، وفى

الرجوع على نفسها باللائمة، إذ أساءت فهم مقاصده، وتقدير الملائسات التي أحاطت به .

وكثيراً ما كانت تؤكّد أن طيبة نفسه وسلامة طويته أمر لا يرقى إليه شك ، وهذه الطيبة والسلامة هي التي ورطته في مأزق تلك الفتاة اللعوب ، تلك الأفعى التي تفتّر سماً . . .

وفي إحدى جلساتها رنت إلى ، وهي تسترسل في الحديث عن ما تراخى ، وقالت :

لا تحسبن يا « سامي » أن أخاك كان يطوى لك بغضاً . . .
إنه كان بك شقيقاً ، وعلى هنائك حريصاً . لقد طالما كشف لي عن خبيثة نفسه نحوك ، فعرفت مبلغ عطفه عليك ، وبرّه بك . فأما ما كنت تشهد من ظاهر جفوته ، فذلك طبعه الذي لم يكن له عنه تحييص .
ونمضت تتحامل على نفسها ، وأخذت بيدي ، وهي تقول :
تعال معي ، فقد حان الوقت الذي أطلعك فيه على سرّ يتعلق بك .

وسارت بي إلى خزانة في ركن من الحجرة ، وفتحتها ، وأخرجت منها صندوقاً كشفت عنه الغطاء ، فإذا هو يحوى غوالي الطرف والألطف . وقالت لي وهي تريني إياها واحدة واحدة :

تلك من نصيبك يا « سامي » ... إنها وصية أخيك إلى أن
أحفظها ، لتكون لك ولعروسك معك .
وسكنت قليلا ، ثم استأنفت تقول :

كان أخوك أرغب ما يكون في أن يختار لك زوجا تليق بك ، زوجا
من أشرف البيوتات ، تكون لك شريكة العمر ، فتسعد بها طول الحياة !

٢١

ظلمت حليف البيت أياما ، على صدرى يجثم عبء فادح ، وفي
رأسي معركة حامية تصطرع فيها أشقات الخواطر والذكريات ، وأمام
عيني طيف أخى مسجى على سرير الموت ، وأنا راكع ألثم يمينه .
ليت أخى يبعث الآن لحظة واحدة ، لأبته ذات نفسى ، وأجاهره
بما أشعر به من ندم ، وأستغفره مما كان يساور خواطرى نحوه من نزعات
الشر .

ليت يبعث الآن لحظة واحدة ، أسمع فيها من فمه كلمة الرضا
والغفران !

ما أحوَجَنِي إلى نَسَمَةٍ من الراحة والإطمئنان تَرِفُ على ضميري
المكروب ...

ووجدتني كلما ذكرتُ «تهاني» لاحقني شعورُ اشمئزاز وامتعاض ،
فلا أستطيعُ أن أتصورَ أني مُلاقٍها يوماً ، وأنى مستأنفٌ معها أىَّ علاقة
من علاقات الودِّ مُباحاً أو غيرَ مباح !

ولما طال عنها مَغِيبِي ، أخذتُ تبعثُ بالرسلِ تبعاعاً يحملون كتبها
إليَّ ، فكنتُ أقرأ بعضها بادئ بدء ، وأنا أبتسم في مرارة وألم ، ثم
أصبحتُ لا أتسامها إلا لأمرِّقها في بلادةٍ وإهمال .

وحان يومُ أخبرتُ فيه «تهاني» إلى اليأس مني ، فكفَّتْ رسائلها
عني ، وانقضتْ على ذلك أسابيعُ لا يطرأُ علىَّ من أخبارها شيءٌ قلَّ
أو كثر ، ولا تحدِّثني نفسي بأن أسأل عنها أحداً من قريب أو بعيد .

ورآنَ على البيت طابعُ أقتمٍ عابسٍ يزيدُه مرضُ أرملةٍ أختي من
قتامة وعبوس ، فقد أقعدتها العلةُ أشهراً تلوَ أشهر ، وهي تتداعى
وتضمحلُّ ، دانيةٌ من القضاء المحتوم .

وتلقيتُ نعيها ذاتَ ليلة ، فملاَّتْ نفسي حسرةً مكبوتةً ، وأحسستُ
وأنا أشيعها إلى مثواها الأخير أني أشيع مَلاذَ طمأنينتي ، وأفقدُ ينبوعاً
من الحنوِّ كان لي عذباً سائغاً .

وخلتُ لى الدار ، فبقيتُ فيها فرداً أحسُّ بأنها قاعٌ صنف
يصفّر فيه الخراب . فإذا جنَّ الليل ، وأوتيتُ إلى مخدعي ، دهمتني
وساوسُ وأوهام ، ودهانى رُعب يشيعُ فى نفسى ، ويُطيلُ أرقى ، فلا
أتمالك إلا أن أدعو « أم خضير » إلى المبيت فى حجرتى ، تردُّ عني
غائلة الوحشة والإنفراد .

ولبتُ زمناً أحيا فى ذلك البيت العبّوس ، وأعانى ما يبعثه فى
نفسى من ذكريات أليمة أحملها على كاهلى هموماً ثقالاً .

ويوماً كنتُ أترددُ فى مسالك الحديقة ، فشهدتُ « العيوطى »
مقبلاً علىّ ، وجعل يكرّر على مسمعى أحاديثه التى يعالج بها أن يسرّى
عنى . ثم أمسك عن الكلام لحظات ، وحدّق فى وجهى ، وهو
يقول : لماذا أنت مسترسل فى هذه الحياة الكئيبة ؟ . . . تعال الليلة
نتفرج قليلاً . . . لدى شىء ممتع أريد أن أطرّفك به !

... عاودتُ حياة اللهو والعبث ، بعد أن فطمتُ نفسى عنها طوال
الشهور . وأصبحَ هذا « العيوطى » يتولّى لى تمهيد السبيل ، بعد أن
أمسى من رؤّاده العتاة !

واسترعى انتباهى ما عرا ذلك القزم العظيم من تغير ، فلقد تضلّع
بعد هزال ، وانبسط جادة وجهه بعد أن كانت تعيث فيها الأخاديد

واعتلى بهامته في مشيته يزهو ويختال ، وارتدى ثيابه منتقاة ساطعة
الألوان ، وحلّى أصابعه بالخواثيم تَبْرِقُ فيها كبارُ الفصوص .

وطالما لَحْتُهُ في المَشْرَبِ القائم على رأسِ الشارع ، يَحْتَذِبُ أنفاس
« النارجية » في تنفُّخ واعتداد .

وليث « العيوطى » يرسم لى خُطَّةَ الجولات الليلية بضعة أشهر ،
وأنا مسترسل في هذا اللون من المتعة ، كأنى في زورقٍ طليقٍ يدفعُ به
التَّيَّارُ ، دون أن يكونَ منى ما يعوقُ سيره ، أو يدير دِفَّتَه يَمْنَةً
أو يَسْرَةً .

وفى إحدى تلك السهرات الهائلة ، وجدتُ « العيوطى » يحوسُّ بى
خلال الحىِّ الذى يقوم فيه منزل « الحاجة فاطمة » ، فخطر ببالى أن
أقصده ، وكنتُ قد انقطعتُ عن زيارته منذ أمد بعيد ، منذ انقطعتُ
أسباب التواصلِ بينى وبين صديقى « الزغبى » و « خيرى » ، فلم أعدُ
أعرف لهما من أثر .

وسرعان ما بلغتُ الدار ، فإذا هى هى : بناء عتيق يتكاثفُ
عليه البلى . فثلتُ هنيهةً قبالةَ أسرِّح فيه الطرف ، وانبعثتُ في
خاطرى ذكرى اليوم الذى عرفت فيه بابه أول مرة . . . وتشابكتُ

الخواطر ، وتداعتُ الذكريات ، فإذا أنا أتصفح أحداث أيام الصبا
في خطفات بارقة .

وأخذتُ أدقّ الباب بذلك الأسلوب المعهود لأهل تلك الدار ،
فما هي إلا أن أطلّ الوجه المألوف من الطاق ، وما هي إلا أن صرّ
الباب يتزحزح ، وما هي إلا أن بدتْ ذُبالة الشمعة تُجاهد أن تجنّبنا
عقبات الطريق ، وما هي إلا أن بلغتْ أسماءنا جَلْبَةَ المعازف وأهازيجُ
الغناء ...

واحتوتُنَا أخيراً تلك القاعةُ الفسيحةُ فيها أجناسٌ من خلق الله ،
يتجلى في جانبٍ منها عرشُ « الحاجة فاطمة » وهي تعمُر أركانَه بادنةٌ
متلفةٌ بنحمارها الأبيض الناصع في مَهَابَةٍ وجلال .

وما إن رأَتْنِي قادمًا عليها ، حتى ردّدتْ كلماتِها الخالدة :

ما شاء الله . . . ما شاء الله !

ثم ما عثمتُ أن نادَتْ غلاميًا قائلة :

انظرْ ماذا يطلبُ ضيفُنَا « البك » .

وأطالتُ في وجهي نظرَها تقول :

ماذا ألهاكَ عنا؟ ... طالتْ غيبتُك ، وَحَرَ مُتَمَنَّا أَنَسْكَ !

وتَنَازَعْنَا الأحاديثَ بيننا ، على حينِ كانت « الحاجة فاطمة »
تجتذب أنفاسَ « النارجيلة » في نشوة واستمتاع .

وبعد قليل نهضتُ إلى سِرْبٍ من الغواني أجالسهن ، وأقارعهن
كؤوس الشراب ، وانبعثَ غير بعيدٍ صوتٌ ما كدتُ أسمعُه حتى
اهتزتُ أوصالي ، فتطلعتُ أعرِّف : لمنِ الصوت ؟ فواجهتُ امرأةً
تبارحُ إحدى الحجَر ، فوجدتُني لا أملكُ إلا أن أنهضَ صَوْبَهَا ،
وقلبي يَرَجُفُ ، وتَبَيَّنَتْنِي على الفور ، وأحسستُ بأنَّها تُوشِكُ
أن تُصعقَ ، ولكنها ما لبثتُ أن تمالكتُ ، وأطلقتُ من فمها
ضحكةً عاليةً مفتعلةً ، وسمعتها تقول في صوتٍ أبحَّ :

أنتَ هنا يا « سامي » ؟ . . .

وتدانيتُ من « تهاى » صامتاً تعتصرُ الحسرةَ قابي ، ثم أخذتُ
بيدها الألفها ، وراعني ما لحقها من تغير : عين غائرة زادها التكحل
من بشاعة ، ووجه شاحب حارتُ في أمره ضروب الطلاء والمسايق ،
وثوب شَفِيفٍ يحاول بما فيه من برقشة رخيصة ملوَّنة أن يدلَّ على
تَرَفٍ مكذوب . وَزَ كَمَتْنِي هَبَّةٌ من رِيحِ الخمرِ كانت تنبعثُ منها في
حدَّةٍ واشتداد .

وقادتني « تهاى » إلى حجرتها ، فألفيتها أمشاجاً مهوَّشةً من

ثياب وأثاث ومتاع ، مغمورةً بأخلاق من الروائح متنافرةٍ تبعث على الغثيات .

وقالت لى وهى تجتلب ابتسامة كريمة :

مالك تنظر إلى الحجرة هذه النظرات ؟ ألا ترؤوقك ؟

— جميلة !

فارتفعت ضحكتها ، وهى تقول : أعترف لك بأنها أقلُّ جمالا من منظرتنا القديمة ... منظرتنا التى قضينا فيها أيامنا الخلوّة !

ثم رأيتها تقبل على قائلة فى تحنن :

ألا تذكر أيامنا الخوالى ؟ ألا تذكر ؟

— عيذاً مضى يا « تهبانى » !

— هذا شأن الرجال . . . لا يبقى لهم عهد ، ولا يدوم لهم وفاء !

— أكان ممكناً أن تظلّ علاقتنا لا ينقطع لها أمد ؟

ورأيت وجهها يتقلص ، وإذا هى تقول متشاحمة مزهوّة :

لا تحسبن أنى أريدك على شيء . . . إن عليّة القوم يخطبون ودى

فوجاً بعد فوج . . .

واندفعت تؤكّد هذا المعنى بألوان من التعبير ، وأشارت إلى

ما حولها من حُطام المتاع ، وهى تقول :

انظر إلى هذا كله . . . إنه هدايا الأصدقاء والخلائق !
وبينما هى فى حَمِيَّة وحماسة تُطَنِّب وتُشِيد ، وتُبْدِي وتُعِيد ،
رأيتها تنفجر دَفْعَةً واحدة فى بكاء مَرِير ، وارتمت على صدرى متشبثةً
بى ، فلاطفتها مُشَفِّقا ، ولكنى أحسستُ بوِطْأَة جَسَدِها على ، كأنها
ثِقَلٌ من الهم لا قِبَلَ لى باحتماله ، فذهبتُ بها إلى المَتَكِّاء ، وأجلستُها
بجوارى ، وهى فى بكائها تتماذى ، وأنا لا أفتأ أواسيها جَهْدِي .

وقامتُ إلى مِنْضِدَّة الزينة ، تسوَّى من شعرها وتتعطر ، ثم
أفرغتُ كأساً من الخمر فى فيها ، وأترعتُ كأساً عادتُ بها إلى وهى
تقول : ما أحلى اللقاء بعد طولِ بَعَاد . . . ما أجمل أن نتَهَيَّرَ هذه
الفرصة لنستعيدَ حياة المتعة والبهجة والسِراح !

فأخذتُ الكأس من يدها ، ووضعتها جانباً ، لم أقربُ منها
جُرْعَةً . ورأيتُ « تهانى » تهبطُ علىَّ تقبِّلنى قبلةً شعرتُ كأنها لدَغَةٌ
لعبان . فزحزحتها عنى فى رِفْق ، وقلتُ وأنا أنتزع الكلمات انتزاعاً :
أشكر لك لطفك يا « تهانى » . . .

— أَلستَ تحبُّنى يا « سامى » ؟

— وهل فى ذلك شك ؟

ونَهَضْتُ من ساعتي ، وأنا أَتَابِعُ قولي :
سأزورك في فرصة قريبة ... قريبة جداً .
وهمتُ بالخروج من الباب ، ولكنني وجدتُني أقفُ لحظةً
أُخْرِجُ فيها من جيبِي ما تيسَّر من المال ، وما لبثتُ أن تركته أمامها
على منضدة الزينة ، ومَرَقْتُ من الحجرة ماضياً إلى الطريق ، عجلانَ
الخطأ ، كَأَنِّي أَفْرُ من الجحيم ...
ولما كنتُ على رأس الشارع ، أَلْقَيْتُ على بَيْتِ « الحاجة فاطمة »
نظرةً كانت وداعاً إلى الأبد !

٢٢

دارت بي حياةُ اللهو في معملها بين خمر ونساء ، وانقلبَ يومِي
رأساً على عَقِبٍ ، فأصبحَ نهاري نوماً وخمولا ، وأمسى ليلى سهرًا
وعربدة !

وأدركتُني ذَهَالَةٌ عن أمرِي ، فكنتُ في ذلك التَّيَّارِ الجارف ،
لا أبالِي إلى أَيِّ مصير أنا مَسْؤُوق .

ويوماً دخل على « العيوطى » وأنا فى مَخْدَعى قُبَيْلَ الظَّهِيرِ ،
و بيده بطاقة كبيرة مزخرفة ، وهو يقول وفمه تملؤه ابتسامة ضخمة :
هذه بُشْرَى خير يا سيدى . . . هاك دعوة فرح جاءك بها
البريدُ الساعة !

فتناولات البطاقة وأنا ألقبها بين يدى ، ثم فضضت غلافها ،
وجعلت أقرأ ، ثم رفعت صوتى بجملة الختام ، مواجهاً « العيوطى »
قائلاً : والعاقبة عندكم فى المسرات .

فصاح قائلاً : ومتى نَحْطِى بذلك الفرح ؟
— أتريد أن ترحل إلى الصعيد من أجل عُرْس ؟
— حفلات الأفراح جديرة أن نرحل من أجلها إلى آخر
الدنيا . . .

— إذن فأعد نفسك للسفر بعد غد .
ونَهَضْتُ من فراشى ، والبطاقة بين يدى ، أعيدُ قراءتها ، يعلم
فى ابتسام .

ثم دنوتُ من « العيوطى » أضرب كتفه قائلاً :
أتعلمُ مَنْ الداعى ؟
— لا يعلم الغيب إلا الله !

— أأخذ أقرانى فى المدرسة . . . انقطعت بيننا الصلة منذ سنين

طوال !

ثم أخذت أذرعُ الحجرة ، وأنا أهمهم : « خيرى » . . .
« خيرى » . . . ترى ماذا أخطر اسمى بياله بعد هذه الغيبة الممدودة ؟
ها هو ذا بينى بيتاً وينشئ أسرة . من ؟ ذلك الصبي الذى لم يكن
يُحسِنُ إلا قرَضَ أظفاره . . . لله فى خلقه شئون !

وأبرقتُ إلى « خيرى » أعلمه بموعد قدومى عليه ، وأقلنى القطار ،
أنا و « العيوطى » فى مدخل الليل ، فبلغنا محطة الوصول قبيل السَّحَرِ ،
وكان فى استقبالنا جَمْعٌ من الأعوان والأتباع ، يحملون المصاييح ،
ويغمروننا بالحفاوة متهللين متصايحين .

واحتوتنا مركبة سارت بنا تحفُّ بها المطايا عليها المشاعلُ تفسحُ
لنا الطريق .

وأخذ من نفسى ذلك الرُّكْبُ الفخم ، فملت على « العيوطى »
منتشياً أقول له :

ما أشبه ركبتنا هذا بموكب العُرس . لك أن تحسب نفسك عروساً !
وانطلقت المركبة تشقُّ غبشَ الليل ، والطبيعة من حولى بالغة
الهدوء ، وأنسام السَّحَرِ الرطبة تصافح وجهى فتبعث فى انتعاشاً وبهجة ،

وتشير في نفسى الشعور بأنى قد انتقلتُ إلى دنيا جديدة لا عهدَ لى بها
من قبل .

وانسرحَ بى الفكر فى آفاقِ رحابِ من الأخيصة والخواطر ، وعلى
الرغم من بُعدِ الشَّقة ، وعناء الطريق ، فإنى لم أستشعرُ شيئاً من جهد
أو ملالة . وكنتُ أتبين نور الفجر ، وهو يُولدُ خيطاً أبيض ، ثم لا يلبث
أن ينتشر فى عُرْضِ الأفقِ لَمَّا حَا يحمل إلى الكون رسالة اليومِ
الجديد ...

وأقبلنا على الدار ، تتجلى بما عليها من أضواء ساطعة ، كأنما تمُدُّ
فى عمر الليل ، وتستنهزى بِمَطْلَعِ الفجر !
وما كدتُ أبرح المركبة حتى وجدتنى بين ذراعين تلتفآن على ،
والقبلات تتناثر على وجهى يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وكلماتُ الترحيب تتوالى
وتتكرَّر ، وإذا أنا آخذُ بيد « خيرى » أهرَّها فى تشوق وتودد ، قائلاً :
مباركُ لك الزواج . ذلك هو اليومُ الذى كنا نتمنَّاه ... أن نراك
فى فرحك ، وأن نسعدَ بك ، وأن ...

فقاطعنى « خيرى » يومئذٍ إلى شخصٍ بجانبه ، وهو يقول :
دَعْ عنك هذا الكلام ، وانظر ... أتعرفُ مَنْ ذاك ؟

فَنظَرْتُ أَتَعَرَّفُهُ ، فَأَلْفَيْتَنِي أَمَامَ رَجُلٍ عَرِيضِ الْمَنَكِبِينَ ، مَجْنَحِ
الْشَّارِبِينَ ، يَرْتَدِي الْجُلُبَابَ الصُّوفِيَّ السَّابِغَ ، فَوَقَفْتُ أَتَفَرَّسُ فِيهِ
لَحْظَةً ، وَقُلْتُ : أُمَمَكُنْ هَذَا ؟

فَمَا لَبِثَ الرَّجُلُ أَنْ صَاحَ بِي :

أَنْسَيْتَ « الزَّغْبِي » يَا وَلَدُ يَا « سَامِي » ؟

وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ وَجَدْتَنِي فِي زُوبَعَةٍ مِنْ تَرْحِيبِهِ بِي ، وَإِقْبَالِهِ عَلَيَّ ،
وَاحْتِضَانِهِ إِيَّايَ ، وَكَأَنِّي عُودٌ مِنْ أَعْوَادِ الْقَصَبِ دَارَتْ عَلَيْهِ مِعْصَرَةٌ
عَاتِيَةٌ !

وَسِرْتُ بَيْنَ « الزَّغْبِي » وَ « خَيْرِي » نَدْخُلُ الدَّارَ ، وَالنَّاسُ
جَوَالِينَا زَرَافَاتَ ، فَرَأَيْتُ « الْعِيُوطِي » تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضَ أَمَامَنَا يَفْسَحُ
الطَّرِيقَ ، وَيَقُولُ عَالِي الصَّوْتِ ، مَتَطَاوَلَا بِقَامَتِهِ : مَا أَحَلَّى اجْتِمَاعَ الشَّمْلِ
بَيْنَ الْأَحْبَابِ ، وَلَتَحْيَى الْأَفْرَاحِ وَاللَّيَالَى الْمَلَّاحِ !

وَاحْتَوَتْنَا مَنَظَرَةُ الضُّيُوفِ ، وَجَاسَتْ مَعَ صَدِيقِي صِبَايَ نَتَطَارَحُ
الْأَحَادِيثَ وَنَتَذَاكُرُ تَصَارِيفَ الزَّمَنِ ، فَعَامَتُ بِأَنَّ « خَيْرِي » الْآنَ
قَدْ تَمَوَّلَ وَأَثْرَى ، وَصَارَتْ لَهُ ضَيْعَةٌ يَحْسُنُ تَدْيِيرُهَا وَتَنْمِيرُهَا . فَأَمَّا
« الزَّغْبِي » فَأَمْسَى مِنْ مَلُوكِ التَّجَارَةِ فِي الْحُبُوبِ مِنْ قَمْحٍ وَعَدَسٍ وَفُؤُلٍ ،
وَقَدْ تَزَوَّجَ وَأَعْقَبَ . وَكَأَنَّ الصَّدِيقَيْنِ يَقِيمُ فِي الصَّعِيدِ ، وَكَلَاهُمَا عَلَى مَقَرَّةٍ

من صاحبه ، وهما يتبادلان المؤازرة والعون ، وينعمان بحياة هادئة طيبة
في طريق مستقيم . . .

وفجأة رأيتُ « الزغبى » يميل على قائلا :

وأنت يا « سامى » . . . ماذا فعل الله بك ؟

خففتُ من بصرى ، وغصصتُ بريقى ، وعييتُ عن الجواب ،
فلكزنى بيده مداعباً يقول :

ماذا وراءك ؟ هَلَّا أخبرتنا بشأنك ؟

فرفعتُ بصرى إليه ساهماً أهمهم : حياتى على ما هى عليه !

وأنقذنى مما أنا فيه من حَرَجِ قدوم أحد أعوان البيت ، وهو يحمل
طفلاً ما زال فى عينيه خدر النوم ، والطفل يتصايح طالباً أباه ، فنهض
« الزغبى » يتلقاه ، ويعود به مطيئاً خاطره ، مربتاً كتفه ، وما هى
إلا أن دفع به إلى وهو يقول له : اذهب فقبل يد عمك يا ولد . . .

وانبرى « الزغبى » يُفِيضُ فى الحديث عن طفله وما يبيديه من
نشاط ، وما يأتى به من مشاغبات ، فقلت له :

الولد سرُّ أبيه . . . ومن يشابه أبه فما ظم !

وضججنا بالضحك جميعاً .

ولبثَ الطفل بين يدي ، أهدق فيه ، وأنا أستمع إلى حديث أبيه .

وسَنَحْ بِيَالِي خَاطِرَ مَفَاجِيءٍ ، فَقَلْتُ أَنَا جِي نَفْسِي :
ماذا كَانَ يَبْلُغُ طِفْلِي الْآنَ مِنَ الْعَمْرِ ، لَوْ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ لِي طِفْلٌ ؟
وَنَجَمَتُ عَلَى الْفُورِ فِي خَاطِرِي صُورَةَ « فَتْحِيَّة » وَوَجْهِي الْوَدِيعِ
تَكْسُوهُ مَسْحَةُ الْيَأْسِ ، وَعَيْنُهَا تَتَحَيَّرُ فِيهَا الدَّمُوعُ !
فَعَاجَلْتَنِي انْتِفَاضَةُ تَفْطَرٍ لَهَا قَلْبِي مِنْ تَحَسُّرٍ وَالتِّيَاعِ ، وَظَلِمَتُ غَيْرَ
قَلِيلٍ أَعَانِي الْكَمَدُ ، وَلَكِنِّي مَا زِلْتُ بِنَفْسِي حَتَّى تَمَالَكْتُ ، خَشْيَةً
أَنْ أَفْسِدَ عَلَى صَاحِبِي مَا يَسْتَمِرُّ ثَنَاهُ مِنْ مُتْعَةٍ وَصَفَاءِ .

وَكَانَ أَكْبَرَ مَا جَرَى فِي تِلْكَ الزِّيَارَةِ مَوْكِبُ الزَّفَافِ ، فَقَدْ
أُعِدَّتْ فِي الْعَشِيَّةِ مَرْكَبَةٌ زُيِّنَتْ بِالْأَزَاهِرِ ، وَأُحِيطَتْ بِالرَّايَاتِ
وَالشَّرَاطِيطِ أَشْكَالًا وَالْوَانَا ، وَجَلَسَ فِيهَا الْعُرُوسُ ، وَأَنَا عَنْ اليمينِ
و « الزَّغْبِي » عَنْ الشِّمَالِ ، وَسَارَتْ بِنَا تَطُوفُ الْبَلَادَةَ عَلَى أَضْوَاءِ الشَّاعِلِ
وَالشَّمُوعِ ، فِي جَوْقَةٍ مِنَ الْمُنَشِّدِينَ وَحَمَلَةِ الْمَعَازِفِ ، مِنْ حَوْلِهِمْ
حُشُودٌ مِنَ الْأَهْلِ وَالصَّحْبِ ، وَجَمْعٌ مِنْ سُكَّانِ الْبَلَادَةِ يَتَرَقِّصُونَ
وَيَطْرَبُونَ .

وَفَرَّغْنَا مِنَ الطَّوُافِ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، فَمَا إِنْ حَلَمْنَا الدَّارَ حَتَّى
اسْتَقْبَلْتُنَا عَوَاصِفُ ثَائِرَةٍ مِنَ الْأَغَارِيدِ وَالْأَهَازِيحِ تَنْطَلِقُ بِهَا حُنَاجِرُ
النِّسَاءِ .

ولما أَرِيفَ موعدُ التقاء العروسين ، أَلْفَيْتُ « خيري » مهتاجاً
يمسح ما تصبَّب من عرقه ، وانحنى على أظفاره يَقْرِضُهَا فِي تَتَابُعٍ ...
يوماً اثْنان قضيتُهُما في ضِيَافَةٍ ذَلكَ العُرسُ ، نَعِمْتُ فِيهِمَا بالكثير
من بواعث اللطف والإيناس ، وَلَقِيتُ فِيهِمَا صنوفاً من الحفوات
والجماملات ، وتعددتُ فِيهِمَا أمام عيني ضروبٌ طريفة من التسلية
والإبتهاج ، ولكنني أَعْتَرَفُ بِأَن مُتَعَتِي فِي هَذَيْنِ اليَوْمَيْنِ لَمْ تَخْلُصْ مِنْ
الشواثب ، فقد كانت تَعْتَادُنِي أَطْيَافٌ مِنْ كآبَةٍ وَاعْتِمَامٍ ، فَأَجْدُنِي أَهِيماً
فِي أودية من الأفكار تُشَرِّدُ بِي كُلَّ مُشَرِّدٍ ...

وكان قفولي من الصعيد في قِطارِ الصباح ، فقضيتُ ساعاتِ السفر
الطوال منهوكَ الجسد ، خامدَ الأوصال ، أغفو بين فترة وأخرى ،
ولطالما خُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَسْمَعُ صوت « الزغبي » يسأَلُنِي :

ماذا فعل الله بك ؟ هَلَّا أَخْبَرْتَنِي بِشَأْنِكَ ؟ !

ثم يترأى لِي شَبَّاحٌ طفله ، وهو بين يديَّ أَطِيلُ فِيهِ النَظَرَ ،
وَأَنَا أَحْدِثُ نَفْسِي :

ماذا كان يبلُغُ طفلي الآنَ من العمر ، لو قُدِّرَ أَن يَكُونَ لِي

طفل ؟ !

وفصلتُ عن القطار آيباً إلى داري ، ووطأة الكتابة والإغتمام
تتناقلُ عليّ ، وتغصّيف بي .

وصُبحاً نزلتُ إلى الحديقة أروّح فيها عن نفسي ، وسافقتني خطاي
إلى أقصاها ، فإذا أنا أرى الجبّ . . . ووقفتُ حيالَه أحدق فيه ، ثم
خطوتُ أدخله ، فاعترضتني أطباقُ الظلمة ، وثارت على ريح عِفنة
ولكني على الرغم من ذلك كاه أقدمتُ ، حتى بلغتُ الفجوة ، ومكثتُ
فوقها أنعمُ النظرَ على ضوء عودٍ من الثّقاب أشعّاته ، ثم رجعتُ من
فوري أعجب من أمرى : كيف قضيتُ دهرأ أتهيبُ ذلك المكانَ
المهجور الذي ليس فيه ما يوجب رهباً ولا خشية ؟

وذكرتُ موقفَ « فتحية » من هذا الجبّ منذ أعوام ، إذ لم
تحشّ منه شيئاً ، وإذ أقدمتُ تقفّحه وتكشف ما فيه ، فلما ذكرتُ
ذلك هزّتنى إلى « فتحية » عاطفة من تشوّق وحنين !

وأبى شبح « فتحية » إلا أن يلازمَني يومى كاه ، يتنقلُ معي حيثما
حللتُ ... شبحُها في ذلك المظهر الوديع الذي يتوضح فيه الحزن والقنوط !
واعتملتُ في نفسي مشاعر وإحساسات ظلت تحتدّ وتشتدّ ،
فناديتُ « العيوطى » أحدثه ، وانتهينا إلى أمر مقرر ، رسمنا له خطّته ،
وأعدونا عدّته ...

٢٣

وَبَكْرَةٌ غَادَرَتْ الدَّارَ ، يَقْفُو أَثَرِي « العيوطى » إلى « المحطة » .
لقد آليتُ على نفسى أن ألقى « فتحية » حيث تكون ، مهما
يصادفنى من عراقيل .

وبدأتُ البحثَ والتحرى ذاهباً إلى الضيعة التى انتقلتُ إليها
« فتحية » أولاً عند زوجها شيخ الخفر . . .

ومن ثمة استقيتُ مختلفَ المعلومات والأبناء ، وواصلتُ السفر
أسأل وأتقصى ، حتى بلغتُ القرية التى انتهى إليها مَصِيرُ « فتحية »
آخرَ الأمر .

ولما دخلتُ القرية استهديتُ إلى بيتِ شيخ الخفر ، وحثتُ
إليه الخطأ ، وقلبى سريعُ الخفوق . فلما قاربتُ البيت ، لحثُ على
مَصْطَبَتِهِ امرأةٌ مقوَّسة الظهر ، بادية الشَّيب ، مستغرقةٌ فى تفكير .
فدنوتُ منها أحْدَقَ فيها وأتفحصها ، وبغْةً صنحتُ :

السيدة « هاجر » . . .

ورفعتُ المرأةَ رأسها ، وقد اختلج جُسمَانُها اختلاجةً تطلُّع ،
وهمهمتُ تقول : من ؟ !

فقلت : ألا تعرفينى ؟ أنا « سامى » . . .
وأقبلتُ عليها أضافحُها فى تحنُّن وتأثُّر ، وأنا أقول :
منذُ الصباح وأنا أبُحُث . . . أين هى ؟ أين « فتحية » ؟
فما أسرع أن أجهشتُ بالبكاء ، وأخذتُ بيدي تُجَلِّسُنِي بجوارها
وتَقصُّ عليَّ ، مختنقة الصوت ، شَرِقةً بالدمع ، ما جرى من أحداث
وما كان من مصاير . . .

وشددتُ على يديها ، وقلتُ لها راجفَ النبرات : أُمَاتَتْ ؟ أحمقاً ؟
وتخاذلتُ أوصالى ، وغشينا صمتُ برهة .
ثم أنبَهَنِي صوت رفيع من جَوْفِ الدار ، ينادى :
جَدَّتِي . . . جَدَّتِي !

فسموتُ برأسى أتبين ، وقد ثارتُ نفسى ، فرأيتُ طفلاً يَدْرُجُ
من الباب ، قاصداً السيدة « هاجر » وما إن وقعَ بصرُهُ عليَّ حتى
رمقنِي فى خوف وحذر ، وأسرعَ إلى حِضْنِ جَدَّتِهِ ، يَحْتَمِي بِهِ .

وسمعتُ السيدة « هاجر » تقول :
هذا طفليها . . . انظرُ إليه يا « سامى » . . . طالما كانتُ
« فتحية » تُحدِثُنِي أنه صورةُ منك !

فاتقدتُ عيناى ، أتفرّسُ فى وجه الطفل ، وبسطتُ له ذراعى ،
فانكمش عنى ، فلاطمئنتهُ السيدة « هاجر » وقالت له :
هذا الأفندى يحبك ، فلا تخفُ منه يا « فتحي » . . . سيحضر
لك لعباً وحلوى !

فالتفتَ الطفلُ ينظرُ إلى ، مسترياً بى ، وفى عينيه استطلاع
وفضول . فقلت له : لقد أحضرتُ لك أشياء لطيفة . . . انظر . . .
وأخرجتُ له ساعتى أريه إياها ، فأنجذبَ نحوى واهنَ الخطأ ،
ومدّ يده إلى الساعة يقلبها ويتفحصها ، فأعنتته على أن يضعها على
أذنه ليسمع دقاتها ، فأشرقت أساريره ، وفرقت ضحكاته .
وجعلتُ أتأمل قسّمات وجهه ، فكأنى كنتُ أقرأ فيها سطوراً
من ذكريات حافلة .

وكنتُ كلما حدّقت فى عينيه الصغيرتين عرّثتني نشوة ، فأخذته
بين ذراعى ، وطبعتُ على خدّه قبله حانية ، ثم وسّدتُ رأسه صدرى ،
وجعلتُ أداعبُ شعره .

ومرت بى هنيهة ، وأنا هائم فى أحلام ، وبدأتُ أستشعرُ
طمأنينةً وسكينة ، وإذا الدنيا من حولى كأنما قد انجأ عنها قتامها ،
وأخذتُ تشرق وتبتسم .

لكنني كنت من حياتي في متاعه أضرب في وعثائها على غير
هدي ، وإذا أنا بعد لأي يتوضح لي طريق الخلاص . . .
وتراءى لي أنني أسير في ذلك الطريق ، آخذاً بيد ودي ،
مستقيماً الخطو ، يحدوني أمان بسام ، ويشيع في نفسي أمن
وسلام !

شيخ الزاوية

على الشاطئ الأيمن من تَرْعة « الخليلية » قريباً من بلدة « المحاريق » ، تقوم زاوية للصلاة ، هيئَةُ المظهر ، صغيرة المساحة ، ولكنها على الرغم من ذلك لا تخلو من القُصَادِ في الصلوات الخمس كل يوم ، ولا سيما صلاة الجمعة من كل أسبوع ، إذ يتوافد الناس عليها زَرَافَاتٍ من كل فجٍّ ، حتى تضيقَ بهم رُقْعَتُها ، فلا تملك جموعهم إلا أن يتخذوا من حولها مُصَلًّى في الطريق . . .

وإن زاوية « الخليلية » آتزداد قُصَاداً على مرّ الأيام ، طوعاً لما يتمتع به إمامها « الشيخ نعيم » من شهرة واسعة ، وصيتٍ بعيد . فلقد تسامع الناس في أحشاء القرى المجاورة ، والبلاد القاصية ، بهذا الإمام الجليل ، وتناقلوا الحديث في رَوْعةِ مواعظه ، وقوة صلاحه ، وأجمعوا على أن دعوتَه ليس بينها وبين السماء حجاب . فكانوا حِرَاصاً على أن يغتنموا بركة الإِثْتِمَامِ به ، والصلاة معه ، وأن يتزودوا مما يلقيه عليهم

من خطبته الرثانة زاداً طيباً للحياتين : العاجلة والآجلة ...

وكان بعض من تحتويهم الزاوية في صلاة الجمعة ، يتقدمون إليها في الضحوة الباكرة ، متجشمين مشقة الرحلة من أقاصي الريف ، متنافسين في اتخاذ مجالسهم عن كسب من المنبر ، لا يريدون بذلك الصلاة فحسب ، ولا تستهويهم خطبة الجمعة وحدها ، وإنما هم مَرْضَى تعاصت عليهم السبل ، ولم تجد في شفائهم الحيل ، فعجلوا إلى شيخ الزاوية يرتقبون منزله من المنبر عقب الخطبة ، ليأخذوا بحاشية جيبته ، ويمسحوا بها الوجوه ، فإذا قضيت الصلاة نهضوا إليه يلتمسون يده ، ويلتمسون دعاءه أن يفرج الله عنهم الكرب ، ويزيل السقام ... وإن دعاء هذا الولي الصالح في هذه الساعة المباركة أقمين أن يظفر بالاستجابة والقبول .

كان « الشيخ نعيم » رجلاً مهيب الطلعة ، تتجلى على أساريره علامة الإيمان العميق ، وكان بآن الطول ، ضامر الجسد ، حسن الملامح ، تزيده حية مهدبة وخطها الشيب ، فكساها صبغة الوقار ... وهو ذو عيني نجلوين ينبعث منهما تيار قوي يبهر الأبصار ، وينفذ إلى القلوب .

ولقد وهب الرجل حياته للتعبّد ، وقصر عمله على إبلاغ رسالة

الدين ، وهداية الخلق إلى الطريق المستقيم . . . فإذا تكلم تدرت على
كفه آيات القرآن وأحاديث الرسول وأمثال الصالحين ، وإذا خطا في
الطريق وجدته مطاطاً فوق سُبْحَتِهِ يغمغم بذكره أو ينادي ربه ،
وإذا اعتلى منبره يوم الجمعة تدفق لسانه بفصيح الكلام ، وتدفع صوته
قوى الجرس ، فلا يلبث بيانه أن يلمس شغاف الأفتدة ، يرف عليها
حيناً برداً وسلاماً ، وينصب عليها تارة ناراً موقدة ، وفي يده سيفه
الخشبى يلوح به ذات اليمين وذات الشمال ، فتبهتز الزاوية بمن حوت ،
كأنما أصابها زلزال ، وما هي إلا أن ترى الناس شاخصة أبصارهم ،
خشعة أجسادهم ، كأنهم قد مسهم سحر . . .

ولم يكن الرجل يعرف في دنياه مثابة غير البيت والزاوية . . . فهو
إما في بيته يصيب طعامه ومَنَامَهُ ، وإما في زاويته قائماً يصلى أو جالساً
يتحقق حوله نفر يطلبون عنده الموعظة الحسنة ، أو يرفعون إليه ظلامه
بعضهم من بعض ، أو يلتمسون منه حكم الشرع فيما يعرض لهم من
شئون العيش وأحداث الحياة . . .

وإن أهل بلدة « المحاريق » ليدكرون « للشيخ نعيم » أنه منذ
فتوة سنه ، دمث الشماثل ، طيب المعاشرة ، تتوضح فيه سكينه
النفس ولين الكلام . . . وأنه أسبق الناس إلى صلاة ، وأحرصهم

على أداء فرض ونافلة ، وأكثرتهم ولعاً بالتفقه في الشريعة ، والتمكّن في آداب الدين . . . فلا غرو أن يقيموه إماماً للزاوية ، ولم يستكمل عامه الخامس والعشرين ، وها هو ذا قد مضى له أكثر من عشرين عاماً في منصبه الكريم ، يزداد على الأيام من ورع وتقوى ، ويزداد له الناس من حب وإكبار . . .

و « الشيخ نعيم » يؤمن بأنه من السلالة النبوية المطهرة ، وأن الله قد اختاره هادياً ومرشداً لهذا البدار وما حواه ، وكثيراً ما رأى نفسه في المنام ، وقد حفت به ملائكة أبرار ، ورفرفت فوق رأسه رايات خضر ، وطلما ترمى إلى أذنه في جوف الليل صوت الماتف يهيب به أن ينبعث هداية الخلق ، وأن يكون في عون الناس ، فإذا هو ينتفض اعتياجاً ، وإذا هو ينهض فيتوضأ ، ولا يفتر يتبهجد . . . وكان لذلك يستجيب ناشطاً حين يدعى للسهر بجانب مريض يقرأ على رأسه التعاويذ ، ولا يقصّر في تيسير حاجات الفقراء والمساكين ما استطاع . . . فقد ينزل عن طعامه لجائع يتصدده ، وقد تراه في الحقول يعين أحد الفلاحين في الحرث والري ، حسبةً لوجه الله .

وربما بات « الشيخ نعيم » طاوياً البطن ، لا يجد ما يتبلغ به ، وهو على ذلك منشرح الصدر ، يغمره الرضا . وربما أدركه الشتاء وهو

لا يملك من الغطاء إلا جُبَّتَه البالية ، فيشعر في قرارة نفسه بدِفءٍ عظيم

وكذلك عاش الرجل في الحياة ، حائساً في يقظته وفي نومه ، تتراءى له أخیلة رائعة يتمثل بها مقامه عند ربه ، ونعيمه في جنة الخلد ، جزاء لمهمته الجليلة في هذه الدنيا . . . تلك الذمة التي يختص الله بها أوليائه الأطهار .

فأما أسرة الرجل التي تعمُر بيته ، وإن شئت قلت : كوخه ، فلم تكن إلا زوجةً بنى بها منذ فاتحة شبابه ، وهي تكبُرُه بسنوات قلائل ، وقد تزوجت قبله ، ثم توفى عنها زوجها ، فضمَّها الشيخ إليه رحمةً بها ، وظل معها في عيشة هادئة راضية ، خلال تلك السنين الطوال .

وبينا « الشيخ نعيم » في مُنصرفه من الزاوية بعد صلاة الجمعة ، وهو مائلٌ على سُبحته ينجيها ، إذ انتهى إلى سمعه صوت متخشعٍ يناديه ، فالتفت يتبين الأمر ، فألقى رجلاً يتبعه في خطا متعثرة ، فعطف عليه الشيخ يسأله : مَنْ أَنْتَ ؟

— أنا « عبد التواب » .

— مِنْ أَىِّ الْبِلَادِ ؟

— مِنَ الْكُفْرِ الْمَجَاوِرِ . . .

— مَا الْخَبَرُ ؟

فَقَبِلَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ أَخْذًا بِكُمِّ جَبْتِهِ يَقْبَلُهُ وَيُنْذِيهِ بِدَمْعِهِ ، فَقَالَ لَهُ
الْشَيْخُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ يَا بَنِي ، وَقَصِّنْ عَلَيَّ مَا تَشْكُو . . .

فَانْتَبَذَ بِهِ الرَّجُلُ نَاحِيَةً ، وَطَفِقَ يُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ أَوْقَعَ عَلَى زَوْجِهِ
الطَّلَاقَ الثَّلَاثَ ، وَلَكِنَّهُ يَلْتَمِسُ إِلَى رَدِّهَا سَبِيلًا .

فَأَخَذَ الشَّيْخُ يَسْأَلُهُ ، لِيَسْتَجْلِيَ أَمْرَ هَذَا الطَّلَاقِ ، فَلَمَّا عَلِمَ الْأَمْرَ
عَلَى وَجْهِهِ ، قَالَ لَهُ : لَا سَبِيلَ إِلَى مَعَاشِرَتِكَ إِيَّاهَا إِلَّا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا رَجُلٌ
غَيْرُكَ . . . فَإِنْ طَلَّقَهَا كَانَتْ لَكَ مِنْ بَعْدِهِ حَالًا لَا .

فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ فِي تَحَسُّرٍ : أَلَا مِنْ سَبِيلٍ غَيْرِ تِلْكَ السَّبِيلِ ؟

فَقَالَ الشَّيْخُ : هَذَا شَرْعُ اللَّهِ يَا بُنَيَّ !

فَنَكَّسَ الرَّجُلُ رَأْسَهُ لِحِظَةٍ وَقَدْ اسْتَيْأَسَ ، ثُمَّ تَهَيَّأَ لِلْإِنْصِرَافِ ،
فَأَخَذَ الشَّيْخُ طَرِيقَهُ ، وَاسْتَأْنَفَ الْإِقْبَالَ عَلَى سُبْحَتِهِ ، يُنْقَلُّهَا بَيْنَ
أَصَابِعِهِ . . .

وَفِي أَصِيلِ الْغَدِ ، كَانَ « الشَّيْخُ نَعِيمٌ » يَغَادِرُ الزَّوَاوِيَةَ ، وَقَدْ فَرَغَ

من صلاة العصر ، فرأى الرجل الذي تَبِعَهُ أَمْسٍ قَدْ عَادَ إِلَيْهِ ، وما لبث أن خلا به في ناحية ، فجعل الرجل يَفْرُكُ يديه ، وقد مال برأسه ، ثم تحدّث إلى الشيخ في شأن زوجته المطلقة ، وهو يقول : لقد حَتَمْتُ ياسيدنا الشيخ أن تتزوج المرأة رجلاً غيري ، حتى تَحِلَّ لى من بعده . فقال الشيخ : أَجَلْ يَا بُنَى . . . ما من ذلك بُدَّ !

فازداد الرجل مَيْلاً برأسه ، وقال مججماً كأنه يتحدّث إلى نفسه : هل يقبلُ سيدنا الشيخ أن يكونَ ذلك الزوج . . . خدمةً لوجهِ الله ؟

وعَقَدَتُ الْبَغْتَةُ لِسَانَ الشَّيْخِ ، فلم يُجِرْ جواباً ، وانحنى على سَبْحَتِهِ يورى بها حيرته واضطرابه . . . فاستأنف الرجلُ قَوْلَهُ مَفْصِحاً عن مَطْلَبِهِ ، مُأْخِضاً في الرجاء والاستعطاف . . . وما زال في إلحافه ، حتى قال الشيخ : أَمْهَانِي يَوْمًا . . . سَأَسْتَخِيرُ اللَّهَ يَا « عَبْدَ التَّوَابِ » . فَإِنْ كَشَفَتِ الْإِسْتِخَارَةُ عَنْ خَيْرٍ أَجَبْتُكَ إِلَى مَطْلَبِكَ ، وَإِلَّا فَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ مَا تَرِيدُ . . . جِئْنِي غَدًا يَا بُنَى ، وَاللَّهِ وَلِيَّ التَّوْفِيقِ !

وما إن انتهَى الشيخُ من جوابه ، حتى هَمَّ بِالْإِنْصِرَافِ ، فاستوقفه الرجلُ لَحْظَةً ، ومَضَى عنه ، ثم رجع إليه ومعه امرأة في عَصْرِ الشَّبَابِ ، طَيِّبَةُ الْقِسِمَاتِ ، بِيضَاءُ نَفْسَةٍ . . . فتقدمتُ من الشيخ في خَجَلٍ

وخَفَرَ ، فقال لها الرجل : قَبِّلِي يَدَ الشَّيْخِ .

ثم قال للشيخ : ها هي ذى زوجتي المَطلَمة ...

وما كادت المرأة تنحني على يدِ الشيخ ، حتى جذبَ يده ،
وفرمط منه نظرةً إليها ، فلاقَتْ نظرَها ، فغَضَّ الشيخ من بصره ،
وقال للرجل : امْضِ بِزَوْجَتِكَ .

فَقَبَّلَ « عَبْدُ التَّوَابِ » يَدَ الشَّيْخِ ، داعياً له أن يُجْزِلَ اللهُ ثَوَابَهُ .
وأخذ الشيخُ سَمَّتَهُ إلى داره ، وبيدَ الخطأ ، مُسَبِّحَ العِينِينَ ، مَحْنِيَّ
الهامَة ، غارقاً في تسبيحاتٍ عميقة .

وقضى الشيخُ ليلةً هائلةً زَحَرَتْ بالبهيج من الأحلام ، إذ تراءتْ
له في رياضِ الجنةِ حُورٌ عِينٌ ، وبيدهنَّ من تُشْبِه في ملاحبها تلكَ
الشَّابَّةَ التي أَقْبَلَتْ عليه في عصرِ يومه النَّائِتِ على استحياء !

وصحَا الشيخُ من نومه ، قَبَّلَ الفجرَ ، نشيطاً مجبوراً . فلمَّا أَدَّى
فريضةَ الصَّبحِ ، استخارَ اللهُ في شأنِ ذلكَ الزَّواجِ . . . فلاحَ له من
الدلائل ما جعله يطمئنُّ إلى القيامِ بهذه المهمة دون حَرَجٍ أو تَكْرِبٍ .
وجاءه « عَبْدُ التَّوَابِ » في موَعِدِهِ ، يستجلى نَبَأَ الاستخارة ،
فأخبره الشيخُ بقبوله ، فاغْتَبَطَ الرجلُ بذلك ، وانطلق إلى دارِ مطلقته
يدعوها إلى إجراءِ عقدِ الزَّواجِ بِشَيْخِ الزَّاوية . . .

وما أسرع أن انتهت مهمة الزواج والطلاق على خير وجه ،
ولكن زوجة « عبد الثواب » خَفَّتْ بعد رحيلها أثراً جديلاً في نفس
الشيخ الإمام ، فلقد شَعَرَ بعاطفة تستيقظ في قرارة نفسه ، عاطفة خفية
غامضة ، ولكنها تَسْرِي في أوصاله ، فلا يملك معها قراراً ...
وكان طيف تلك المرأة يَطْرُق الشيخ في منامه ، فيتشكّل له
في صورة حُورِيَّةٍ ناصعة البياض أغارِلُه وتضاحكه ، فيقطع ليله طروباً
جذّالاً ، ولكنه إذ يستيقظ يعاجله القبح ويأس ، ويقضى وقته
مبهوماً مكروب الفؤاد ...

وإنه ليسأل نفسه : ما خطب هذه الأحلام ؟

أتراها رمزاً لحكمة خفيت عليه ؟

أم تراها نزعاً من نزغات الشيطان ؟

ولم يكن يسوقه في حيرته وقلقه إلا صوت الهاتف يقول له في
غفواته التي تواتيه أثناء النهار :

طِبْ نفساً يا « نعيم » ... فليس عليك من الشيطان سلطان ...

سِرُّ في طريقك الذي سَنَنْتَه لنفسك ، واعمل الخير ما استطعت
إليه سبيلاً !

فيتشبهد الشيخ تشبُّه الحمد لله ، وما أسرع أن يستنير وجهه

بِشْرًا وارتياحًا ، ثم يقضى بقية يومه على أحسن حال .
وتنقل الناس في بلدة « المحاريق » وما جاورها من البلدان أن
الشيخ الإمام تزوج امرأة « عبد التواب » لَتَحِلَّ لزوجها من بعده ...
فتوارد عليه أولئك الذين طلقوا زوجاتهم ثلاثًا ، ثم ندموا على ما فعلوا ...
تواردوا عليه يبتغون عنده مثل ما ابتغى ذلك الرجل ، تفريجًا لتلك
الضيقة ، وَوَصْلًا لحبل المعاشرة ، وهم مطمئنون إلى قيام الشيخ بهذا
الأمر ، طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ . فكان الشيخ لَا يُخَيِّبُ لَهُمْ هَذَا السُّؤْلَ ،
وَلَا يَرُدُّ تِلْكَ الطَّلِبَةَ ، إِذْ كَانَ قَدْ رَسَخَ فِي اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاةِ اللَّهِ ، وَتَيْسِيرًا عَلَى عِبَادِهِ وكيف يَزْهَدُ فِي صَنِيعٍ يَلْتَمِسُ بِهِ
شَمْلُ الْأُسْرِ ، وَتَتَوَافَرُ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ أَسْبَابُ الْوِفَاقِ ؟ !
وترادفت الأشهر على شيخ الزاوية ، وهو لَا يَفْرُغُ مِنْ زَوْجِيَّةٍ
حَتَّى تَسْتَقْبَلَهُ زَوْجِيَّةٌ أُخْرَى فَانْقَلَبَتْ لِيَالِيهِ أَعْرَاسًا مُتَوَالِيَةً ،
وَاصْطَبَغَتْ نَفْسُهُ بِصِبْغَةٍ جَدِيدَةٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِهَا عَهْدُ .
لَقَدْ أَصْبَحَ يَمْشِي فِي الطَّرِيقِ مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ ، مَرْفُوعَ الْهَامَةِ ،
يَخْتَلِسُ النَّظَرَ إِلَى الْمَلَّاحِ .
وَلَقَدْ عُنِيَ بِلَحِيَّتِهِ أَيَّمَا عُنَايَةٍ ، فَشَدَّ بِهَا أَحْسَنَ تَشْدِيدٍ ، وَعَالَجَ
مَشْيَبَهَا بِالْخَضَابِ أَجْمَلَ عِلَاجٍ

ولقد كَمَدَ إلى عمامته ، فبناها مهندمة الوضع ، مستوية الطَّيَّات ،
وَأَلِفَ أن يتعطرَ عملاً بالسُّنَّة ، وخَلَطَ حديثه بالنُّكات اللطيفة ،
والضحكات الخفيفة ، يقيناً منه بأنَّ المؤمنَ طَرُوب .

فأما حَدَّثَه في الخطابة فقد خَفَّتْ ، حتى غدا صوته عذبا
رقيةً ...

وأما سيفه الخشبيّ فقد استكان في يده ، فلم يَعُدْ يلوِّح به ذات
اليمن وذات الشمال ...

ويوماً وقف الشيخ أمام الدار يحاورُ بعضَ النسوة الزاهبات إلى
الترعة يملأن الجِرَّار ، فَقَدِمَ على الدار شابٌّ في صُحْبَتِهِ امرأة ، وكان ذلك
الشابُّ مطرباً من أهل البنادر ، وهو زَرِيّ الهيئة ، نحيف الجسم ،
يَبِينُ على وجهه أنه من نَفَايَاتِ المجتمع ، ومن السادرين الذين
لا تقوم بأمثالهم دعائم البيوت ، ولا تتحققُ بهم هناءة الأُسَر .

وما إن وقعتْ عينُ الشابِّ على شيخ الزاوية ، حتى اقترب منه

قائلاً : خَدَّامُك « تهاوى » ياسيدنا .

فابتسم الشيخ وهو يقول :

العفو يا افندى ... العفو ... ما مسألتك ؟

فأجل الشاب قصته ، فقد طلق امرأته الطلقاتِ الثلاث ، فأبت عليه زوجته أن تعاشره إلا بعد فتوى الفقهاء ... وقد أفتاه أولئك الفقهاء بأنها لا تحِلُّ له إلا إن تزوجت رجلاً غيره ... فهو يعرض على شيخ الزاوية أن يكون ذلك الزوج المنشود .

وتفضل الشيخ ، فأعلن قبوله للنهوض بهذه المهمة ، وانصرف الشاب ، تاركاً امرأته « صابحة » في كنف الشيخ إلى حين .

وكانت « صابحة » فتاة موفورة الحظ من الوسامة ، مترنحة الأعطاف من المرح . عاشرت الشيخ بضعة أيام ، فحلت من قلبه أكرم محل ، حتى لقد حرص على أن يقضى معها أطول وقته ، فجعل يتخلف عن الزاوية في بعض الصلوات ، ويقصد الأسواق هنا وهناك ، لينتقى « لصابحة » حلياً وملابس ، ويجلب لها فاكهة وحلوى ...

ووجدت « صابحة » نفسها تتقلب في أعطاف عيش ناعم هنيء ، في كفالة رجل رضى النفس مطواع ، لا كزوجها الشاب الصعلوك الذى كانت معه ... رجل له شمائل لم تأنسها من قبل ، لا كشمايل زوجها

الذى لم يكن يُحَسِّنُ إلا الشتمَ والإهانة وسوء المعاملة ... فأُسبغتُ على الشيخ حنانها ورضاها ، وجعلت تنفقُده إذا غاب ، وتنعهده إذا حضر ... وشعرت للحياة الزوجية بعاطفةٍ لم تشعرُ بها قبلَ اليومِ ، فكأنها وُلدتُ منذ الآنَ زوجةً بحقٍّ !

وفى فجر يوم دخل « الشيخ نعيم » على زوجته القديمة المقيمة يخبرها بأنه رأى فى منامه رؤيا صادقة ، كأنها فلقُ الصبح ... وتعبير تلك الرؤيا أن أمها مريضةً على شفاٍ خطر ، فعليها أن تتدارك الأمر ، فنتقل إليها فى بلدها البعيد ، قبل أن يُحَمَّ القضاء . وسيلحق بها بعدَ يوم أو يومين ، يدبرُ فيهما أمره .

ولم تَمُضِ ساعاتٌ معدودة حتى كانت المرأة قد تجهَّزتْ للرحيل . وانصرمتْ أيام ...

وهبطَ البلدة « تهاى » قاصداً بيتَ الشيخ الإمام ، فلما نَمَى إلى الشيخ مقدّمه اكفهرَ وجهه ، وخرج إلى الشاب يرغَبُ إليه فى إهمال الزوجة أياماً تستوفى بها المدة المقررة .

فانقلب الشاب إلى بلده ، يملأ نفسه الإغتمام .

وفى الغداة بعثَ الشيخُ رسوله إلى الزاوية للإخبارِ بمرضه . وبحاجته إلى الاعتكاف فى الدار بضعة أيام .

وَأَيْتَ الشَّيْخِ بِخَاتَمٍ « صَاحِبَةٍ » يَتَمَكَّلُ بِسُلْطَانِهَا ، وَيَسْتَمِعُ
بِحُكْمِهَا ، وَقَدْ يَنْسِكُ بِهَا مَيْتَاجًا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ ، كَأَنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَتَمَكَّنَ
مِنَ الْإِقْلَاتِ ، أَوْ يَحْبِسَهَا مِنْ تَتَبُعِ اسْتِلَاقِهَا مِنْهُ . . . ثُمَّ يَنْكَبُ عَلَى
يَدَيْهَا تَقْبِيلًا ، وَالدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ يَنْبَعِرُ !

وَفِي غَتَّوَةٍ مِنْ غَتَّوَاتِهِ خُفَّ بِهِ الْخَافُ قَائِلًا : لَا تَمْرُطْ يَا « نَعِيم »
فِي « صَاحِبَةٍ » . . . لَقَدْ وَهَبَكَ اللَّهُ لِإِذَاهَا إِعْتَادًا لَهَا مِنْ بَرَائِنِ ذَلِكَ
الْمَذْهَبِ الْجَالِعِ . . . إِنَّهَا أَهْلُكَ ، وَأَنْتَ أَهْلُهَا !

وَحَضَرَ « تَهَامِي » يَطْلُبُ الشَّيْخَ الْإِمَامَ بَأَن يَرُدَّ إِلَيْهِ امْرَأَتَهُ ،
وَاحْتَدَى فِي حَدِيثِهِ مَعَهُ ، فَخَرَجَ الشَّيْخُ مِنْ حِلَّتِهِ ، وَصَلَحَ بِالشَّابِّ :
أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَمُجِّلْ ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ الصَّابِرِينَ !

وَلَكِنْ « تَهَامِي » لَمْ يَنْهَبْهُمْ مَلَانًا يَعْنِي الشَّيْخَ بِالصَّبْرِ ، وَقَدْ لَبِثَتْ
الْمَرْأَةُ عَنْدهُ أَكْثَرَ مِنْ أَسْبُوعَيْنِ ، وَكَانَ الْأَجَلُ بَعْضَهُ أَيْامًا .
إِلَّا أَنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى امْتِلَاقِ غَضَبِهِ ، فَتَرَكَ الشَّيْخَ مُوَاعِدًا إِلَيْهِ أَنْ
يَعُودَ بَعْدَ أَسْبُوعٍ ، لِيَسْتَرِدَّ امْرَأَتَهُ .

وَانْقَضَى الْأَسْبُوعُ ، وَالتَقَى الشَّابُّ وَالشَّيْخُ بِيَابِ الزَّوَاوِيَةِ ، يَوْمَ
الْجُمُعَةِ ، عَقِبَ الصَّلَاةِ . . . فَبَادَرَهُ الشَّيْخُ قَائِلًا :
أَحْضَرْتِ أَيْضًا ؟ مَا هَذِهِ الْجَسَارَةُ ؟ !

فَعَجِبَ « تهاى » مما يسمع ، وظلَّ هُنَيْهَةً لَا يَتَكَلَّم . ثم اندفع
صائحاً يقول للشيخ :

أَيْنَا الْجَسُورُ ؟ تَقْدَ جِئْتُكَ أَطَالِبُ بَرْدَ زَوْجَتِي إِلَى .

فَتَرَجَعَ الشَّيْخُ خُطُوءَاتٍ ، وَتَجَمَّعَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ : مَا الْخَبْرُ ؟
وَسَرَّعَانَ مَا شَعَرَ الشَّيْخُ بِالْحِمِيَّةِ تَدَبَّ فِي أَوْصَالِهِ ، فَالْتَهَبَ
وَجْهُهُ ، وَاعْتَدَلَتْ قَامَتُهُ ، وَانْبَعَثَ مِنْ عَيْنَيْهِ شَوَاطِلُ يَخْتَرِقُ الْحُجُبَ .
وَلَبِثَ الشَّيْخُ يُحَدِّقُ فِي عَيْنِ الشَّمْسِ ، وَيُرْهِفُ السَّمْعَ لِصَوْتِ
الْهَاتِفِ ، مُهَيِّباً بِهِ أَنْ يَحْتَفِظَ « بِصَابِحَةِ » الَّتِي وَهَبَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا ، إِنْقِاذاً
لَهَا مِنْ بَرَاثِنِ ذَلِكَ الذَّنْبِ الْجَائِعِ .

وَتَمَّةً انْتَفَضَ « الشَّيْخُ نَعِيمٌ » انْتِفَاضَةً بَشَرٍ وَارْتِيَا حَ ، وَصَاحَ
مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ قَائِلاً : يَا عِبَادَ اللَّهِ ! . . . يَا عِبَادَ اللَّهِ !

فَتَجَمَّعَ النَّاسُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، وَأَحَاطُوا بِالشَّيْخِ ، وَأَنْصَتُوا لَهُ ،
وَقَدْ خَشَعَتْ مِنْهُمْ الْقُلُوبُ ، وَتَعَلَّقَتْ الْأَنْفَاسُ .

فَقَالَ الشَّيْخُ جَهْوَ رِيَّ الصَّوْتِ : أَتَتَّقُونَ بِي أَمْ أَنْتُمْ لَا تَتَّقُونَ ؟
فَصَاحُوا صَوْتاً وَاحِداً : إِنَّا بِكَ وَاثِقُونَ !

فاستأنف قائلاً : لقد هداني الله إلى اتخاذٍ مُطْلَقَةٍ هذا الشاب ،
وحمايتها من شرِّه . . . فهل أَعْصِي أمرَ الله ؟
فقالوا جميعاً : كلا ، بل تَمْضِ على هُدًى من الله !
فابتلع الشيخُ ريقَه وهو يقول : لقد وهبتُ نفسي لصالح المؤمنين
والمؤمنات . . . وليس في مقدوري أن أتَنَجَّى عن حق الله على ، ولو
كان في ذلك حَتْفِي . . . فهل أنا في ذلك أَلَام ؟
فأجابوه : لا لَوْمَ عليك !

فقال لهم وهو يشير إلى الشاب : إِذْنُ كُفُّوا عَنِّي هذا !
وما كاد الشيخُ يُتِمُّ جملته ، حتى أَحْدَقَ الناس « بتهامى »
وأبعدوه عن الزاوية ، وما زالوا به حتى فارقَ البلدة ، وهم يُنْذِرُونَه
بالويل إن عاد .

وسار « الشيخ نعيم » ميمِّمًا دارَه ، في جَمْعٍ من الناس ، وهو
يتهادى في مِشْيَتِهِ ، تَحَفُّ به المهابة والجلال . . .

كَيْسُ الْفِضَاءِ

لم يترك « عبد الخالق » فراشه إلا في الضحوة العالية . . . وكان أبوه قد بارح المنزل مبكراً ، كما هو شأنه كل يوم .

وأخذ « عبد الخالق » يتناول فطوره ، وهو ثائر متسخط ، وما لبث أن صدرَ عن المائدة مهرولاً إلى المطهى ، فما إن واجه الجارية « مبروكة » حتى تطاول عليها بالشتم والضرب ، لأنها لم تحبس القط « فلفل » ، إذ لمح شبحه أثناء تناوله الطعام .

ورجع « عبد الخالق » إلى رذّة البيت ، فألقى أمه على مألوف عاديها تجلس على وسادة ، مختمرة بخمارها الأبيض الناصع ، وهي ترتشف قهوة الصباح ، فأخذ مجلسه حيا لها صامتاً عبّوس الأسارير ، ثم جعل يتنهد ويَزِفُ ، فأقبلت عليه أمه تلاطف رأسه ، وقالت له وهي تبسم : إني أحزِرُ ما يشغل بالك أيها الماكر !

فأجابها وهو ينأى عنها بجانبه :

ولكنك تَأْبِينُ أن تعينيني على ما أريد . . . لقد استيقنتُ
أنك لا تتوخَّينَ راحتي . . . لا تُضْمِرِينَ لى حبًّا !
فطوقته بذراعها ، وهى تقول :

أتَجْرؤُ أن تتفوّهَ بمثلِ هذا القولِ يا جاحدَ الجميل ؟
— الأمرُ جَلِيٌّ . . . لو كنتِ تحبينى لسعيتِ لى عند أبى حتى
يُبرِمَ الأمرَ الذى تعرفين !

فغمغمتِ الأمُّ ، وقد غَضَّتْ من بصرها :
ولكنك تَعْلَمُ يا « عبد الخالق » أن أباك . . .
وأمسكتُ عن الكلام ، متشاغلةً بطرف ثوبها تتحسَّسه ، فقال
ابنها محدِّدَ اللهجة : أَحَلِفْ لكَ إِنَّكَ إِذَا لم تُقْنِعِ أبى اليومَ بإنجازِ هذا
الزواج ، فإنى أغادر البيت ، ثم لا تعرفين لى من أثر .
فطَفِقَتْ الأمُّ تحدِّقُ فى وجهِ ابنها بعينٍ قَلِقةٍ حَيْرَى ، وهممتُ :
أى كلام هذا يا « عبد الخالق » ؟

— قولُ فَضْل . . . إذا لم تنتهِ مسألة الزواج اليومَ ، فهذا فراق
بينى وبينك . . . سوف أريحُكم من وجهى ، وأريح نفسى من هذا
العيش الأُنكد !

فأخذتِ الأمُّ بيد ابنها تَضْغَطُها ، وهى تقول :

ما أقسى قلبك يا بُنَيَّ . . . أيسوغ لك أن تفعلَ هذا ؟
فجذب « عبد الخالق » يده ، وليث يبعث فيما أمامه نظراتٍ
حامية . . .

ولاح شبح القط « فلفل » في رأس الرّذّهة يتمسّح بالباب ،
وهو قِطٌّ حالك السواد ، أملسُ القَرَو ، كأنه قطعة من ليل برّيم ،
يُضِيءُ فيها إشعاع مترجرج يسترسل من فصّين ملوّّنين ، هما عَيْنَاه .
فما كاد الفتى يَقَعُ بصره على ذلك الشّبح الطارىء ، حتى عَجَلَ
إلى خَفٍّ كان على مَدَّ يده ، فرمى القطّ به ، وهو يصيح :

لن تفلّت من يدي أيها القَدِر المشؤوم !
فما أسرع أن قفز القطّ هاربا ، وهو يَمْوء بصوت إشعاع مُزعِجِ
النبرات .

ونفض « عبد الخالق » يتأهب للخروج ، فسألته أمّه في ضراعة
وتحنن : إلى أين يا بُنَيَّ ؟

فصاح الفتى يجيبها بقوله : إلى جهنم . . . أتريد أن تحبسيني
في البيت ، كالقط « فلفل » والجارية « مبروكة » ؟
— وهل منعتك من الخروج يا بُنَيَّ ؟ . . . انصرف فابسط
نفسك وتنزّه .

— ليس في مقدور أحد أن يمنعني من ذلك . . . سأبسط نفسي ،
وسأتنزّه . . . أما القطّ « فلفل » فأقسم بالله العظيم كيلاقيَنَّ حَتْفَه على
يدي . . . إنه يحيا في هذا البيت يَرْتَع ويلعب ، كأنه أمير مُرَفَّه ،
فأما أنا فأحيا فيه كأنى كلب ذليل !

— إنه قط أبيض يا « عبد الخالق » وأنت تعلم أنه أثير عنده ،
حبيبٌ إليه . . .

فقال الفتى محتدّ الصوت :

أبي ؟ أتلقّينَه أبا ، وهو ذلك العاتى المستبدُّ الفُشُوم ؟
فنظرتُ إليه أمه في عجب وإشفاق ، وهى تقول خافضة الصوت :
أبهذا تصف أباك ؟ تَأَدَّبْ يا بُنَيَّ !

فبادرها بقوله : لا تتماذى في القول ، فتثيرى غضبي عليك .

فهممتُ الأمّ تقول : هداك الله يا « عبد الخالق » !

ومثل الفتى تُجَاهَ المِراة وهو يصلح من هُندامه ، ويعانى أن يَفْتِلَ
شاربه الطَّرِير ، وقد رَنَحَ أعطافه العُجْبُ بنفسه ، والتباهى بِفُتُوَّتِهِ .

ولما أبلغته المِراة مأربه ، استدارَ في وقفته ، يقول لأمه في لهجة

الآمر : عَلَيَّ بـ « ريال » !

فتنهدت المرأة ، وتحركت يَمَنَّة ويسرة ، ثم أخرجت له من تحت

الوسادة ما طلب . فما إن تناول « الريال » حتى رَكَضَ إلى السَّلَمِ يَهِيْطُ
على درجاته في قفزات متواصلة .

فلاحقه صوتُ أمه ، وهى تجأرقائلة : على مَهْلِكٍ يا « عبد الخالق »
الدَّهْلِيْزِ مَظْلَم . . . خُذْ حِذْرَكَ يا بنى . . . حماك الله ونجّاك !

ظهر « عبد الخالق » فى الحارة ، وشرع يَحْطِرُ فى أرجائها ذُهوْبا
وَجِيْنَةً ، وهو يتطلّع إلى منزل « أم محمد » الدَّلَالَةِ .

وكان بين الفينة والفينة يبعث من فمه صَفِيرًا يحاكى به لُحْنًا من
الألحان الشائعة ، وهو يَعْبَثُ بسلسلة فى يده .

وبعد حين أَهَلَّتْ من منزل « أمّ محمد » فتاة ضامرة تحتويها
مُلاءة ، وقد تزينت زِينَةً رَخِيصَةً ، وتأنقتْ أُنَاقَةً وَضِيعَةً .

وما كاد « عبد الخالق » يراها ، حتى تقاصرت خُطَاهُ ، وتَحَايَلَتْ
على وجهه بِسْمَةٍ وَهَاجَةٍ ، ثم أخذ يتنحى ، فإذا بالفتاة تنفرط منها
ضحكة رنانة ، وقد واصلت سَيْرَهَا ، كأنها غيرُ مَعْنِيَةٍ بأمر الفتى
الهِيمَانِ الطَّرُوبِ !

فحثَّ « عبد الخالق » خطاه إليها ، حتى دنا منها ، وقال لها
مُعَابِثًا : إلى أين يذهب الغزال اللُعُوب ؟

فكسرت له الفتاة عينها ، وهى تقول فى مداعبة ودلّ :
ما لك وما لى ؟

— عَجَبًا لَكَ يَا « فَاتِمَةُ » ... غداً يكون لى معك شأن أىّ شأن !
ثم أرسل سَعْنَةَ مديدة ، وأتبعها قوله :

سينتهى الأمر عمّا قريب . . . كل شيء يسير وفق المرام .

فلم تُحَرِّ الفتاة كلاماً ، كأنما يَعَصِمُها الحجل ، وواصل الفتى حديثه
قائلاً : إن هى إلا أيام ، ثم يَتِمُّ بيننا عَقْدُ الزَواج .

وامتدَّت يده إلى يدها تضغطها فى شَفَف ، فتكلفت الفتاة أن
تَجْذِبَ يدها ، وهى تقول :

احتشمْ يَا « عبد الخالق » . . . ألا تخشى أن يرانا أحد ؟

— مِمَّ أَخْشَى ؟ وهل فى هذا العمل ما يُعَاب ؟ ألم أقل لك إنك

ستكونين لى زوجا ؟

فأجابته فى صوت كَيْنِ الْمَكَاسير : وهل تمَّ كل شيء ؟

فقال الفتى : ستزوركم أمى غداً لتخطبك لى . . .

— وهل علم أبوك بالأمر ؟

— علم أو لم يعلم . . . المسألة تتعلق بى .

فكسست الفتاة رأسها ، وقالت وهى كعبت بأملها :

أخشى أن يحول أبوك بينك وبين ما تريد .

فرد عليها فى عزّة وكبرياء : هيهات له أن يفعل ذلك !

فألقت عليه نظرة أسف وخوف ، فاختلف الفتى غيظاً ، ثم اندفع

يقول لها فى لهجة حاسمة :

لا تحسبى حساباً لغيرى . . . أمرى كله فى يدي !

وكان الفتى والفتاة قد بلغا رأس الطريق العام ، فافترقا .

وركبت « فائقة » الترام . . . فأما « عبد الخالق » فقد عبّر الشارع

وسار مطرق الرأس ، ضيق النفس ، يستبدّ به التفكير .

وبينما هو فى مسيره ، إذ شعر بيد تلاطف كتفه ، فالتفتى يتبين

الأمر ، فإذا بصاحبه « دسوقى » يقول مفترّ الثغر :

ما هذه السحنة المقلوبة يا « عبد الخالق » ؟ فى أى شىء تفكر ؟

— . . . لا شىء !

— مَنْ يراك على هذه الحال يكاد يُنكرُك . . . عاشق أنت

أم مفارق ؟

— لا أنا عاشق ولا أنا مفارق .

فأشـرع « دسوقي » إلى صاحبه نظراتٍ نفاذة ، ثم قال له :

ما الجديدُ في شأنِ البنتِ « فائقة » ؟

فوجمَ « عبدُ الخالق » لحظات ، وأجاب ساهما :

دعنا من هذا الموضوع .

— أأخـرَ زواجكما تديرُ المالَ المطلوب ؟

— المال لا يُعوزُنِي يا « دسوقي » . والدتي تكفلُ لي كلَّ شيء .

ولكن . . .

— إذن ليس في المسألة إلا أن يرَضَى أبوك .

فخفَضَ « عبد الخالق » رأسَه ، وأخذ يدير سلسلته مهتاجَ

الأعصاب .

واستأنف « دسوقي » قوله : الحقّ أن أباك جاوزَ الحدَّ . . . كن

شجاعاً في مخاطبته ، وافرضْ رأيك . . . لم تبقَ طفلاً !

فرفع « عبد الخالق » رأسَه ، وقد تضرمتْ عيناه ، وطفقَ يجمجم

وهو حائر قلق .

فباغتَه صاحبه بقوله : أتعرف من الذي يحرضُ أباك عليك ؟

— من ؟

— « الأسطى بيومي » الحلاق . . .

فانطلقت من فم « عبد الخالق » صيحة حنق ، وهو يقول :

الوَغْد . . . الدنيء . . . لن يُقْلِتَ من يدى !

— ما قولك فى الترسّد له الليلة ، وإشباعه ضرباً ؟

— فكرة موفّقة .

— سأجمع الصّحّابَ هذا المساء ، ثم ننتظره فى منقطع الطريق ،

وهو فى مآبِه إلى داره .

وتابع الصديقان سيرهما ، وهما يتجاذبان الحديث فى تدبير الخطة

بصوت مخفوض .

وانقضى يومان لم يفتّر فيهما « عبد الخالق » عن محاصرة أمه ،

والإلحاح عليها ، لكى يحملها على أب تفتح أباه فى شأن زواجه

المنشود .

واضطرتّ الأم أن تنصاع لرغبة الفتى ، فوعده بأن تفاوض

الليلة أباه .

وبينما كان الفتى وأمه جالسين على الوسائد بعد العشاء ، إذ تناهى

إلى سمعهما صرير الباب ، وخفق القدم ... فعلما من الطارق .

وتعالى صوت « محبوب افندى » يسبُّ الجارية « مبروكة »
لإهمالها تنظيف الدَّهْلِيز .

فالتَّ أُمّ على ابنتها هامسة :

يبدو على أهلك الليالة أنه ليس بصافى المزاج !

فَعَقَّبَ عليها الفتى محدَّثَ الالهجة :

لا يَمْنِينِي أن يكونَ صافى المزاجَ أو لا يكون . . . لا بدَّ الليالة
أن تنتهى مسألة الزواج !

وهنا كان « محبوب افندى » قد صعد الدَّرَج ، وهو يزمرم
ويجمجم ، والقطَّ « قلقل » يتمسَّح بثيابه ، فلما بلغ الرجلُ رَدَّهَةً
البيت وقع بصره على ابنه « عبد الخالق » ، فأخذ يحدِّثُه بنظراته ،
وهو يحاول أن يتناولَ بقامته القصيرة ، ويتنفَّخَ بجسمه المتضائل .

وصاح بالفتى قائلاً :

كيف جرَّوتَ أن تضربَ « الأسطى بيومى » يا وُلْد ؟

فأراد الفتى أن يتحدَّى سطوة أبيه ، وأن يغالبَ نظراته ؛ ولكن
ما كادت أعينُهما تتلاقى ، حتى كسَّر الفتى من بصره ، وقال مستكيناً
الصوت : لم يحدثْ ذلك والله العظيم !

— بعداً لك من كاذب أثيم . . . أجِبْنِي : كيف جرَّوتَ أن

تضرب « الأسطى بيومى » ؟ انطق وإلا تركتك فقد النطق .

— أقسم برأسك الغالى إني برىء !

— لقد كنت فى عصبية من الأشرار ، بينهم « دسوق » ذلك

الولد الفاجر الذى حرّمت عليك أن تكون لك به صلة . . . لقد
ترصدتهم « للأسطى بيومى » فى منتهى الطريق .

— كذّبتك من بلغك يا أبى !

— أخرس يا ولد . . . فأنت الكذوب !

واقتربت الأم من زوجها ، على فمها ابتسامة ذليلة ، وقالت :

سكن من روعك يا « محبوب افندى » . . . الولد جاهل

لا يحسن الكلام . . . ربما كان مظلوما . . . تعال فاجلس أهبي

لك قدحاً من الشاي ، فأنت الآن محتاج إلى هدوء البال .

وتضاحكت الزوجة ، تعالج الترفيه عن الأب المغضب . فنظر

الرجل إليها نظرة استخفاف ، وقال لها :

لست أدري ماذا تقصدين ؟ أتبعين أن أغضى على تلك الأعمال

السيئة التى يقتربها ابنك مع الناس ؟

فأجابته الأم : لست أريد منك أن تغضى ، ولكن على رسلك ،

ولتكن حليماً . وليس « عبدُ الخالق » بأول ولد تنزلقُ قدَّمه في هذه الأعمال الصَّبِيَّانية .

— هكذا أنتِ تعملين على تهوينِ ما يرتكبه هذا الولد ، فتشجِّعينه على أن يفعل ما يَهْوَى . . .

فالتِ الزوجة على كتف « محبوب أفندى » تلاطفه متخاضعةً متفنتة في تسكين غضبه ، وهي مسترساة تقول :

أنتَ في كلامك مُحِقٌّ . أنا التي أخطأت . ولكنك تعلم قلبَ الأم . . . و « عبد الخالق » مهما يكن من أمره فتى طيِّب السريرة ، ولعل ما بلغك في شأنه وشايةٌ من أهل السوء ! . . . تعال اجلس ، وروِّقْ بالك . سأذهب لأصنع لك الشاي بنفسى .

وهُرِعتْ الأم إلى المَطْهَى ، و « عبد الخالق » يَتَّبِعُ خُطاها . وأخذ « محبوب أفندى » مجلسه على الوسائد ، وانكفاً على سُبْحَتِهِ يداوُلُ حَبَّاتِهَا بين أصابعه .

ورجعت الزوجةُ تحمِلُ قَدَحَ الشاي المعطَّر ، وقدَّمته إلى الرجل ، وهي تقول في تضاحك :

أقسم برأسك الغالى إنه ليس في مصر كلها من يستطيع أن يصنع قدحا من الشاي مثلَ هذا القدح . . . اشربه ، وطبَّ نفساً به !

ونظرتُ إليه تستجديه البشر وإلا بتسام ، فلَوَى عنها عُنْقَه ، وظل
منكفئاً على سُبْحَتِه .

ولاح في أقصى الرَّدْهَة « عبد الخالق » يستخير الحال .
وعَمَّ الرَّدْهَة صَمْتُ مُطْبِقٍ ، لم يكن يقطعُه إلا صوتُ ارتشافِ
الشَّاي ، وبعضُ تنهدات تبعثُها الأم بين حين وحين ، وهي تبادل
ابنَها النظر في خُفْيَةٍ وحِذَارٍ .

وبعد فترة مدَّت المرأة يدها في تَلَطُّفٍ ، تَدْلُكُ قدمي زوجها
المكدود ، وقالت في صوت متخافٍ ، وبصر زائغ : لى عندك رجاء !
فأجابها الرجل ، وهو يئنأى عنها بجانبه : أى رجاء لك ؟
— عِدْنِي أَوَّلَا أَنْ تستجيب له .

— عجيب أمرُك . . . أخبريني لأعرفَ ماذا تريدن ؟
فانكبت المرأة على ركبته تقبلُها مهتاجة ، وهي تقول :
اصنعْ معروفًا معي ، واستجبْ لرجائي .

فقال لها الرجل ، وهو يتباعد عنها :

أَفْصِحِي . . . أَفْصِحِي عما في نفسك !

فرفعتُ إليه المرأة عينين خَضَلَهُمَا الدمع ، وقالتُ في صوت
منقطعٍ : أريد أن أفرَحَ « بعبد الخالق » . . .

فخلق الرجلُ ، وقد أَزْهَرَتْ عِينَاهُ ، وقال :
تفرحين « بعبد الخالق » . . . بهذا الولدِ الخائب ؟ !
فتشبَّثَ المرأةُ بثوبه تقول : اصنعْ معروفًا معي . . . لا أطلبُ
منك إلا كلمةَ القبول . . . واترك ما بقيَ أدبره بنفسى .
فلم يُحرِّ زَوْجُهَا من جواب ، وطَفِقَ يداعِبُ حَبَّاتِ السُّبْحَةِ
بأصابعِ جَيَّاشَةٍ ، وواصلتُ الزوجةُ قولها في لهجة استعطاف وتذلل :
أشتهي أن أرى حفيداً لى . . . أتمتع به قبل أن تحينَ مَنِيَّتِي . . .
أضمه إلى صدرى . . . يملأ البيتَ أنسا وبهجة !
فتحنح « محبوب أفندى » وطال تدنحه ، دون أن ينبسَ .
ولما تَمَادَى الصمتُ بين الزوجين ، شرعت المرأة تقول ، وهى
ناكسة الرأس ، تدْعَكَ إحدى يديها بالأخرى فى إلحاح :
إنها بنت يتيمة مسكينة . . . وأهلها من جيراننا ومعارفنا الذين
اتصلوا بنا من عهد بعيد .

فصعد الرجل نظره وصَوَّبَهُ ، وعلى فمه تتخايل بسمه استخفاف .
ثم قال :

أحسبكِ تَعْنِينَ بنتَ « أم محمد » الدَّلَّالَةَ . . . البنت التى تظهر
فى الشارع بالأبيض والأحمر ، وتتعوَّج فى مشيتها مثل الراقصات !

فنظرتُ إليه زوجهُ نظرة عتاب ، وقالت :

« فائقة » بنت « أم محمد » . . . لا عيبَ فيها . . . بنتٌ

طيبة عاقلة !

— ما أحسنَ اختيارك العظيم . . . تبغين أن تخطبي لابنك

إحدى بنات الشوارع ؟ ! . . . أقسم بالله إن هذا الولد لن يرى يومَ

هناء وسعادة ، مادمتِ تساعدينه على هذا الشرِّ .

فأحسَّ « عبد الخالق » بغتةً بأن ناراً تتضرم في رأسه ، وأن عينيه

قد اكتستا صبغة حمراء ، فصرخ وجسمه تزلزله رعدة :

يمينا إني لن أرى لحظة راحة ، مادمتَ أنتَ عقبةً في طريقي !

فأنفذَ « محبوب افندى » بصره إلى مكان ابنه ، وقد اختلط

عليه الأمر ، لا يكاد يصدّق أن « عبد الخالق » يعنيه بهذا المنكر

من القول .

ثم صاح : ماذا قلتَ يا كلب ؟

ولبثتُ الأم حَيْرَى ، تنقل بصرها بين ابنها وزوجها ، وقد غَشِيَهَا

شُحوب ، وسَرَى في أوصالها تخاذل وفتور .

وقالت لابنها بصوت كأنه النشيج :

هذا عيب منك يا « عبد الخالق » . إن من يكلمك أبوك !

فقال الفتى بصوت تتجاوب أصدأؤه في أرجاء الردهة :

لا أعرف من تسمينه أبى !

وما عثم أن التفت نحو أبيه يقول : سأ تزوج « فائقة » . . .

رضيت أو لم تررض . . . لم أبق طفلاً حتى تتحكم في أهوائى !

وفي هذه اللحظة درج القط « فلفل » إلى الردهة حتى توسطها ،

وكأنه أحس بأن غيوماً تتلبّد في جو المكان ، فجعل يرأري بعينه

حواله ، وقد ارتفع ذيله ، وانتفش شعره .

وطفق الرجل يتقلب على الوسادة ، يحاول أن يمتلك زمام

موقفه ، وقال مهمهما : أين عصاى ؟ إيتونى بها . . .

ثم نهض قائماً ، وهمّ بأن يأخذ طريقه إلى ناحية ابنه ، فأسرعت

الأم تحوّل بين زوجها وبين الإنطلاق . ولكنها لم تفلح ، وابتدأت

المعركة بين الولد وأبيه ، فأقحمت الأم نفسها ، وتلقّت أوفر الضربات ،

وما زالت « بعبد الخالق » حتى نحتته إلى الباب ، تاركةً أباه يتابع

زجرته وهديره .

وكان الولد يحاول الإفلات من أمه ، ويدير بصره يمنة ويسرة ،

فالتفت عينه بالقط « فلفل » ، وماهى إلا أن انكب عليه ، وأمسك

به يُنْشِبُ أظفاره في عنقه ، والقَطُ يَعْوِي ، ويدفع عن نفسه بمخالبه
وأنيابه . وخرج الولدُ به وهو على هذه الحال هائجاً مأججاً يَهْبِطُ
الدَّرَجَ .

فاختلج الأب اختلاجة غيظ وحنق ، وهمّ أن يُلْحَقَ بابنه ،
ليستنقذَ قِطَّةَ الأُلُوفِ ، وَلِيُثَارَ له . . . فوقفت الأم تعترض طريقه ،
وتقسم عليه ألاَّ يخطو خطوة ، وهي تقول :

أَقْصِرِ الشر . . . احمَدِ الله على أن الأمر انتهى عند هذا الحد !
فلبثَ الأب يحاولُ الخروج ، والأم تردُّه ، على حينِ كان مُواء
القَط يتواصل ، كأنه أُنِينُ مُحْتَضَر . . .





ضَرْبُ الْحَبِيبِ

المنزل الأخير في « زُقَاقِ الْمُحْتَسِبِ » بِحَيِّ « الْحِزَاوِي » مَبْنَى عَتِيق ، تَدَاعَتْ أَرْكَانُهُ ، وَتَخَرَّبَتْ جَوَانِبُهُ ، وَلَكِنْ مَا بَرِحَتْ بَعْضُ مَعَالِمِهِ تَنْطِقُ بِمَا كَانَ لَهُ مِنْ مَكَانَةٍ فِي الْعَصْرِ الْقَدِيمِ ، بَيْنَ بَادِخَاتِ الدُّوَرِ وَالْقُصُورِ . . .

وَلَقَدْ شُيِّدَ الْمَنْزِلُ يَوْمَ شُيِّدَ لِيَكُونَ مُقَامًا مُسْتَقِلًّا لِأُسْرَةٍ كَرِيمَةٍ سَرِيَّةٍ تَغَيَّرَتْ بِهَا الْأَحْوَالُ ، وَتَحَقَّقَتْ بِهَا الْأَحْدَاثُ ، حَتَّى اضْطُرَّتْ فِي يَوْمِهَا الرَّاهِنُ أَنْ تَقْنَعَ مِنَ الْمَنْزِلِ بِغُرُفَاتٍ فِي طَبَقَتِهِ الْعُلْيَا ، لِكَيْ يُتَاحَ لَهَا أَنْ تَوَجِّرَ سَائِرَ طَبَقَاتِهِ وَغُرَفَاتِهِ لِأَشْتَاتِ السُّكَّانِ ، فَيَكُونَ لَهَا مِنْ ذَلِكَ دَخْلٌ تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى أَعْيَاءِ الْعِيشِ ، وَتُكَالِفُ الْحَيَاةِ .

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأُسْرَةُ إِلَّا زَوْجَيْنِ مُحْطَمَيْنِ عَلاهُمَا الْكِبَرُ ، وَابْنًا لَهَا يُدْعَى « يُوسُفُ » فِي شَرَفِ الشَّبَابِ ، يَقْطَعُ مَرَحَلَةَ التَّعْلِيمِ الثَّانَوِي . وَكَانَ « يُوسُفُ » هَذَا يَزْهَوُ بِوَسَامَتِهِ ، وَيَحْتَفِي بِزِينَتِهِ ، لَا تَرَاهُ

فى المنزل إلا متخَطِّراً يتمثل فى نظراته إلا عتزاز . وكيف لا يتعالى على بقية السكان ، وهو يعرف أنه سليل الأُمجاد من أصحاب هذا البيت العتيق ؟

ومن بين سكان هذا المنزل أَرْمَلةٌ تُدْعَى « أمّ حسن » تتكسَّب بحياكة الأثواب ، وتصيب منها رِزْقاً حَسَنًا . وهى امرأة ليست موفورة الحظّ من جمال المُحيّا ، ولكنها تبدو دائماً مُتَبَرِّجة مكتملة الزينة والتعطر ، تعرف من عينيها أنها من ذوات الصّابة اللواتى تحفلُ حياتهن بالمغامرات

وهناك فى الجانب الخرب من المنزل حجرة متهدّمة أشبه بالجُحر ، تُؤوى جدّةٌ ضريرة معها حفيدتها « بدرية » . . . فتاة فى ريق العمر ، ترهقها غبرة الفاقة والكد ، ولكنك تستشف وراء ذلك القناع سِماتٍ من فتنة وحسن ، كما تأنسُ ابتسامة القمر خلف غلائلِ الغيوم

وكانت حياة هذه الفتاة نهباً مُقسّماً بين القيام على شئون جدّتها العجوز ، والتنقل فى مساكن المنزل أجيرةً تخدم .

وغدوّة صعدت « بدرية » إلى الشّقة التى يسكنها ملاك الدار ، فما أسرع أن تجلّى الفتى « يوسف » على عتبة الباب وهو متأهب للذهاب

إلى المدرسة . ولما رأى الفتاة قبالة بشّ لها ، وقال :
أهذه أنتِ يا « بدرية » ؟ . . . مصادفة حسنة . . . كانت
أُمّي تذكرك الساعة .
— أطلبتني هي ؟

— إنها ملازمة الفراش ، منذُ البارحة ، وليس بجانبها من يكون
لها عوناً .
— سَلِّمها الله .

وتحركت الفتاةُ أمام الباب تريد الدخول ، فاعترضها الفتى يأخذُ
عليها الطريق ، وهو يتسمّى في مداعبة ، ويقول :
تقدّمي . . . ماذا يبطل بك ؟

فصرّج الخجلُ وجهَ الفتاة ، وقالت متلعثمة خافضة البَصَر :
عجيبُ أمرِك يا « يوسف افندى » . . . لم هذه المعاكسة ؟
فجعل الفتى يهتزّ طروبَ النفس ، وأجابها في صوت مُنغم :
ألا تعرفين يا « بدرية » لماذا أعاكسك ؟
فاعتلت الفتاةُ برأسها ، فإذا هي تُلَاقِي نظراتِ « يوسف » متلهبةً
عَظْشَى ، فزادها ذلك من حيرة واضطراب ، واغتتم الفتى تلك الفرصة ،
فأهوَى عليها يغتصب منها قبلة شَيِّقة ، فانبعثت الفتاةُ ثائرةً تردُّ عنها

ذلك المقتحم الجريء ، فدفعته بكلتا يديها دفعةً أسقطته ، وعَجِلَتْ
إلى الباب . . .

ونفض الفتى من عثرته مُحَنَقَ الصدر ، يجمع كراساته ، وَيَلْمُ
شَعَثَهُ ، وهو يبههم :

لو لم تكن أمي مريضةً لعرفتُ الآنَ كيف أربِّيكِ أيتها الحمقاء !
وهبط السلم متشامخاً يتوَعَّد ، وبلغ في مَهَبِطِهِ شِقَّةَ « أم حسن »
الأرملة الخيَّاطة ، فألفاها لدى الباب تسأله في تخابُث :

صباح الخير يا « يوسف افندى » . . . هَلَّا أخبرتني كم الساعة
الآن ؟

فأجابها وهو يهيمُ بمتابعة السير : أوفتُ الساعةُ على الثامنة .
وحملتُ المرأةُ فيه ، قائلةً له في دهشة :

ما هذا يا « يوسف افندى » ؟

— أيَّ شيء تقصدين ؟

— أخرج إلى الشارع وأنت على هذه الحال ؟

— أية حال ؟

— سترتك ممزقة . . .

— أنا ؟

فَلَوَّتِ الْمَرْأَةُ ضَاحِكَةً فِي دَلَالٍ مَمْقُوتٍ ، وَقَالَتْ :

يَلِ سُتْرَتِي أَنَا . . .

وَدَعَتْهُ إِلَى دُخُولِ مَسْكَنِهَا ، وَمَا أَسْرَعَ أَنْ أَقْبَلَتْ عَلَى السُّتْرَةِ

تَرْتُقُ مَا جَدَّ فِيهَا مِنْ فَتُوقٍ ، وَهِيَ تَقُولُ :

مَا خَطْبُ هَذَا التَّمْزِيقِ ؟

فَقَالَ لَهَا الْفَتَى ، وَهُوَ يَعَالِجُ التَّخْلَصَ مِنْ مَجَازِبَتِهَا الْحَدِيثِ :

أَرْجُو مِنْكَ أَنْ تَقْرُغِي مِنَ الرَّتْقِ ، فَقَدْ أَبْطَأْتُ عَنِ الْمَدْرَسَةِ .

فَكَسَرَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ عَيْنَهَا ، وَقَالَتْ لَهُ فِي لَهْجَةٍ مَا كَرَّةَ :

وَمَاذَا أَبْطَأَ بِكَ الْيَوْمَ يَا « يُوسُفُ افْنَدِي » ؟

فَأَزَاغَ الْفَتَى بَصْرَهُ عَنْهَا ، وَهَيْنِمَ : شَغَلَتْنِي بَعْضُ الشُّنُونِ .

فصَوَّبَتْ الْمَرْأَةُ إِلَيْهِ أَنْظَارَهَا تَتَفَحَّصُهُ ، ثُمَّ هَمَسَتْ فِي أُذُنِهِ :

إِنَّهَا فِتْنَةٌ وَضِيعَةٌ . . . لَا يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَقِيمَ لَهَا وَزْنَ .

فَتَشَاغَلَ الْفَتَى بِتَرْتِيبِ أَوْرَاقِهِ ، وَقَالَ : دَعِيكَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ .

فَتَدَانَتْ مِنْهُ الْمَرْأَةُ تَلَاظِفُ كَتِفِهِ ، وَهِيَ تَهْمِهِم :

يَا لَهَا مِنْ شَرِّ رِيْدَةٍ شَغُوبٍ . . . أَأَصَابَكَ سُوءٌ مِنْ هَذِهِ السَّقَطَةِ ؟ لَقَدْ

اسْتَطَارَ قَلْبِي مِنْ أَجْلِكَ !

فَاشْتَدَّ الضِّيقُ بِالْفَتَى ، وَقَالَ لَهَا :

ألم يَنْتَه الرِّثْقُ بعدُ ؟ أرجوكِ يا ست « أم حسن » ...
أرجوكِ !

وأحسنَ الفتى بذراعها تَطَوَّقُ خَصْرَه ، وبأنفاسها تتلاحقُ عليه ،
فَنَأَى بجانبه عنها ، وانطلق راكضاً يقول :
أشكرك ... سَعِدَ صباحك !

وَتَبِعَتْهُ الأرملة إلى الباب ، ولبثتْ تَرْقُبُ شَبَحَهُ وهو يهبط
الدَّرَج إلى الطريق .

وفيا هي على هذه الحال ، سمعتْ خَفَقَ أَقْدَامٍ من أعلى السُّلَّم ،
فأشرعتْ عَيْنِهَا ، فإذا هي ترى « بدرية » هابطةً على مَهَل ،
فوقفتْ تنتظرها ، وقد تَنَمَّرَتْ عيناها . وما إن اقتربتْ الفتاةُ منها
حتى رمتها الأرملة بنظرات تَتَلَطَّى ، وخطتْ نحوها تقول في حِدَّة :
لقد تجمعتْ الأقدار في الصفايح ، وأنت في شُغْلٍ عنها . فتى
تتفضّلين بحملها ؟ أنتظرين حتى أقذفَ بها في وجهك ، أو أصبّها على
رأسك ؟ ... أراكِ مصروفةً إلى المشاجرة وإغلاقِ راحة الناس ،
فأما عمّلك الذي تتقوّتين به فلا يقعُ منك ببال ... مالكِ و« ليوسف
افندى » ؟ ... خير لكِ أن تَعْرِبِي عن وجه هذا الفتى ، وإلا كان
ملك الوَيْل !

فَنظَرْتُ إِلَيْهَا الْفَتَاةُ حَائِرَةً مُضْطَرِبَةً ، تَقُولُ :

لَا شَأْنَ لِي « يَوْسُفُ افْنَدِي » أَوْ غَيْرِهِ . . . إِنَّهُ عِنْدَكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ بَه .
فَجَنَحَتْ لَهَا الْأَرْمَلَةُ يَدَيْهَا ، وَكَأَنَّهَا مَسَّهَا شَيْطَانٌ ، وَقَالَتْ لِلْفَتَاةِ :
مَا أَطْوَلَ لِسَانَكَ أَيَّتُهَا الْوَقِيعَةُ . . . مَاذَا تَرِيدِينَ أَنْ تَقُولِي ؟
أَتُظَنِّينِ أَنِّي أَنَا فِئْسُكَ فِيهِ ؟ مَنْ تَكُونِينَ أَنْتِ حَتَّى يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
مُنَافَسَةٌ ؟ أَلَا تَعْلَمِينَ شَأْنَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ ؟ خَيْرُ لَكَ أَنْ تَشْغَلِي نَفْسَكَ
بِتَنْظِيفِ الْمَسَاكِينِ ، وَحَمْلِ الْكُنَاسَاتِ !

وَاسْتَرْسَلَتِ الْأَرْمَلَةُ تُطْنِبُ فِي الشَّتْمِ وَالتَّقْرِيعِ ، عَلَى حِينِ تَابَعَتْ
الْفَتَاةُ مَهْبِطَةً ، غَيْرَ مَعْنِيَّةٍ بِالرَّدِّ عَلَى مَا تَسْمَعُ مِنْ مَرْدُولِ النُّعُوتِ
وَالْأَوْصَافِ .

وَبَلَغَتِ الْفَتَاةُ حَجَرَتَهَا ، فَأَلْقَتْ جَدَّتَهَا كَمَا تَرَكْتَهَا تَفْطُ فِي
نَوْمِهَا ، فَانْتَبَذَتْ رُكْنًا مِنَ الْحَجَرَةِ ، وَأَلْقَتْ رَأْسَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا ،
وَلَبِثَتْ تَفَكَّرُ فِيمَا كَانَ مِنْ شَأْنِهَا مَعَ الْفَتَى « يَوْسُفُ » وَالْأَرْمَلَةِ
« أُمِّ حَسَنِ » .

وَبَيْنَاهُمَا تَغَالِبُ مُخْتَلَفِ الْمَشَاعِرِ ، إِذْ أَحْسَتْ بِالْذَّمِّ يَنْفَرِطُ مِنْ
مَآقِبِهَا ، حَتَّى إِذَا لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ تَرَدَّدَ ذَلِكَ الشَّهِيقِ الَّذِي اسْتَبَدَّ بِهَا يَنَافَسُ
غَطِيطَ جَدَّتِهَا الْعَجُوزِ .

وأخيراً أفاقتُ من نوبة النحيب ، وقد عاود نفسها شئاً من
السكينة والقرار ، فنهضتُ تصلح من شأنها ، وخرجتُ تستأنف سعيها
الذي ألفتَه كلَّ يوم في سبيل القوت .

ولما طلبتُ النومَ في عَشِيَّةِ ذلك اليوم ، لم يستجب لها ، وظلت
أرقة قلقَة ، كأنها تتقلبُ على الشوك ، وهي في مُلتَظَمٍ من الأفكار
والمشاعر لا تجدُ منه منجاة ...

بَرَ الْفَتَى حَدَّ الْمَأْلُوفِ حِينَ هَفَّتْ نَفْسُهُ إِلَى تَقْبِيلِهَا ؟ أَقَسَتْ
هِيَ عَلَيْهِ ، إِذْ دَفَعَتْهُ فَأَسْقَطَتْهُ دُونَ إِشْفَاقٍ ؟ أَلَمْ يَكُنْ أَحْجَى بِهَا أَنْ تَرُدَّهُ
عَنْهَا فِي رِقَّةٍ وَذَوْقٍ ، وَأَلَّا تَتَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الصَّدِّ وَالرَّدِّ ؟ وَمَا بَالُ هَذِهِ
الْأَرْمَلَةِ الْبَغِيضَةِ تُقْجِمُ نَفْسَهَا فِي شَتَّى فِتَاها ، فَتَنْبَرِي لِلدِّفَاعِ عَنْهُ
بِلا مُسَوِّغٍ ؟ ...

وكان وجه الفتى « يوسف » يُلُوح لها وهي على هذه الحال
متباين الأوضاع والصُّور ، فتارةً هو عبُوس كالح ، وحيناً هو مشرق
بَسَّام ... وهو في كل حالة من أحواله يلاحقها ولا يفتأ يلاحقها ،
حتى إنها لتُخْفِي رأسها بين الوسائد ، كأنما تهربُ من طيفه
اللَّجُوج !

وطوّحَتْ بها الأفكار والصُّور ، وظلت ترمي بها المرامي ،
حتى أسلمتها إلى وادي الأحلام .

وانصرفت أيام ، والفتاة تراجع مألوف هديرها رؤيذا ، وقد بنت
عزمها على أن تتنكب عن سُكَّانِ هذه الدار جميعاً ، وبخاصّة مسكن
الفتى « يوسف » والأرملة الشُّعوب ...

وفي أصيل يوم وافقت صاحب الدار عن كُثْب من الباب ، وهو
متوكّيء على عصاه ، يكافح ضعفه واعتلاله ، فما إن لحها حتى أطلق
صوته يناديها ، فتصامت عنه ، فكرر النداء ، فلم تجد مفيضاً من
التلبية ، فواجهها بقوله :

ما هذا يا « بدرية » ؟ كيف سَوَّلَتْ لكَ نفسك أن تتخلّني عنا ؟
لقد سألنا عنك ، وانتظرنا حضورك ، فماذا أبطأ بك ؟

فأجابته وهي خافضة البصر :

المعذرة ... فإني كثيرة الشواغل ، وجَدَّتْني مريضة .

فقال لها الرجل :

ألا تعلمين أن « أم يوسف » هي الأخرى مريضة لا تريمُ
الفراش ؟ ... إنها تطلب أن تراكِ ، فاعجلى إليها .

فهممت الفتاة تَعِدُّهُ أَنْ تَزُورَهَا بعد قليل . فتركها الرجل يتحامل على عصاه ، ويقتلع قدميه . ووقفت الفتاة في مَدْخَل الدار شاردة النظرات فَتْرَةً ، تسائل نفسها :

أَتَنِي بوعدها ؟ أم تظاَّن على حالها تتجنَّبُ هؤلاء الناس ؟
وانتهى بها الأمر إلى أن اعتزمت ألا تصعدَ إلى مسكن صاحب الدار . وفيما هي على وَشْك المِضْي ، تواترت على سمعها أصوات مختلطة تتناثر من جانب السُّلَم . قالفت رجليها تقفان ، وأذنيها تصغيان ، تحاول تَعْرِفَ الأصوات ، وتَمَيِّيزَ بَعْضُهَا من بعض ، وقد أحست أوصالها تختلج . وإذا هي تدلِّف في حِذَارٍ ومساترة ، وتتابعُ الإنصات ، ليتسنى لها أن تتصيَّد ما يَشِيع من أصوات .

كانت « أم حسن » وقتئذ بباب مسكنها ، تعابثُ الفتى « يوسف » وتضاحكه وتجاذبه الأفاكِية ، فتسمرت الفتاة في موقفها مهتاجة تتساقط إليها تلك الكأسُ المريرة قطراتٍ ، فتجرعُها على غضاضتها ، يدفعها إلى ذلك دافع نفسي لا قِبَلَ لها بأن تردّه .

وبغته أحست الفتاة بأن باعثاً يَزُجُّ خطاها خارج الباب ، فهُرِعَتْ إلى حجرتها ، وشرعت تستبدل بثوبها ثوباً آخرَ أنظف وأزهى ، ثم أخذت زينتها ، وما إن اطمأنت إلى أنها بلغت مأربها مما

تريد ، حتى خرجت من الحجرة قاصدةً مَدْخَلَ السِّلْمِ تُرْهِفُ السَّمْعَ ،
فَلَمْ تَلَقَ هُنَاكَ إِلَّا صَمْتًا شَامِلًا . . .

وما أسرع أن جعلت ترتقي الدَّرَجَ ، تحذوها فكرة جامحة . وما
بلغت في مُرْتَقَاها شِقَّةَ « أم حسن » تمهلت رويداً تتسمع ، فتناهت
إليها أحاديث الأرملة مع عاملاتها الأجيريات تأمر وتنهى !

فحثت الفتاة قدميها إلى شِقَّةِ صاحب الدار ، وقرعت الباب
جَيَّاشَةً المشاعر ، وما هي إلا أن انفرج الباب عن الفتى « يوسف »
ففاجأه مرأى الفتاة ، ولكنه تمالك واستجمع ، وراح يحدِّجها بنظرات
حدادٍ ، وقد حضرته حادثة الأمس حين لَقِيَ من هذه الفتاة مَهَانَةً
جرحت كبرياءه وعِزَّتَه . ثم افترَّ ثغرُه عن ابتسامة كريهة ، وهو
يقول عابثاً بسلسلة المفاتيح في يده : ماذا جاء بك يا ست « بدرية » ؟
فأجابته من فورها في لهجة يشيع فيها الاضطراب ، محاولةً أن
تَضْبِطَ عواطفها ، وهي تُزِيغُ عنه البَصَرَ :

جئتُ أزورُ والدتك . . . علمتُ أنها مريضة !

فتضاحك الفتى في هُزُوٍّ وسخرية ، وقال :

حقاً إن قلبك مملوء بالخير . . . نحن في غِنَى عن خدماتك !

فبرقت عين الفتاة ، وقالت :

أىُّ شأن لك بخدماتى ؟ إني أحضرُ من أجل والدتك ، وقد طلب
منى والدك أن أصعد إليها . . . دَعْنِي وشأني ، وافرُغْ أنتَ لمسائلك
التي تشغل بالك !

— أىَّ مسائلَ تقصدين ؟
فاندفعتُ صائحة :

سَلْ صاحبَتَكَ «أمَّ حسن» . . . انظر ماذا كنتَ تصنع معهما منذ هنيئة!
حقه الفتى مواصلا العَبَثَ بسلسلة المفاتيح ، وقال :

« أم حسن » . . . إنها سيدةٌ ولا كالسيدات !

فاشتدَّ احتياجُ الفتاة ، وهى تقول :

أَيَّةُ سيدة هذه العجوزُ الشوهاء التي تلاحقُ الشَّبَّانَ ؟

— بل إنها سيدة تعرف الذوق ، وتحسن الأدب ، وتقدرُ

مَقَامَ . . .

— وهل لهذه المرأة مقام ؟

— عجيبٌ أمرُك . . . أجبْتِ الآنَ لتناقِشيني في شأنِ «أم حسن» ؟

— قلتُ لك جئتُ لألقى والدتك ، فافسَحْ لى .

— لا أسمحُ لفتاةٍ مثلكِ أن تطأَ عتبةَ الباب . . .

— ما ذا كان منى حتى تحرمَّ على الدخول ؟

— هل نسيتِ إساءتكِ إليّ؟

— وهل أسأتُ إليك؟ إني لا أسيءُ إلى أحد!

— أتُنكرين ما جرى منك؟

— أنتَ الذي ضايقتني .

— وإذا كررتُ معكِ ما صنعتُ بالأمس؟ . . .

— إذن فلا أحجم عن حماية نفسي .

— اغرُبي عن وجهي .

— ليس هذا بيتك!

وهَمَّتْ الفتاةُ باقتحام الباب ، فأمسكَ بها يحاول إقصاءها ، وهي

تعالج التفاتَ منه بادیء بدء ، فإذا هو يضبطُها بين ذراعيه ، وإذا بهما
كأنهما يلتحمان . . .

ومضتُ على ذلك فترةٌ صمت ، لا تدرى :

أفترةٌ عِرَالِيَّ هي؟ أم موقفٌ عِناق؟!

ووجدتُ الفتاةَ نفسها قد أجهشتُ بالبكاء ، وأخذت تصيح

قائلة :

لا تفخري بالتغلب على فتاةٍ مثلي . . . أترُكيني!

— لن أترُككِ حتى أروضك وأخضعك أيتها الشريرة !

واختلجت الفتاة بين يديه ، تريد الإِطلاقَ ، فشَدَّ عليها وعَنَفَ بها لَكْزاً ووَكْزاً ، فحارتْ عزيمةُ الفتاة ، ولم تُعُدْ تدفعه عنها ، بل لقد جعلتْ تتشبَّثُ بكتفيه ، كأنها تخشى أن يُفْلِتَ من بين يديها ! وكفَّ الفتى عن اللَّكْزِ والوَكْزِ ، وما برحتْ الفتاةُ متشبَّثةً به تنتحب ، فأخذ برأسها يرنو إليها ، فاستجابت له عيناها ، وتلاقَتِ النظراتُ ، وما هي إلَّا أن انهال عليها الفتى ضمًّا وتقبيلاً . . .



جَنَازَةُ هَارَةَ

تَقَدَّمَ « بَشِيرٌ أَا » يَهْدِي الطَّبِيبَ إِلَى مَضْجَعِ الْخَادِمِ الْمَرِيضِ
« مُصْطَفَى حَسَنٍ » ، وَمَا زَالَ يَتَعَرَّجُ مَعَهُ فِي طَوَايَا الدَّهْلِيزِ ، حَتَّى
أَوْفَى بِهِ عَلَى حَجَرَةٍ مُغْبَرَّةٍ تَتَنَاقَرُ فِيهَا الْمَقَادِرُ ، يَتَسَلَّلُ إِلَيْهَا ضَوْءُ الشَّمْسِ
مَهْزُولًا مِنْ كُوَّةِ ضَيْقَةٍ فِي أَعْلَى الْحَائِطِ . فَأَمَّا أَثَانُهَا فَلَيْسَ إِلَّا حُطَامًا
يُفْصِحُ عَنْ قَسْوَةِ الْأَيَّامِ . وَكَانَ أَبرَزَ مَا حَوَتْ الْحَجَرَةُ مِنْ أَثَانٍ
عَتِيقِ خِرَازَنَةٍ كَالْحَلَةِ نَخْرَةٍ لَا يَنَاسِبُ مَظْهَرُهَا مَا طُوِيَتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُهَا مِنْ
مَالٍ وَمَتَاعٍ

لَقَدْ كَانَ « مُصْطَفَى حَسَنٍ » شَحِيحَ الْيَدِ ، صَبُورًا عَلَى الْحِرْمَانِ ،
مَا إِنْ يَقَعُ فِي حَوَزَتِهِ قَدْرٌ مِنَ الْمَالِ ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ ضُرُوبِ الْمَتَاعِ ، إِلَّا
أَوْدَعَهُ خِرَازَنَتَهُ الْأَمِينَةَ ، وَرَاضَ نَفْسَهُ عَلَى حِرَاسَتِهِ لَا يَمَسُّهُ بَسْوَةٌ .
أَقْبَلَ الطَّبِيبُ عَلَى الْمَرِيضِ يَحْسُ نَبْضَهُ ، وَيَكْشِفُ عَنْ صَدْرِهِ ،
وَيَتَسَمَّعُ إِلَى شَهِيْقِهِ وَزَفِيرِهِ ، وَمَا أَسْرَعَ أَنْ سَجَّاهُ ، وَأَخَذَ يَبْدُ

« بشير أغا » ، فلما غادر الباب أنهى إليه أن المريض قد حان حينه ،
وأنه لم يبقَ له في هذه الدنيا الفانية إلا ساعتان .

وما كاد الطبيبُ يبارحُ الدار ، حتى سارع « بشير أغا » إلى
الطبقة العليا من القصر ، ليُنقِى مولاته ، وهو يُعاني جهداً كبيراً في
حَثِّ خطاه ، إذ كان بدينًا تحالَه غِرارةٌ قد حُشيتُ من لحمٍ وشحم .
فألقي السيدة تهتز ، وهي على سَجَّادة الصلاة ، تُرَتِّل ما تيسر من
كتاب الله ، وبين يديها مُقرئُها « الشيخة حفيظة » مُصغية إلى
التلاوة ، تراجعُها في أحكام التجويد من مدٍّ وغنةٍ وإدغام . . .
وإذ شعرت ربةُ القصر بِمَقْدَمِ « الأغا » أزاحت نظارتها الذهبية
عن أنفها ، ورفعت عن المصحفِ رأسها ، وقالت مستفسرة :
هل جاء الطبيب ؟

فأجابها الرجل ، مبهورَ الأنفاس : لقد حضر ، وانصرف . . .
فسألته : ماذا قال ؟

فأخذ يجفّف ما تفسّد من عرقه ، ويحاول أن يضبطَ أنفاسه
المكروبة . ثم قال حزين اللهجة ، ناكس الرأس : أبقى الله حياة مولاتي !
فعلا صوتُ السيدة بقولها في احتياج : أمات ؟
فأجابها « الأغا » : إنه يُسلمُ الرُّوح !

فَطَفَرَتْ مِنْ عَيْنِ رَبَّةِ الْقَصْرِ عِبْرَةً كَفَكَفَتْهَا بِمَنْدِيلِهَا ، وَهِيَ
تَقُولُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ !

فَتَبِعَتْهَا « الشَّيْخَةُ حَفِيزَةُ » تَجَهَّرُ بِصَوْتِهَا الْأَجَشِّ :
الْفَاتِحَةُ لِرُوحِكَ يَا « مُصْطَفَى حَسَن » .

وَاشْتَرَكِ الثَّلَاثَةُ يَقْرَءُونَ الْفَاتِحَةَ فِي ضِرَاعَةٍ وَتَخَشَّعُ ، ثُمَّ نَظَرَ
« بَشِيرٌ أَعَا » فِي سَاعَتِهِ ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهَا الْعَاشِرَةُ ، فَنَاجَى نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ :
سَيَمُوتُ « مُصْطَفَى حَسَن » فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ تَمَامًا . . .
حِينَ يَنْطَلِقُ مِدْفَعُ الظُّهْرِ !

وَعَادَ يَتَرَجَّحُ ، مُقْتَلِعًا قَدَمَيْهِ إِلَى حِجْرَةِ الْمَرِيضِ ، فَاتَّخَذَ مَجْلِسَهُ عَلَى
كُرْسِيِّ بِالْبَابِ ، وَجَلَسَ يَخْفَرُ الْحِجْرَةَ ، وَيَحْمِي خِزَانَتَهَا مِنْ يَدِ
السَّطَوِّ وَالْعَبَثِ .

وَحَانَتْ مِنْهُ نَظْرَةٌ إِلَى سَرِيرِ الْمَرِيضِ ، فَوَجَدَهُ قَدْ أَخَذَتْهُ غَيُوبَةٌ ،
فَهَمُّهُمْ يَقُولُ : الدَّوَامُ لِلَّهِ يَا « مُصْطَفَى حَسَن » !

وَانْسَاقَتْ بِهِ الذِّكْرِيَّاتُ تَعْرِضُ لَهُ حَيَاةَ ذَلِكَ الْمَرِيضِ مِنْذُ كَانَ صَبِيًّا
جَلَبَهُ الْمَرْحُومُ « الْبَاشَا » رَبُّ الْقَصْرِ ، وَعُغْنِي بِتَرْبِيَّتِهِ ، وَاتَّخَذَهُ خَادِمًا لِسَانِهِ
الْخَاصِّ ، فَزَلَّ مِنْ سَيِّدِهِ مَنْزِلًا حَسَنًا عَظُمَ بِهِ جَاهُهُ ، وَقَوِيَتْ كَلِمَتُهُ . . .
فَلَمَّا قَضَى « الْبَاشَا » نَحْبَهُ تَحَدَّثَتْ بِهِ الْحَالُ ، وَتَعَاوَرَتْهُ الْعُلَلُ ، فَتَهَاوَى مِنْ

كرسيه الرفيع ، حتى أصبح في القصر ممن يُرزقون لوجه الله !
وسرعان ما علمت حاشية القصر بنيا المريض الذي يُسلمُ
الرُّوح . . . فتقاطر الخدم والحشم من مختلف الأرجاء ، يتبينون
جَلِيَّةَ الخبر ، فاعترضهم « بشير أغا » راصداً للباب ، يضرب بعصاه
الأرض ، إرهاباً لمن تُحدثه نفسه بالإقتراب . فجعل الخدم يتدانون
من « الأغا » في خشية ، وهم يسألونه في تشوُّف :

هل مات « مصطفى حسن » ؟

فكان يجيبهم في إباء وترفع : إنه يُسلمُ الرُّوح !

وأخيراً نَمَى الخبر إلى « عمّ مدبولي » البستانيّ ، وهو شيخ علتُ
به السنّ ، لا تترك الشُّبْحَة يده ، ولا فتورَ لثغره عن التمتة بالأدعية
والإبتهالات . فجاء إلى الحجرة يتعرّف ويستطلع ، وسوّى له مكاناً على
أديم الأرض ، بجوار كرسيّ « الأغا » ، وجلس القُرْفُصَاء . . . وما
أسرع أن اهتزَّ منخرطاً في أدعيته وتسبيحاته !

وكان « الأغا » يطمئن إلى صُحْبَة ذلك الشيخ ، ويأنسُ بمجاذبته
الحديث ، فلم يَضِقْ بمقدّمه عليه الساعة ، بل لقد أمال إليه رأسه يقول
في همس : سيموت « مصطفى حسن » بعد قليل . . . تُرى ماذا نفعلُ
بِترِكَته ؟ ألا يُحسِن أن نوزّعها على الخدم بالعدل والإنصاف ؟

فما إن سمع الشيخُ كلمة « التَّرِكَة » حتى التمتُ عينه ، وأخذ
يُخَلِّلُ لحيته بأصابعه ، وقال مُسَبِّلاً جفنيّه :
افعلْ ما تراه خيراً يا سيدي ...

— سأستخلص لك حِذَاءً جديداً ، وجِلْبَاباً قَشِيباً ، ودِثَاراً من
الصُّوف ...

وثمةَ همهم الشيخُ يقول :

قلتُ لك افعلْ ما تراه خيراً يا سيدي ... كلنا مطمئنون إلى
عدالة حُكْمِكَ ... ولكن لا تنسَ نصيبك من التَّرِكَة !
— الحقُّ أنني لا مَطْمَعَ لي في شيء ... كلُّ ما أنا صانعُه أن
أأخذ صُرَّةَ النقود ، فأرفقها إلى مولاتي بما فيها من قليل أو كثير ،
لتتصرف في شأنها كما تهوى ...

وترامى هذا الحِوَارُ إلى سَمْع « محمدین » رئيسِ الخدم ، فتدانى
منهما ، وقال « للأُغا » في لهجة استعطاف :

أرجو أن أكونَ في ذا كرتك يا سيدي !

— وهل أنساكَ يا « محمدین » ؟ إني مختصُّك بما في حَوْزَة

« مصطفى حسن » من الخِفافِ الحُمْر ، فقد كان ولوعاً بها ، يحسن
انتقاءها ، وعنده منها عددٌ جَمٌّ ...

فصاح « محمدين » وقد انتفخت وجنتاه ، وارتعشت شفتاه :
أطال الله بقاءك . . . ولكن ألا يكون المطرف الجديد
من نصيبى ؟

— وهذا أيضاً . . . لا أحرملك إياه ، ما دمت فيه راغباً .
فأهوى الرجل برأسه على كتف « الأغا » فقبلها قبلة انشراح ،
واعتراف بالجميل . . . وانصرف رئيس الخدم عجالات ، وثأب
الخطأ . . .

فما أسرع أن أقبل بعده « عبد القوى » السقاء ، يقول مهتاج
النبرات :

لقد أديتُ للمرحوم أجلّ الخدمات . . . أليس لى فى تر كته حق ؟
فصاح « الأغا » بحبيبه : ما أغباك ! أترانى نسييتك ؟ !
فاطمأنت نفس الرجل ، وقررت بلابله ، وتكلم فى ملاطفة وتمليق :
سيدى « الأغا » حفظه الله يعلم أنى قنوع . يرضينى أى شىء . . .
لا أرجو إلا بعض التوافه . . . فأولا : الحذاء الأسود الذى كان للمرحوم
« الباشا » من قبل ، ولم يلبسه « مصطفى حسن » حتى اليوم . . .
وثانيا : الطربوش الجديد الذى اشتراه « مصطفى حسن » للعيد الماضى

ولم يضعه على رأسه بعدُ . وثالثاً : القُطْنِيَّةُ الْمُعْصِفَرَةُ التي بقيتْ مَصُونَةً
لم تَمَسَّهَا يَدُ الْخِيَاطِ ! ... ورابعاً ...

وهنا تحرك الشيخ البستاني ، وهو في جِلْسَةِ الْقُرْفُصَاءِ ، وأمسك
عن أدعيته ومناجياته ، وثار صوته مغضباً يقول :

أنتَ لا تريد أن تترك لسواك شيئاً ... دع الأمرَ لحضرة «الأغا»
فهو يوزع الأشياء بالسَّوِيَّةِ والحِكمة ... الخدم في القصر كثير ...
أين نصيبُ القارئ؟ أين ما يأخذه الطاهي؟ أين ما يناله البواب؟

وفي هذه اللحظة نَجَمَ صوت المريض متداعياً يحاول أن يشقَّ طريقه
إلى الباب ، كأنه صوت ينبعث من قبر ... فأرهف الجمعُ السمعَ ،
فإذا هو « مصطفى حسن » ينادي ، قهض «الأغا» يجفف عرقه ،
وغغم : لقد دنت الساعة الفاصلة ... الرجل يُسَلِّمُ آخرَ الأنفاس !

واستدار «الأغا» يَزْحَمُ البابَ بِجَرِّهِ الضخم ، ودخل يقفوا أثره
بعض خُدَّام القصر وحاشيته ، فأحاطوا بمضجع المريض المحتضر ، فندَّتْ
عنه اختلاجة طارئة ، وأمسك بيد «بشير أغا» وهو يضغط عليها جُهداً
ما يستطيع ، ثم قال متقطع الأنفاس : ماذا قال الطبيب؟ ماذا في
الأمر؟ سمعتُ حديثاً في شأن تَرِكْتِي !

فنكَّسَ «الأغا» رأسه هُنَيْهَةً ، وهو يربّتُ كَتِفَ المريض ،

وَيَلُوكُ بَيْنَ شِدْقَيْهِ كَلِمَاتٍ فِي غَيْرِ إِبَانَةٍ ، فَاثْتَقِعَ وَجْهَهُ « مُصْطَفَى حَسَن »
وَانْتَضَمَتْ جِسْمَهُ الرُّعْدَةُ ، وَأَدْرَكَتْهُ نَوْبَةُ سُعالٍ وَشَهيقٍ أَسْلَمَتْهُ إِلَى
غَيْبُوبَةٍ شَامِلَةٍ !

وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْجَمْعِ فِي أَنْ الْمَرِيضَ قَضَى ، فَأَخَذَتْهُمْ
غَاشِيَةٌ مِنَ الرُّهْبَةِ ، عَقَدَتْ أَلْسِنَتَهُمْ جَمِيعًا ...

وَبَعْدَ فِتْرَةٍ شَخَصَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَى « الْأَغَا » فَقَطَّنَ إِلَى مَا يَعْنُونَ ، فَدَنَا
مِنَ الشَّيْخِ الْبُسْتَانِيِّ ، وَأَسْرَّ إِلَيْهِ كَلِمَاتَ ، فَاقْتَرَبَ الرَّجُلُ مُرْعَشَ الْأَصَابِعِ ،
يَبْحَثُ تَحْتَ وَسَادَةِ الْمَرِيضِ عَنْ مِفْتَاحِ الْخِزَانَةِ .

وَبَيْنَا هُوَ يَتَحَسَّسُ ، انْفَرَجَتْ أَجْفَانُ الْمَرِيضِ ، فَبِهِتَ الشَّيْخُ أَوَّلَ
وَهْلَةٍ ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ قَالَ فِي وَدَاعَةٍ وَتَحَنُّنٍ : هَاتِ الْمِفْتَاحَ يَا « مُصْطَفَى »
أَخْرِجْ لَكَ الدِّثَارَ الصُّوفِيَّ ، فَإِنِّي أَجِدُكَ مَقْرُورًا .

فَاخْتَلَجَتْ شَفَتَا الْمَرِيضِ بِقَوْلِهِ :

دَعُوا الدِّثَارَ مَصُونًا ... لَا ضَرُورَةَ لِإِبْتِدَالِهِ ... سَأَحْتَاجُ إِلَيْهِ

فِي قَابِلِ الْأَيَّامِ !

وَبَدَأَ وَجْهُهُ مُتَقَلِّصًا ، كَأَنَّهُ فِي إِجْهَاشَةٍ مُبْكَاءٍ ، وَشَدَّ عَلَى يَدِ

الشَّيْخِ الْبُسْتَانِيِّ ، وَحَدَقْتَاهُ تَدْوِرَانِ ، وَصَوْتُهُ يُخَوِّنُهُ فِي إِبْلَاغِ قَوْلِهِ :

لا أريدُ أن أموتَ . . . صحتي تتحسنَ ... أوْ كد لك أن صحتي
تتحسّن ...

واشتعلتْ في جُسمَانِه نشْطَةٌ وَحِمِيَّةٌ ، فعالج أن يستندَ إلى شيخ
البستان ليجلسَ ، وهو يقول : أريد أن أتركَ الفراشَ . . . أريد أن
أتمشّي في الحجرة خطوات . . . أشعر بأنّي أستطيع القيام !
وفي هذه اللحظة اختنقَ صوتهُ ، وسقطَ على الوسادةِ رأسُهُ ،
وجعل صدرُهُ يعلو ويهبط ، وأوصاله تتشنج . . . ثم انفتحَ فمه يلتمسُ
الهواءَ في إلحاح ، وانتظمتْه انتفاضةٌ كخطفة البرق فاضتُ بها الرُّوح .
فأقبل الشيخ البستانيّ يبسطُ عليه غِطاءه ، ثم دسَّ أناملَه في طوايا
الوسادة ، فاستخرج المفتاح ، ومدَّ به يَدَه إلى « الأغا » في تُوَدَّةٍ
وخشوع .

وأصدر « الأغا » أمره فوراً بنقل الخزانةِ خارجَ الحجرة ، فتجمعَ
الرجال يتقاسمونَ جوانبها حملاً ونقلاً ، ولكنها أفلتتْ من بين أيديهم ،
فهوتْ على الأرض متحطّمةً ، فأنكشفَ فيها بعضُ ما حوتْ من
ضروب المتاع . . . فمدَّ أحدُ الرِّفاقِ يَدَه خُلْسَةً يجتذبُ منها شيئاً ،
فلمحه آخر ، فحذا حدّوه ، وماهى إلا أن ترمى الجمعُ على الخزانة
يتخاطفون ما فيها . وَحِمِيَّتْ معركة التناهب ، فاختلط الرِّفاقُ بعضهم

ببعض يتنافسون ، وتشابكت الأيدي تتدافع وتتنازع ، وتعالَتْ
الأصواتُ تحملُ ألفاظَ المشاتمة والسَّباب .

ووقع في رُوع « الأُغا » أن صُرَّةَ النقود في خطر ، فانبهرى يرسل
من حلقه صيحة الإمرّة ، راغباً إلى الجُمع في أن يَكُفُّوا عن السلب
والإغتصاب ، فلم يُعرِّه أحد من الرفاق جانبَ انتباه . . . وهل أبقتُ
الفريسةُ لهذه الذئاب الجِياعِ سَمْعاً يَعي ؟ لقد كان الرِّفاق في شُغل بما
بين أيديهم من غَنِيمةٍ مستباحة ، من ظَفِرٍ منها بشيء فهو له مَتاع !
وجنَّ جنون « الأُغا » فلم يجد مندوحةً عن الإقدام واللاقحام .
فهجم مستبسلًا مستئيّساً يخوضُ المعركة بكل ما وهبته الطبيعةُ من
جوارح ، تارةً يزحُمُ بِمَنَكَبِيه ، وطوراً يدفع بساعديه ، ومرة يَكسَعُ
برجليه ، حتى إنه لم يُعَفِ أسنانه من أداء واجبها في هذا العِراك !

وتاح له بهذه الوسائل أن يَشُقَّ طريقه إلى الخزانة ، فلما اقترب منها
ترامى عليها بِجُسمَانِه الضخم ، يحجبها عن الجمع ، وشرع يُعْمِلُ أصابعه
في جنباتها يَنْبُشُ ويتفَقِّدُ ، فلما عَثَرَ على ضالَّته المنشودة ، أسرع إليها
يدسُّها في جيبه ، ونهض عن الخزانة وقد خَفَّتْ حَدَّتُهُ ، وبطلت صَوْلَتُهُ ،
وانصرف يَمُطُّ شفتيه للرفاق ، وينعى عليهم ما طُبِعَتْ عليه نفوسُهم
من ضعف الوفاء ، وقلة المروءة ، وسوء الأخلاق !

وصَعِدَ « الأغا » إلى طبقة القصر العليا ، يُنْهِى إلى مولاته نبأ
الوفاة ، ويسألها ما يصنع في شأن الجِنَازَةِ ، فترحمُ السيدةُ على
الفقيد ، وناولتُ « الأغا » قدراً من المال للإِنفاقِ منه في هذا الشأن ،
وأوصته بالعناية والاهتمام . . .

وعاد « الأغا » إلى حجرتِه ، فأحكم إغلاقَ بابِها وراءه ، وبسط
الصُّرَّةَ أمامه ، فتناثرتُ النقودُ الذهبيةُ متوهِّجَةً رَنَانَةً ، فطفقَ يتوسَّمُها
ويعُدُّها ، فإذا هي مائة كاملة ، فأقبل يكرِّرُ عَدَّها مَشْنَى وَثَلَاثَ
وَرُبَاعَ ، وهو واجفُ القلبِ من فرحة واغتيباط . . .

وفي أصيَل ذلك اليوم خرجتُ من باب القصر جِنَازَةً
« مصطفى حسن » مكتملةً علائمُ الأُبَّهةِ ، مُشْعِرَةً بعظيم الإِعزاز ،
يتقدمها حَمَلَةٌ القماقم والمباخر، وهم رَتَلٌ منظمٌ في سِمَطَيْنِ كأنهما صَفَّانِ
من الجند . . . ومن خلفهم النَّعْشُ تُجَلِّدُهُ المطارفُ المزخرفَةُ ، وهو يتمايل
على الأَكْتافِ ، كأنه يتخطَّرُ في خِيَلَاءٍ . . . ومن حوله القرَّاء تنطلق
من حناجرهم الأدعية والصلوات ، كأنهم يَزُقُّونَ الراحلَ إلى مقرِّهِ
الأخير !

وتصدَّر المشيِّعين خُدَّامُ القصر ، على رأسهم « الأغا » وهو يسير

وَزَيْنَ الْخَطَا ، رَزَيْنَ السَّمْتَ ، يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاهُ ، كَأَنَّمَا هُوَ قَائِدٌ يَقْفُوهُ
الْجَيْشُ فِي سَاحَةِ عَرْضٍ مَهِيْبٍ . . .

وَقَدْ أَبَى خُدَّامُ الْقَصْرِ إِلَّا أَنْ يُشَيِّعُوا رَفِيقَهُمُ الرَّاحِلَ بِمَا يَلِيْقُ ،
تَكْرِيْمًا لَهُ فِي يَوْمٍ وَدَّاعِهِ الْأُبْدِيَّ ، فَلَمْ يَجِدُوا خَيْرًا مِنْ مَلَابِسِهِ وَأَشْيَائِهِ
وَمُقْتَنِيَّاتِهِ يَرْتَدُّونَهَا وَيَتَحَلَّوْنَ بِهَا . فَظَهَرَتِ الْجَنَازَةُ بِهَيْئَةِ الشَّارَةِ ، أُنِيقَةً
الْمَظْهَرِ ، كَأَنَّمَا عُرُوسٌ يُحْمَلُ مَعَهَا جِهَازُهَا حِينَ الزَّفَافِ !



... طريق إلى الحب

« عباس فريد » الطالب بالمدرسة الخديوية ، أو « عباس بك فريد »
نجل المرحوم « عبد السلام باشا فريد » فتي في السادسة عشرة ، رزين
السمت ، وديع الأخلاق ، لا عهد له بعد بمغامرات الشباب ،
مغامرات الحب والنساء . . .

وكان لأسرة الفتى معنىً أنيق في « رمل الإسكندرية » تقضى
فيه فترة الاصطياف كل عام . فما إن فرغ الفتى من أيام الامتحان ،
واختتم عامه الدراسي ، حتى شد رحاله إلى معنى الأسرة في الثغر ،
يستوعب حظه من متع الشاطئ ، فيستحم ويتنزه ، ويرتاد ملهى
« الكازينو » ، ويختلف إلى دور السينما والمسارح ، يشارك رفاقه
من الفتيان ما ينعمون به من فنون المسرات .

أطلق « عباس » من نافذة حجراته المشرفة على البحر ، وعلت
وجهه إشراقة ، وهو يرمي بطرفه فيما حوله ، مرحباً بتلك الحياة الأنيسة
التي طال إليها تحنانه طوال أشهر الشتاء .

واتخذ الفتى مجلسه على مقربة من النافذة ، وفي يمينه قصّة يطلب
السّلوّة بقراءتها ، ولكنه ما كاد يخطو فيها بضع صفحات ، حتى
اختلفت عليه مشاهدتها ، فألقى بها في ملل ، وبقي يفكر فيما أصابه
اليوم من فوز حين خرّج إلى البحر مع أصحابه يتسابقون بالقوارب ، فلم
يستطيعوا اللحاق به ، وظل هو السابق الأول .

وفيا هو يسرّح بصره في أرجاء البحر الممتاح ، عرضت منه التفاتة
إلى حديقة الدار المجاورة ، فألقى بنت صاحب الدار تجوسُ خلالها ،
وهي فتاة أجنبية اعتاد « عباس » أن يراها حيناً بعد حين ، كما يرى
أثاث المنزل ، أو أشجار الحديقة . وما كان ليشفاهُ منها شيء ، فإنه
مزدحم الخاطر بما يراول من رياضات ينافسُ فيها الرّفاق .

وبينا هو على هذه الحال ، إذ انفرج الباب فجأة ، وبدت منه
والدة الفتى وفي عينها شرر ، وعلى وجهها غبرة الغضب .

فابتدرته تقول في لهجة الحنق :

طالما نهيتك أن تمدّ عينيك إلى النساء . . . طالما رغبتُ إليك في
أن تكون مؤدّباً مهذباً الأخلاق . . . إلى متى تظلُّ في غوايتك ؟
فدهش الفتى ، وأنكر من أمّه أن تتعمّده بهذا التعنيف وسألها :
أيّ نساء تعنين ؟ أقسم بالله العظيم إنه لم يكن من ذلك شيء !

— كذاب أنت !

وعَزَّ عَلَى الْفَتَى أَنْ يُتَّهَمَ ظُلماً ، وَأَلَّا تُصَدِّقَهُ أُمُّهُ فِيمَا يَنْفِيهِ مِنْ
هَذَا الْإِتِّهَامِ ، فَكَسَتْ وَجْهَهُ غِشَاوَةً مِنْ كَأْسٍ وَاعْتَمَامَ .

فَتَدَانَتْ مِنْهُ الْأُمُّ ، وَقَدْ أَدْرَكَهَا عَلَيْهِ بَعْضُ إِشْفَاقٍ ، قَائِلَةً لَهُ :
إِنِّي أَبْغِي خَيْرَكَ يَا «عَبَّاسُ» ... أُرِيدُكَ شَابًّا عَلَى خَلْقٍ كَرِيمٍ ...
اصْدُقْنِي ... لَقَدْ كُنْتَ تَبْتَسِمُ لِبَنَاتِ الْجِيرَانِ ... أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟
فَحَدَّقَ الْفَتَى فِي وَجْهِهَا صَاحِحًا :

لَمْ أَكُنْ أَبْتَسِمُ لِأَحَدٍ ... لَقَدْ تَذَكَّرْتُ شَيْئًا سَرَّتَنِي فَأَبْتَسَمْتُ !
فَرَبَّتْ الْأُمُّ كَتِفَهُ فِي مِلَاطِفَةٍ ، وَهِيَ تَقُولُ :
أَنْصَحُ لَكَ يَا بُنَيَّ أَنْ تَتَجَنَّبَ هَذِهِ الْفَتَاةَ !

— لَا شَأْنَ لِي بِأَحَدٍ ...

— ذَلِكَ أَمَلِي فِيكَ .

وَانصَرَفَتْ الْأُمُّ مِنَ الْحَجَرَةِ ، بَعْدَ أَنْ طَبَعَتْ عَلَى جَبِينِ ابْنِهَا
قُبْلَةً حَنَانٍ ... وَابْنُهَا يَتَّبَعُهَا بِنَظَرَةٍ مِلْؤُهَا التَّعَجُّبَ ، وَهُوَ يَهْمُهُمْ :

سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ !

وَاتَّبَعَهُ «عَبَّاسُ» مِنْ نَوْمِهِ فِي رَوْتَقِ الصَّبَاحِ ، نَاشِطًا يُرِيدُ أَنْ

يَعْبَلُ إِلَى ظِلَّتِهِ عَلَى شاطئِ الْبَحْرِ ، لِيَأْتِيَ الرَّفَاقَ ، وَيَقَاسِمَهُمْ مَبَاهِجَ
الِاسْتِحْمامِ .

وفيا هو يتخطى عتبة الدار ، أخذت عينه « بنت الجيران » تحمل
لَفِيفَةً حوت لبؤس البحر ، فأسرع ماضيا عنها ، متجنباً مرآها ، وقد
حضره ما دار بينه وبين أمه من مُسَاجَلَةٍ في شأن هذه الفتاة .

وفي عصر يوم صادف « عباس » صديقه « مراد » في
« الكازينو » فترافقا يتحدثان . وما إن خطوا بعض خطوات حتى
مرَّ بهما سِرْبٌ من الصبايا يتضاكنن ، فنظر « مراد » إلى إحداهن ،
وأسرع إليها يحییها ويطارحها الكلامَ في بَشَرٍ وإيناس . ورجع
إلى صديقه ، فألفاه واقفا ثجاة البحر ، يُلَوِّحُ عليه التزمّت والجدُّ ،
فقال له : كان بودى أن أعرفك بصاحبتى !

— لا شأن لى بصاحبتك .

— ولماذا ؟ إنها فتاة لطيفة . . .

— دَعْنِي من سخافتك !

فعمجب « مراد » من قوله ، وَحَدَّقَ فيه يقول :

ما زلتَ طفلا يا « عباس » !

وبغثةً بدت « بنت الجيران » على مقربة من الرفيقين ، وهى

تَهَادَى فِي لُحْمَةٍ مِنَ الصُّوَرِ يَحْبَاتُ . فَشَدَّ « مراد » عَلَى يَدِ رَفِيقِهِ ،
قَائِلًا لَهُ : هَذِهِ جَارَتُكَ . . . مَا أَمْلَحَهَا مِنْ فَتَاةٍ . . . وَدِدْتُ لَوْ تَمَّ
بَيْنَنَا تَعَارُفٌ !

فَلَوَى « عَبَّاسُ » رَأْسَهُ ، حَتَّى لَا تَقَعَ عَلَى الْفَتَاةِ عَيْنُهُ ، وَغَمَغَمَ
يَقُولُ لـ « مراد » : بَرَبِّكَ اتْرُكْ هَذِهِ الْفَتَاةَ وَتَسَانَّهَا !
وَسَارَ حَثِيثًا ، يَجْرُ رَفِيقَهُ جَرًّا . . .

وَمَا أَوْى « عَبَّاسُ » إِلَى بَيْتِهِ فِي الْمَسَاءِ ، أَنْكَرَ مِنْ أُمِّهِ جَهَامَةً
تَوَضَّعَتْ عَلَى مُحَيَّيَّاهَا ، لَمْ يَدِرْ لَهَا سَبَبًا . . . فَلَمَّا أَصَابَ عَشَاءُهُ ، وَهَمَّ
أَنْ يَمْضِيَ إِلَى حَجْرَتِهِ ، رَغِبَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ فِي أَنْ يَتَّبَعَهَا إِلَى حَجْرَتِهَا
الْخَاصَّةِ بِهَا ، فَانْقَادَ لَهَا . وَمَا كَادَتْ الْحَجْرَةُ تَحْتَوِيهِمَا حَتَّى أُسْرِعَتْ الْأُمُّ
تَقُولُ : مَا بَرَحْتَ عَلَى هَوَاكَ يَا « عَبَّاسُ » . . . لَا تُتْلَقِ لِنَضْحَى بِالْأُفُقِ !
— كَيْفَ ؟

— لَقَدْ حَذَرْتُكَ النَّظَرَ إِلَى بِنْتِ الْجِيرَانِ .

— وَمَاذَا كَانَ مِنْهُ ؟

— لَقِيتَهَا صَبِيحًا ، فَبَادَلْتُهَا النَّظَرَ وَالْإِبْتِسَامَ .

فَصَاحَ الْفَتَى : أَنَا مَا نَظَرْتُ وَلَا ابْتَسَمْتُ !

فَقَاطَعَتْهُ الْأُمُّ تَتَابَعُ قَوْلَهَا : وَتَلَاقَيْتُمَا عَصْرًا ، وَأَنْتَ فِي صَحْبَةِ « مراد »

تَذَرَّعَانِ « الكازينو » ذهاباً وَجِيئَةً . . . فكان من تحيَّتك لها
واهتمامك بها ما كان في الصَّبَّاح !

فرَّع الفتى صوته قائلاً : لم يكن الأمرُ على هذا النحو .
وشرع « عباس » يقصُّ على أمه في تُوْدَةٍ ما جرى له في يومه ،
وما كان من تجافيه عن النظر إلى الفتاة ، فلم تهمله الأم ليستكمل روايته ،
ولكنها عاجلته بقولها في لهجة صارمة : هذه آخر مرة أحذرك فيها
وأذكرك . . . أترضى لنفسك أن تتعلق بفتاة لا هي من جنسك ، ولا
هي لائقة بك ؟ لعمرى لو فعلتَ لذهبَ مستقبلُك أدراجَ الرياح !
— عجيبٌ ما تقولين يا أماه . . . لا تعلقِ لى بهذه الفتاة . . .
لا تعلقِ لى بأحدٍ على الإطلاق !

وانفقل من الحجرة غضبانَ أسِفًا ، يفكِّر : كيف تَسَنَّى لأمه أن
تعرفَ من أمره ما عرفتْ ؟ وسرعان ما أُلْقِيَ في رُوعِهِ أن أخته
الصغرى هي التي دبجتْ هذه الوِشَاية وحملتْها إلى أمه لتنتقمَ منه ، فكثيراً
ما ضاقتُ بما له عليها من سلطان ، وكثيراً ما تبرمتُ بما يُلْزِمُها به من
أمر ونهى ، فأقسم بينه وبين نفسه لِيُحْسِنَنَّ تأديبها ، وليبالِغَنَّ في عقابها
على هذه الفعلة الشنعاء .

وصباحاً خرج « عباس » إلى الشُرْفَةِ ، يَتَمَلَّى مَنَظَرَ البحر ، فألقى

«الست إقبال»... ضيفة البيت ، تلك التي تؤنس أمه بحديثها العذب
وما يتخلله من دُعابات وأفأكيه ، فقد كانت في عصر شبابها الغارب
سبّاقة في مغامرات الحب والهيام . . . وما كاد يراها « عباس » حتى
أقبل عليها قائلاً : ماذا تفعلين يا « ست إقبال » ؟

— أرتقُ ثوبي المهمل . . . إن جيبى أصبح كقلبي خالياً . . .
فمن أين لي بثوبٍ جديد ؟

ثم جعلت تطيل النظرَ إليه ، وعلى فمها ابتسام مُريب .
فقال لها في تعجُّب : ما لكِ تنظرين إلىَّ على هذا النحو ؟
— حقاً لقد تغيرتَ يا « عباس » !

— تغيرتُ ؟

— أجل ، كبرتَ . . . ولكن ما بالُ وجهك يكسوه شُحوب ؟
ومالكِ تنطوى على نفسك ، كأنك في حيرةٍ وقلق ؟
ثم رنت ضحكتها النَّسْوية العائِثة ، وهي تقول :

إن قلبك كجيبك ملآن . . . والحب كالذهب يشغل البال !
فحدّق فيها « عباس » تعرّوه دهشة ، وما لبثت « الست إقبال »
أن ألقت ما كان في يديها على المنضدة ، ونهضت تأخذ بكتفِ الفتى ،
وتهمس في أذنه :

تَذَرَّعَان « الكازينو » ذهاباً وجيئةً . . . فكان من تحيتك لها
واهتمامك بها ما كان في الصباح !

فرفع الفتى صوته قائلاً : لم يكن الأمرُ على هذا النحو .
وشرع « عباس » يقصُّ على أمه في تُوْدَةٍ ما جرى له في يومه ،
وما كان من تجافيه عن النظر إلى الفتاة ، فلم تمهله الأم ليستكمل روايته ،
ولكنها عاجلته بقولها في لهجة صارمة : هذه آخر مرة أحذرك فيها
وأندرك . . . أترضى لنفسك أن تتعلق بفتاة لا هى من جنسك ، ولا
هى لائقة بك ؟ لعمرى لو فعلت لذهب مستقبلك أدراج الرياح !
— عجيبٌ ما تقولين يا أماه . . . لا تعلق لى بهذه الفتاة . . .
لا تعلق لى بأحدٍ على الإطلاق !

وانفتل من الحجرة غضباناً أسفاً ، يفكر : كيف تسنى لأمه أن
تعرف من أمره ما عرفت ؟ وسرعان ما أُلقيَ في رُوعه أن أخته
الصغرى هى التى دجبت هذه الوشاية وحملتها إلى أمه لتنتقم منه ، فكثيراً
ما ضاقت بما له عليها من سلطان ، وكثيراً ما تبرمت بما يلزمها به من
أمر ونهى ، فأقسم بينه وبين نفسه ليُحسِنَنَّ تأديبها ، وليبالغنَ في عقابها
على هذه الفعلة الشنعاء .

وصباحاً خرج « عباس » إلى الشرفة ، يتملّى منظرَ البحر ، فألقى

«الست إقبال»... ضيفة البيت ، تلك التي تؤنسُ أمّه بحديثها العذب
وما يتخلله من دُعابات وأفاكيه ، فقد كانتُ في عصر شبابها الغارب
سبّاقةً في مغامرات الحب والهيام . . . وما كاد يراها « عباس » حتى
أقبل عليها قائلاً : ماذا تفعلين يا « ست إقبال » ؟

— أرتقُ ثوبي المهمل . . . إن جيبى أصبح كقلبي خالياً . . .

فمن أين لي بثوبٍ جديد ؟

ثم جعلتُ تطيل النظرَ إليه ، وعلى فمها ابتسام مُريب .

فقال لها في تعجُّب : ما لكِ تنظرين إلىّ على هذا النحو ؟

— حقاً لقد تغيرتَ يا « عباس » !

— تغيرتُ ؟

— أجل ، كبرتَ . . . ولكن ما بالُ وجهك يكسوه سُحوب ؟

ومالكِ تنطوى على نفسك ، كأنك في حيرة وقلق ؟

ثم رنت ضحكتها الذسوية العابثة ، وهي تقول :

إن قلبك كجيبك ملآن . . . والحب كالذهب يشغل البال !

فحدّق فيها « عباس » تعرّوه دهشة ، وما لبثت « الست إقبال »

أن ألقت ما كان في يديها على المنضدة ، ونهضت تأخذ بكتفِ الفتى ،

وتهمس في أذنه :

لا تَثْرِيْبَ عَلَيْكَ . . . كل فتى فى مثل سنّك يَعْشَقُ . . .
ما أحلى الحبِّ فى مِيعَةِ الشَّابِّ !

وحانت منها الفتاة إلى الحديقة المجاورة للدار ، فوقع بصرُها على
« بنت الجيران » تَجُوسُ خلالَ الشجر ، فغمزت المرأة يد الفتى ،
وهى تقول مهتاجة النبرات :

انظر . . انظر . . ما أحلاها . . . يا بختك يا « عباس » !
فتضرَّجَ وجهُ الفتى ، واتَّهَرَ « الست إقبال » ، وغادر المكانَ
مسرَّعَ الخطوات ، فأوى إلى حجرتِه ، وقد أحسَّ بخواطره تتزاحم ،
يلوح بينها طيفُ الفتاة ، كأنما يتدأنى منه فى ملاطفة وإشراق .

وبينما كان الفتى بعد هدأةٍ من الليل يسير إلى مرقدِهِ ، مرَّ فى
طريقه بحجرة الخدم ، فاسترعى انتباهَهُ همس يتناثر فيه اسمه ، فوقف
يتسمَّع ، فإذا بالخدم يخوضون فى حديث عنه مقرونٍ باسم « بنت
الجيران » ، وهم يتكلمون فى نشوة وإعجاب . . . فلاحَتْ على وجهه
بسمةُ ارتياح ، ومضى خفيفَ الخطو يترنَّم ، وماهى إلا أن احتواه
فراشه يهنأ بأحلام عذاب .

وفى الغداة استيقظ من نومه يفتح النافذة ، فترأت له « بنت
الجيران » فى شُرْفَةٍ بيتها أمامه ، فلم يتراجع ، بل ظل فى موقفه يتملأها

فإذا هما بغتةً يتطارحان النظر ، وما لبثا أن ابتسم كلاهما لصاحبه في
رقة وتلطُّف . . . وبعد لحظات غادرت الفتاةُ الشرفة ، فترك « عباس »
النافذةَ مترنحَ الأعطاف ، خفاقَ الفؤاد .

وتواصلتُ الأيام ، فلم تبقَ شرفة أو نافذة في البيتين المتجاورين
إلا سجلتُ في حَيْطَةٍ وحَذَرَ ألواناً من التحايا ، وفنوناً من البسمات ،
يتراسلُ بها القلبان الطَّروبان !

وأحسنَ الخدم أن الفتى ينسلُّ من حجرة فراشه في جوف الليل ،
فيسارقُ الخطأ في مساترة واحتراس ، ووجهته حديقةُ الجيران . . .

مسطرة "مبروك افندي"

يارح التلميذ « دُعيس الكومي » منزله في رَوْنَق الصبح ،
أخذاً سَمَتَه إلى حارة « كفر الطاعين » حيث تقع « مدرسة المَكْرُمَاتِ
العالية » التي يتلقّى فيها تعليمه الإبتدائي . ولما قارب دارَ المدرسة أُلْفَى
رفاقه منتشرين هنا وهناك ، يتحدثون ويتلاعبون ، انتظاراً
لدَقَاتِ الناقوس .

واسترعى انتباهه لفيف منهم قد أحذقوا بعربة « عم عُصفور »
بائع الحلوى وأدوات الكتابة ، فاندسّ بينهم يتبين ما يشترون ، وما
ليث أن ابتاع من الرجل قطعة من « الشكولاته » حشاً بها فمه
على الفور .

وراعه مما احتوته العربة طائفة من أقلام المِداد زاهية الألوان ،
ساطعة اللعان . . . فرنا إليها في شغف ، ولم يستطع مغالبة نفسه ،
وهي تراوده أن يظفر بواحد منها ، فأقبل على « عمّ عُصفور » يسأله ،
وقد أشار إلى قلم وقع عليه اختياره : أرني هذا القلم . . .

— أترید شراءه ؟

— سأنظر .

— إنه لا ینفعك . . . هو للمدرّسين وللتلاميذ الکبار .

— دَعْنِي أَرَهُ . . .

فانتزع الرجل هذا القلم المختارَ من بين الأقلام ، ودفع به إلى الصبيّ ، فأخذه منه يقلبه بين يديه مشبوبَ النفس ، وسرعان ما تذكّر أن معلّم الإماء يحمل مثل هذا القلم ، عامراً بمداد أحمر . فالتمعت عيناه ، وخفق فؤاده ، وضرب بيده في جيبه يعدّ ما فيه من النقود ، فإذا هي بضعةُ قروش ، فهمهم قائلاً : بكم هذا القلم يا « عم عصفور » ؟
— بثلاثين قرشاً . . .

فبهِتَ الصبيّ ، واهتزّ القلم في يده ، ولم يجد بُدّاً من أن يعيده إلى الرجل في أسف وحسرة ، فعاجله البائع مستدرِكاً يقول :
ولكنني من أجلك أبيعُك إياه بخمسةَ عشرَ قرشاً . . . بنصفِ ثمنه . . . أنت زبُونُ حَسَنُ المعاملة !

فأخرج الغلام كل ما في جيبه ، وجعل يُحصي قروشه ، فألفاها خمسةَ كاملة ، فألقى بها إلى الرجل ، وهو يقول له :
هاك ما معي الآن . . . وغداً أنقذك ما بقي .

- لا بأس يا سيّد « دعبس » . . . طَلَبُكَ مُجَاب .
— ولكن لا بدّ للقلم من مداد أحمر !
— إليك زجاجة بقرش ، يبيعهما غيرى بثلاثة قروش .
— شكراً لك يا « عم عصفور » . . . موعداً غداً إن شاء الله .
وانطلق الصبيّ بالقلم وزجاجة المداد ، يتواثب نحو المدرسة ،
والدنيا لا تسع فرحته وابتهاجه .

وما كاد الصبيّ يأخذ مكانه من فصله ، حتى أعلن الناقد
ابتداء الدراسة ، فتوافد التلاميذ على فصولهم ناشطين ، فلم يستطع
الصبيّ إلا أن يُخْفِيَ القلم في جيبه والزجاجة في قمطره ، تاهباً
لاستقبال الدروس .

على أنه لم تكد تحلّ فترة الراحة بين الحصص ، فينصرف التلاميذ
إلى فناء المدرسة يشغبون ويلعبون ، حتى لزم هو كرسيه ، خالياً بنفسه .
وأقبل على قلمه يعمره بالمداد الأحمر .

وبينما هو كذلك ، إذ مرّ من جانب الفصل ضابطُ المدرسة ،
فلمحه قابلاً في ركبه ، فصاح به : ماذا يُبقيك هنا يا ولد ؟

فأسرع الصبيّ يخفي ما في يده ، قائلاً : لا شيء . . . سأخرج !
ولم يبرح الضابط مكانه ، حتى انجلى الصبيّ عن فصله .

وفي فترة الغداء ، عند الظهيرة ، تفرق التلاميذُ يتناولون الطعام ،
فاتهمز « دعبس الكومي » هذه الفرصة ، ولم يُنفقْ من وقته في
تناول طعامه إلا لحظاتٍ قلائل ، وأمضى بقيةَ الوقت قابعاً على كرسيه
يُمَتِّعُ نفسه بإجراء القلم الجديد على الصفحاتِ البيض ، يُبرِّقُها بذلك
المِداد الوردي الزاهي .

وقُبِيلَ استئناف الدروس ، مرَّ عن كَتَبٍ منه أحدُ أقرانه ،
فقال له : أتعبتُ بالكتابة ، وعليك أن تحفظَ جدولَ الضرب لتُمتَحَنَ
فيه اليومَ ؟ .

فأشرع الغلامُ عينيه ، وأجاب قرينه في دهشة :

وهل موعدُ الامتحان اليومَ ؟

فقهقه الصبيُّ قائلاً : أليس اليومَ يومَ الأربعاء ؟ . . . يبدو أنك

مشتاق إلى مِسْطَرَةٍ « مبروك أفندي » !

— ما هذا المزاحُ الثقيلُ ؟ الامتحانُ غداً .

— بل اليومَ ... أضحُ من نومك !

واستبان لـ « دعبس » أنه كان غافلاً ، وأن الامتحانَ يجري

اليومَ حقاً ، فارتجفت أوصاله ، وتراءت له مِسْطَرَةُ معلِّم الحساب ،

المعروفِ بالشدة في العقاب !

فانبرى يقلب دفاتره بحثاً عن جدول الضرب ، وهو مضطرب
متفزع . . . ولما وجده أكبَّ عليه يحاول استدكاره ، ولكنه ألفى
بصره يزيغ ، وأحسَّ برأسه يدور .

ورنَّ الجرس في هذه اللحظة ، فارتفعت جلبةُ التلاميذ في تدافعهم
إلى الفصول ، وهم يرددون الأرقام في أنفاسٍ متلاحقة .
وتجلى « مبروك أفندى » على عتبة الفصل ، صائحاً في عنف :

صَمْتًا يَا مَلَاعِين !

فانقطع الصَّخَب ، وساد السكون ، وتعلَّقت الأنفاس . . .
فدخل المعلم كالنَّعِيرِ المتخَطِّر ، شاهراً في يده مِسْطَرَّتَهُ التي ذاقَ التلاميذُ
من سطوتها لَذْعَ النار . . . وقد أراح طربوشه إلى الخلف ، فظهرت
قُصَّتُهُ شَعَثَاءَ مَغْبَرَةٍ ، تزيد غِلْظَةً ورهبة .

وما عَتَمَ « مبروك أفندى » أن ابتداءً يمتَحِنُ الغلمان ، فسأل أحدهم :

٩ × ٧

فتلعثم المسئول ، فهجم عليه المعلم يقول له : ابسُطْ يَدَكَ . . .
فقبضها الغلامُ خلفَ ظهره ، وهو يجمع في استرحام . ولكن
« مبروك أفندى » لم يَعْجِزْ عن بَسْطِ تلك اليدِ العَصِيَّةِ ، والإنهيال
عليها ضرباً بالمسطرة ، فكان وقعُ الضربات يمازج نَشِيجَ الغلام

وصياحه ، ويؤلف لنا مفزعا يهت الخشية في أرجاء الفصل جميعا .
وأحسن « دعبس الكومي » في هذا الوقت بأن يده كأنما
لَسَعَتْهَا عَقْرَب !

ونادى المعلم اسما جديدا ، وهو يقول : 7×9 . . . أَجِب !
فنطق التلميذ في جرأة يجيب بقوله : ٧٩
فإذا المعلم في خُطْفَةِ البرق ينتفض ، وإذا هو أمام التلميذ وجهاً
لوجه ، يقول له : جيد جداً . . . ستنال تسعا وسبعين ضربة !
وجعل يكيل له الضربات عَشَوَاء ، والتلميذ يتلو ويَجْأَر . . .
وبينما كان ذلك يجري في ركن من الفصل ، كان « دعبس
الكومي » يُمرُّ يده على جبينه ، والعرق يرفض منه في غزارة .
ومضى « مبروك أفندي » يتنقل بين أسماء التلاميذ ، ممتحناً إياهم
في نشاط وحماس ، وما هي إلا أن سمع « دعبس الكومي » اسمه
يَرِنُ في الفضاء ، فوقف مُرْءِشاً ، فصاح به المعلم يقول : 6×8
فَشَعَرَ الصبيُّ بأن لسانه قد اعتُقِلَ ، وأن الأرض تَدُورُ به ، فأعاد
المعلم سؤاله في صوت جهير : 6×8 . . . انطق يا ولد .

فأخذته نوبة إجهاش ، ولسانه يتعثر بهذه الكلمات :
والله العظيم يا أفندي نسيت أن آخذ جدول الضرب معي أمس

لأحفظه . . . والله العظيم يا أفندى سأحفظه !

فأزهزت عينُ المعلم الغيور ، ورفع يده بالمِسْطَرَّةِ لِيُهَوِّىَ بها على التلميذ .

وهنا اهتزَّ الغلام في موقفه اهتزازةً سقط على أثرِها قلمُه الجديد ، وما أسرع أن أدلى المعلم بنظره يتبينُ الأمر ، فبهرت عينُه لمعةَ القلم وهو يتوهج في وَضَحِ النهار ، فأنحنى عليه يلتقطه ، وطفق يتفحصه وقد بدت عليه أماراة الإهتمام . . . على حينِ كان « دعبس الكومى » يرتعدُ من فرَطِ الخوف .

ورفع « مبروك أفندى » رأسه عن القلم ، وهو يهمهم :
عرفتُ الآنَ ما ذا يُلهيكَ عن حفظ جدول الضرب . . . هذه
الأقلام . . . بدعةُ آخرِ الزمن !

وأراد الغلام أن يتكلم ، فاستعصى عليه القول ، وهمَّ بأن يمدَّ يده لِيأخذَ قلمه من المعلم ، فارتفع صوت « مبروك أفندى » قائلاً :

قسماً لا جزاءَ عندى لمن أجد عنده قلماً كهذا إلا أشدُّ العقاب !

واستدار يخطو إلى مِنْصَتِهِ ، فى صَدْرِ الفصل ، وهو يتنحنح وَيَسْعُلُ . . . فأما القلم فقد تسلل إلى جيب « مبروك أفندى » لِيأخذَ فيه قراره المكين .

وشغل المعلم نفسه فترةً بما بين يديه من دفاتر وأوراق ، ثم تكلم
خافت الصوت يقول : اجلس يا « دعبس » . . . سامحك هذه
المرّة . . . إياك أن يلهيك شيء عن واجبك !

وهو ي التلميذ على مقعده ، وهو في غمرة من حيرة وذهول .
واستأنف المعلم نداءه للأسماء ، وإجراءه للإمتحان ، حتى دقَّ
الناقوس ، أذاناً بانتهاء الدرس . . . فنزل « مبروك افدى » عن
المنصة ، واتخذ سبيله إلى الباب ، يخطو كالنمر المتخبط ، تتقدمه قصّة
الشعشع ، وتتراقص في يده مسطّراته العاتية !

وما كاد يتوارى عن الأنظار ، حتى علا نحيب « دعبس الكومى »
و بين جنبه من الغيظ جمرّة تتلظى . . .

فسأله أحد الرفاق : أتبكي وقد نجوت من المسطرة ؟
فنظر إليه الغلام مُغضباً ، دون أن ينبس .

وما لبث أن أمسك بزجاجة المداد الأحمر ، وقذف بها من النافذة ،
وهو يعرض على يده ، والتلاميذ من حوله في ضجّة يتضحكون . . .

فهرس

صفحة

شباب وغانيات	٥
شيخ الزاوية	١٤٧
كبشُ الفداء	١٦٣
ضربُ الحبيب	١٨١
جنازة حارة	١٩٥
طريق إلى الحب	٢٠٧
مسطرة « مبروك افندى »	٢١٧

أحدث مؤلفات

محمود نيمور

قصص نميلية :

ابن جلا
اليوم خم
حواء الخالدة
الخبأ رقم ١٣
سباد
المنقذة
عوالى
قنابل
أبو شوشة والموكب .

صور وفواطر :

ملاح و غضون
أبو الهول يطير
عطر ودخان
فن القصص

مجموعات قصصية :

كل عام وأنتم بخير
إحسان لله
خلف اللثام
مخفاه غليظة
بنت الشيطان
مكتوب على الجبين
فرعون الصغير
قال الراوى
سحاب وغانيات

قصص مطونة :

كليو باتره فى خان الخليلي
سلوى فى مهب الريح
رنداء المجهول